
دراسات تاريخية
١

الأمبراطورية البيزنطية

الدكتور عبد القادر أحمد اليوسف

الامبراطورية البيزنطية

دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر

صيدا ـ بيروت

١٩٦٦

الإمبراطورية البيزنطية

الدكتور عبد القادر أحمد اليوسف
دكتوراه الفلسفة في التاريخ

الناشر
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت
١٩٦٦

المقـــدمة

ان هذا الكتاب عبارة عن اول جزء من سلسلة تاريخية سوف تنشر تباعاً حسب الظروف ، اعتمدنا فيه على ما قدمه المؤرخون الثقاةمنمعلومات نتيجة لدراساتهم البيزنطية . والغاية منه ان يكون معينا للمبتدئيـــن في طريــق التخصص في التاريخ الاوروبي . وعساه ان يكون مفيدا للراغبين فـــي التزود من الثقافة التاريخية العامة في هذا الصدد لا سيما وقد راعينا فـــي بحثه التبسيط على قدر ما سمح به احتشاد الحوادث . كما اننا لم نحـــاول اثبات او تفنيد اي تفسير مـــن تفاسير التاريـخ للحقبة الزمنية التي عاشهـــا البيزنطيون . اذ اقتصر البحث على استعراض تاريخي وصفي خاطف لـــدة تزيد على احدى عشر قرنا ، آملين به ايضا ان يسد فراغا لقراء اللغة العربية والله المستعـــان .

المؤلف

الدكتور عبد القادر احمد اليوسف

١٩٦٦

الفصل الأول

ــ تمهيــد ــ

اراء في ظهــور الامبراطورية البيزنطية المرحلة المبكــــرة ، قسطنطـــين والمسيحية ، روما الجديــدة ((القسطنطينية))

متى بدأ التاريخ البيزنطي ؟ سؤال ذهب المؤرخون في الاجابة عنه سبلا شتى . فرأى خطأ فريق منهم اصلاحات دقلديانوس Diocletion ٢٨٤ ـــ ٣٠٥ وكأنها بداية حقه لذلك التاريخ (١) اذ قالوا ان تقسيم الامبراطورية الرومانية الى ادارتين اولاهما شرقية ومركزها نيقوميديا في اسيا الصغرى وثانيهما غربية مركزها ميلان في ايطاليا لم يكن لمجرد التسهيلات الاداريـــة والضرورات الدفاعية وانما هو صدى الواقع لما بين القسمين من فـــــروق اقتصادية ودينية وثقافية (٢) . ان المؤرخ اوستروكورسكي **Ostrogorsky** يرجع بداية اصول التاريخ البيزنطي الى الوقت الذي تغلبت فيه الامبراطورية على الازمة التي انتابتها في القرن الثالث في اجزائها الغربية وقد بقيت الاجزاء

---

1) Burgh, The Legacy of the Ancient World, vol. 11 (Middlesex, 1953) P. 394.

٢) وبالرغم من وجود تلك الفوارق بين القسمين فلم يقصد دقلديانوس خلق امبراطوريتين . ان اصلاحاته استهدفت جعل الادارة اكثر مركزية ومع انه اوجد لكل قسم امبراطورا وقيصرا الا ان السلطة العليا في يد الامبراطور الاقدم

الشرقية على العموم محافظة على قواها المادية . فمنذ عهـــد دقلديانوس على الاخص بدأ الاهتمام يتركز في الاقسام الشرقية . ويعتقد ايضا بأن التاريخ البيزنطي قد مر بثلاثة قرون انتقالية من عصر روماني اخير الى عصر بيزنطي ويمكن تسمية الفترة الانتقالية بالتاريخ البيزنطي المبكر (٣) غير ان التاريـــخ البيزنطي الخالص بدأ في العصر الهرقلي ، ان ذلك العصر يمثل نقطة التحول السياسي والثقافي في تاريخ روما الشرقية (٤) ويشير المؤرخ هســـــي

Hussey الى ان بوادر افتراق القسم الشرقي عن نظيره الغربي تلاحظ في اتجاهات قسطنطين الشرقية في المجالات الدينية والسياسية منذ اعترافـــه بالمسيحية وتبنيه لها وتشييده القسطنطينية جاعلا منها مقرا لحكمه ورمزا لجديد الاتجاهات في امبراطورية الرومان (٥) ويعتقد المؤرخ ديهل C. Diehl بان تاريخ الامبراطورية البيزنطية قد بدأ في ذلك اليوم الذي اختط فيه قسطنطين القسطنطينية (٦) . اما المؤرخ كبون Gibbon فيعتبر انفصال الجزئين عن بعضهما البعض كان في ٣٩٥ اي منذ وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الاول **Theodosius** وتقسيم الامبراطورية الرومانية بين ولديه اركـــاديوس **Arcadius** في الشرق (٣٩٥ — ٤٠٨) وأنوريوس في الغرب **Honorius** (٣٩٥ — ٤٢٢) . اذ تم في عهدهما توحيد ادارتي داكيا Dacia ومقدونيا وضمهما الى اليريا ، اصبح ذلك الاقليم بمرور الزمن الحد الفاصل الفعلي بين قسمي الامبراطورية (٧) وهناك من يعتقد بان القسم الغربي قد خـــرج عمليا عـــن السيطرة الرومانية على اثر الانقلاب الذي دبره الجنرال البربري ادوكر **Odovacar** سنة ٤٧٦ بالاتفاق مع مجلس الشيوخ في رومـــا ضد روميلوس **Rumulus** واستحوذاه على الحكم في ايطاليا . وقد تظاهر الامبراطور زينو **Zeno** بالموافقة على ان يحكم ادوكر نيابة عنه في القسم الغربي . ان ذلك التاريخ يمثل عند فئة من المؤرخين الوقت الذي سقطـــت فيه الامبراطورية الرومانية في الغرب (٨) . وقد اخذ الجزءان الغربـــــي

---

3) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, tr. by Hussey (Oxford, 1956) p. 21.
4) Ibid., p. 95.
5) Hussey J.M., The Byzantine World (London, 1961) pp. 11-14.
6) Diehl Charles, Byzance, Grandeur et décadence — la formation de l'empire orienal (Paris 1919).
7) Gibbon E., The Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. 111 (London, 1962) pp. 147-48.
8) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395 - 1500 (New York 1942). pp. 37-38.

والشرقي يشقان طريقين مستقلين عن بعضهما البعض/ . واشار المؤرخ سدني بينتر S. Painter الى ان تاريخ الامبراطورية قد بدأ بانتهاء حكم جستنيان الاول سنة ٥٦٥ وانه اخر امبراطور روماني (٩) ./ بينما يرى المؤرخ هنري بيرين H. Pirenne بداية الامبراطورية البيزنطية في اعتلاء جستينان الاول العرش (١٠)/ ويقول المؤرخ رايس D. T. Rice ان بداية التاريخ البيزنطي كانت في منتصف القرن السادس . وقد بنى رايس حكمه هذا على نظريته في الفن البيزنطي الذي تجلى باوضح صورة في ذلك التاريخ . وموجز نظريته . ان الفن البيزنطي عبارة عن امتزاج القيم الفلسفية الوثنية والمسيحية الارثوذكسية مع القيم الفنية الشرقية وقد تمثل ذلك بشكل خاص في القسطنطينية . وعلى هذا الاساس حسب نظرية رايس ، ان عصر جستنيان يمثل نقطة التحول في تاريخ الامبراطورية الرومانية ، انه نهاية عصر وبداية اخر جديد (١١)/ ويرى المؤرخ توينبي Toynbee ان الدهر قد عفا على الامبراطورية الرومانية في الغرب في نهاية القرن السادس وان الامبراطورية البيزنطية ما هي الا امبراطورية جديدة تكونت نتيجة لتحدي الاسلام للمسيحية في تلك الجهات في القرن السابع(١٢)/ وينسج قسم من المؤرخين على منوال توينبي تقريبا . اذ يعتبرون الفتوحات العربية الاسلامية من العوامل التي اسرعت في عملية تحويل الامبراطورية الرومانية الشرقية الى امبراطورية بيزنطية . فالتوسع الاسلامي جرد الامبراطورية الشرقية من ممتلكاتها في سورية وفلسطين ومصر وبقية الشمال الافريقي . وبذلك تحررت الامبراطورية الرومانية الشرقية من المشكلات العويصة في تلك الاجزاء وخاصة الدينية منها ، واصبحت الامبراطورية مهتمة في شؤون مجتمع متجانس الى حد ما مذهبيا ولغويا يمكن ان يطلق عليه المجتمع البيزنطي . بالاضافة الى ان الضغط الاسلامي على القسطنطينية خلق شعورا موحدا في ذلك المجتمع بضرورة الدفاع المشترك ، فلاحت الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الثامن وكانها وحدة قومية (١٤) . وقد واجه الاباطرة

---

9) Painter S., A History of the Middle Ages, 284-1500 (London 1962) pp. 34-35.
10) Pirénne H., A History of Europe, From the Invasion, to the XVI Century (New York, 1955) p. 37.
11) Rice D.T., Art of the Byzantine Era (London, 1963) p. 8.
12-14) Toynbee A.J., A Study of History, vol. IV (London, 1937) pp. 320-408.

التحدي الأسلامي بايجاد تنظيم عسكري جـديد في اسيا الصغرى ، استند على جعل استثمار الارض الزراعية وراثيا في اولئك المزارعين الذين يتعهدون بالخدمة العسكرية في الجيش الامبراطوري (١٥) /ان تلك التطورات الداخلية التي استندت على العلاقات الانتاجية للاقطاع والتي بدأ بمعالجتها هرقل ، اعتبرها المؤرخ اوستروكور سكي البداية الفعليـة لتاريخ الدولة البيزنطية وما التاريخ السابق لتلك التطورات سوى مقدمة وتمهيد (١٦) /

ومن الطريف حقا ان المؤرخ بيورى Burry لا يعتقد بوجود اي تاريـخ لميلاد الدولة البيزنطيةويعتبرها مجرد امتداد لامبراطوريةالرومان ويطلق عليها الامبراطورية الرومانية الشرقية . وان هذه الامبراطورية قد فقدت سيادتها النظرية على الغرب حينما اعترفت بامبراطورية شارلمان الكارولنجية ٨١٢ . هذا مع العلم ان المؤرخ السابق يعتقد من ناحية ثانية بوجود حضـارة بيزنطية (١٧) /. ويذهب المؤرخ بينز Baynes الى العكس من وجهة نظر بيوري اذ يقول : بان هناك امبراطورية بيزنطية تمركزت حـول مدينة بيزنطـة الاثرية التي قامت على انقاضها مدينـة قسطنطين (١٨) ./

ان المؤرخين الذين ينظرون الى سنة ٨٠٠ م بأنها الوقت الذي زالت فيـه السيادة النظرية لاباطرة الرومان في الشرق على الغرب وانها التاريخ الذي يصلح لاعتباره بداية للامبراطورية البيزنطية ، فانهم يستندون الى حـادثة تتويج شارلمان ملك الفرنك امبراطورا في يوم عيد الميلاد لتلك السنة في كنيسة القديس بطرس في روما من قبـل البابا ليو الثالث (١٩) . ان حـادثـة التتويج هذه قد خلقت امبراطوريتين متنافستين الا وهما الامبراطوريـة الكارولنجية في الغرب والامبراطورية الرومانية الشرقية . كما ان الحادثـة ذاتها قد جردت اباطرة الرومان الشرقيين من مسحة التقديس الدينية في القسم الغربي في زعامتهم للعالم المسيحي في الشؤون الدينوية . وتستند مسحة التقديس هذه على نظرية السيفين Theory of the TwoSwords او حسبما يشار اليها ايضا بنظرية السلطتين الدينية والزمنية التـي اتم بلورتهـا

---

15) Baynes and Moss, Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization (Oxford, 1961) p. XVI.
16) Ostrogorsky, Op. Cit. p. 78. See also in Ibid, pp. 86-89.
17) Bury J.B., A History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene, 395-800. Vol. 1 (London, 1889) pp. 5-7.
18) Baynes, Moss, Op. Cit. p. 16.
19) Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1955) p. 319.

البابا جيلاسيوس الاول Gelasius I ٤٩٢ ــ ٤٩٦ ــ فالعالم المسيحي حسب هذه النظرية اشبه بالكائن الحي تشرف على روحه وخلاصها السلطة الروحية العليا وتشرف السلطة الزمنية او السياسية على ضبط فعاله الدنيويه فالعالم تحكمه قوتان قوة روحية يهيمن عليها البابا وأخرى دنيوية يهيمن عليها الامبراطور . وتشتغل هاتان القوتان بانسجام تام وتمثلان ارادة الله . لـذا فتتويج شارلمان وحمله التاج الروماني يشير الى ان كنيسة روما لم تعـد تعترف بغير شارلمان امبراطورا شرعيا لعرش الرومان سيما وانه لا يجوز شرعا حسب تلك النظرية وجود غير امبراطور واحد للمجتمع المسيحي في اي وقت من الاوقات (٢٠) ./

هذا ويعتقد المؤرخ فاسليف Vasiliev (بان كلمة بيزنطة لم تعـد مقتصرة على التسمية السياسية والجغرافية بل هي عبارة عن امتزاج بيـن التعاليم المسيحية والتراث الهلنستي الوثني ، نشأ عنه ثقافة خاصة يشـار لها بالثقافة المسيحية الاغريقية تمركزت حول روما الجديدة) (٢١)/

ان تكوين الأمبراطورية البيزنطية تكوينا اقتصاديا وثقافيا وسياسيا حصيلة عوامل عديدة متفاعلة في ظروف قاهرة لم يكن بمقدور السلطات الرومانيـة الحيلولة دونها . وقد امتدت عملية التفاعل هذه عبر دهور بدت اعراضهـا المبكرة منذ انفراد قسطنطين بحكم الامبراطور الرومانية سنة ٣٢٤ وتوضحت باجلى مظاهرها في النصف الاول من القرن الثامن .

المرحلـة المبكـرة :

يعتبر حكم قسطنطين الاول هاما بالنسبة لتاريخ الامبراطورية الرومانيـة بصورة عامة وللتاريخ البيزنطي بصورة خاصة . وذلك لاتجاهاتـه الايجابية تجاه المسيحية واعترافه بها وتبنيه لها واعتناقه اياها بصورة رسمية في اخر يوم من حكمه وهو على فراش الموت . وكذلك لبنائه القسطنطينية « رومـا الثانية » وجعلها مركز حكمه . وعليه فان انتصار المسيحية وانتقال نقطـة الارتكاز السياسي الى الشرق الهلنستي تمثلان نقطتي الانطلاق الى التاريخ البيزنطـي (٢٢)

وقبل الخوض في سياسة الامبراطور قسطنطين يجدر بنا ان نتساءل قليلا

---

20) Sabine, A History of Political Theory (New York, 1961). pp. 194-96.
21) Vasiliev A., A History of the Byzantine Empire, vol. 1 (Madison 1964), **p. 43.**
22) Ostrogorsky, Op. Cit. pp. 24-5.

عن تاريخه . ولد قسطنطين في مدينة نيش Naissus في داكيا (٢٣) . وقد اصبح والده كلوروس قسطنطينيوس Chlorus Constantius ٣٠٥ امبراطورا مشاركا في القسم الغربي . وذلك على اثر تنازل كل من دقلديانوس وماكسيميان Maximian حسب اتفاقهما عن العرش الروماني وقد اسندا ايضا حكم القسم الشرقي الى الامبراطور المشارك كاليريوس Galerius وعرف عن قسطنطينوس مواقفه السلمية تجاه المسيحيين غير انه لم يستمـر طويلا في الحكم اذ توفي ٣٠٦ في بريطانيا بعد ان عين ابنه قسطنطين خلفا له وقد نادت به الحامية الرومانية في بريطانيا امبراطورا . وقرر قسطنطيـن ان ينتهج سياسة والده السلمية تجاه المسيحيين (٢٤) .

اما كيفية انفراده بحكم الامبراطورية فجاء على اثر سلسلة من تصارع القوى في الامبراطورية الرومانية من اجل الاستئثار بالسلطة اذ اسفـرت ثورة في روما عن خلع الامبراطور كاليروس واندلاع الحروب الاهلية .والمناداة بمكسنتيوس Maxentius بن الامبراطور ماكسميان امبراطورا . وقدسار الامبراطور ماكسيتيوس على سياسة هوجاء اذ وصفه المؤرخ يوزبيوس بانه كان خليعا متهتكا ومتعطشا للدماء (٢٥) . وادت تصرفاته الى ازدياد النار اشتعالا . وقد تمكن قسطنطين وحليفه ليكينوس Licinus من الانتصار على جيوش ماكسينتوس في موقعة جسر مليفان Milvian Bridge قرب روما سنة ٣١٢ وقد هلك ماكسينتوس غرقا في نهر التايبر Tiber اثناء محاولته الانهزام (٢٦) . فحكم قسطنطين القسم الغربي بينما تـولى حكم القسم الشرقي ليكينوس . غير ان الصفاء لم يستمر طويلا بين الشريكين اذ سرعان ما نشبت الخصومات من أجل السيادة على الامبراطورية انتهـت بانتصار عسكري باهر حققه قسطنطين على غريمه سنة ٣٢٤ . وقد انفرد قسطنطين الكبير بالحكم منذ ذلك التاريخ حتى وفاته سنة ٣٣٧ .

لقد اشرنا الى ان هناك حادثتين هامتين في تاريخ ذلك الامبراطور الاولـى اتجاهاته الايجابية نحو المسيحية والثانية بناء القسطنطينية والتي اصبحت القاعدة الاساسية للامبراطورية . اما بالنسبة للنقطة الاولى فقد يتساءل المرء

---

23) Gibbon, op. cit., vol. 1, p. 386.
24) Eusebius, The History of the Church, from Christ, to Constantine, tr. G.A. Williamson (Middlesex, 1965) pp. 346-7.
25) Eusebius, op. Cit., p. 347.
26) Vasilliev, op. Cit. p. 44.

عن الدوافع الحقيقية لسلوك قسطنطين في ذلك المجال . اهي لحكمه سياسيه؟ ام لدوافـع دينية اصيلة ؟ هنا يختلف المؤرخون فيما بينهم اختلافا كبيرا فـي الاجابة عن ذلك . فقد اعتقد الراهب المؤرخ يوسيبيوس صديق الامبراطور بان دوافع قسطنطين هي دينية املتها الارادة الالهية واشار (ان عدم اعـلان مسيحيته بشكل رسمي منذ البداية يعود لمشيئة الله . وقد امره الله قبيل وفاته بان يترك سياسة الحذر وان يعلن تنصره) (٢٧) ولقد رد المؤرخ Boissier على المتشككين يصدق دوافع قسطنطين الدينية بقوله (٢٨) :

انه لمن سوء الحظ عندما نبحث في حياة العظماء الذين مثلوا دورا قياديـا في التاريخ من النادر ان نكتفي بالتفاسير الطبيعية . فطالما ان هؤلاء الناس لهم شهرة فذة فلا نريد ان نعتقد بان تصرفهم لا يختلف عن تصرفات الناس الاخرين . لهذا نحاول ان نتحرى الاسباب الدفينة وراء اعمالهم فننسب لهم التأمل العميـق والفطنة الحادة والذكاء الخارق ... وهذا ما يصدق علـى قسطنطين . فالاعتقاد السائد بان هذا السياسي البارع حاول خـدعنا . فكلما تهافت على الدين واعلن نفسه انه المؤمن الحقيقي كلما زادت الشكوك والمحاولات لبرهنة عكس ذلك . ولاثبات انه لم يكن في حقيقته الا متشكك ولم يعر الدين ادنى اهتمام صادق وانه يفضل اي دين يجنى من ورائه اكبر فائدة خاصـة .

حقا ان قسما كبيرا من المؤرخين يعتقدون بان سياسة قسطنطين الدينية قد املتها ضرورات سياسية . فالمؤرخ جاكوب بركهارت **Jacob Burchhardt** يرى (ان قسطنطين لا يأبه للدين وانه يستغل اي شيء فيه قوة لمركـزه ويساعده على تحقيق مطامحه . وما تفضيلـه المسيحية الا لانـه ادرك بذكائه ان ذلك الدين سوف يصبح قوة عالمية) (٢٩) . ويشير المـؤرخ اللاهوتي هرناك Harnach في كتابه انتشار المسيحية في القرون الثلاثة الاولى (بان المسيحية في نفوذ متزايد في القرن الرابع بالرغـم مـن ان المسيحيين لا يكونون الاغلبية في الامبراطورية ، ومع ذلك فقد كان لهم نفوذ واسع في المدن والارياف وخاصة في الجهات الشرقية ، اذ انتشرت في اكثرية ولايات اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر والشمال الافريقي.

27) Eusebius, Op. Cit,, p. 13.
28) Quoted in Vasiliev, Op. Cit., p. 45.
29) Ibid., p. 45.

وقد اطلع قسطنطين بنفسه على مدى النفوذ المسيحي في اسيا الصغرى قبل توليه الحكم) (٣٠) . هذا ويحاول المؤرخ ديوري Duruy ان يوفق بين الدافعين الديني والسياسي اذ يقول ما ملخصه (ان اعتقاد قسطنطين اشبه بالاعتقاد بالاله الواحد ومع ذلك فان سياسته تجاه المسيحية مدفوعة بدوافع سياسية . ويجد شبها بين سياستي قسطنطين وبونابارت تجاه الدين وخاصة عندما حاول الاخير تحقيق الصلح بين الكنيسة والثورة . اذ توخى قسطنطين ان يعيش العالمان القديم والحديث في سلام جنبا الى جنب وكان في الوقت ذاته يفضل المعتقد الجديد . وقد ادرك بثاقب رأيه الطريق الذي يسير فيه العالم ... ثم يقول حاولنا ان نتحرى اعمق دقائق تفكير قسطنطين فوجد نافية سياسة حكومة اكثر من ايمان ديني (٣١) .

وهناك راي اخر يأخذ به رجال الدين في تفسير سلوكه الايجابي تجاه المسيحية منذ اوائل حكمه . وموجزه انه راى حلما قبيل خوضه المعركة ضد خصمه ماكسنتوس بشره بالنصر . وتضمنت الرؤيا صليبا نورانيا يحيط بالافق عند غروب الشمس مكتوبا عليه بهذا تنتصر ثم تراءى له المسيح في الليلة التالية مخبرا اياه ان يتقدم الى المعركة بالصليب . وقد وصف قسطنطين حلمه الى قادته وامرهم بجعل الصليب الراية الحربية والتي عرفت لباروم Iabarum والراية عبارة عن صليب طويل على شكل سهم ، علقت فيه قطعة من حرير على جزئه العرضي ، موشاة بالذهب ومحلاة بالاحجار الكريمة تحمل صورة قسطنطين واولاده وفي قمة الصليب ورود من ذهب تحف بصورة المسيح . وقد اصبحت تلك الراية رسمية للحكومة البيزنطية منذ عهد قسطنطين (٣٢) .

ان المتأمل في مجموع الروايات والاراء لا بد وان يستنتج بان اتجاه قسطنطين الايجابي نحو المسيحية لم يكن وليد الساعة وانما كان نتيجة لاطلاع شخصي على مدى قوة المسيحية بالرغم مما يقال عن نسبتهم العددية بالنسبة لمجموع سكان الامبراطورية الرومانية . فان تأثيراتهم كانت عميقة في المناطق الحيوية للامبراطورية كاسيا الصغرى وسوريا ومصر

---

30) Ibid., p. 46.
31) Ibid., p. 60.
32) **Ibid, p. 60.**

وبقية الشمال الافريقي وقد اصبحت هذه الاماكن اعشاشا للمسيحيين هذا وان قسطنطين كان على علم بان الاضطهاد التاريخي للمسيحيين لم يعق انتشار المسيحية بل انها ازدادت انتشارا وازداد المسيحيون تمسكا بها (٣٣) . وعليه من الجائز ان تكون سياسة قسطنطين الايجابية تجاه المسيحية مبعثها الخوف من الدعوة المسيحية لخطورتها على الامبراطورية. فالمسيحية من الدعوات الكبرى في التاريخ المناهضة في بدايتها للسلطة الرومانية (٣٤) . دعوة وجهت انذاك الى الفقراء ومحبي الخير لهذا الانسان فاستصرخت الضمائر ضد الاستغلال والطغيان والتمييز الطبقي وضد ظلم الانسان لاخيه الانسان . فدعت الى المساواة والسلام والمحبة والايثار . في عصر كانت المظالم فيه تعصف بالناس عصفا وتعتصرهم الاحداث اعتصارا واصبحت المباديء التي تدعو اليها المسيحية خطرا ماثلا امام السلطات الرومانية والطبقات العليا في ذلك المجتمع فالدعوة للمساواة (٣٥) تتناقض كليا مع الطبقية والاستغلال والامتيازات . كما ان مناداتها بالكفاف الاقتصادي إنذارا موجها للطبقات العليا بان تكف عن الاتكال في عيشها على تعب الوف الكادحين . وقد مهمت دعوتها الى السلم والموادعة تهديما للجهاز العسكري الروماني . اما نبذها الاوثان وعدم اعترافها بتاليه الامبراطور فهي من الامور المفككة للرابطة الرومانية . وقد كانت هذه المباديء التي تضمنتها العقيدة المسيحية سببا مبررا لدى السلطات الرومانية في شنها الاضطهادات المتكررة قبل تولي قسطنطين الحكم . اذ نظر الى الكنيسة على حد تعبير كبون (وكأنها حكومة اخرى في داخل الامبراطورية يجب القضاء عليها قبل ان تصبح لها قوة عسكرية) (٣٦) .

ان المواقف السلبية التي اتخذتها الكنيسة تجاه المؤسسة الامبراطورية والاجهزة الحكومية كافة قد اضطرت السلطات الرومانية في مطلع القرن الرابع على التفكير جديا في معالجة المشكلة المسيحية باسلوب ايجابي والعمل على كسب ود هذه القوة المتنامية بدل معاداتها . وقد تمثلت تلك السياسة الجديدة في تصرفات كل من قسطنطينيوس وكالريوس

---

33) Strayer a Munra, Op. Cit., p. 30.
34) Gibbon, Op. Cit. Vol. 1, p. 2.
35) Fisher H. A. L., A History of Eurape, from the Earliest Times to 1713 (London, 1957) p. 102.
36) Gibbon, Op. Cit. Vol. 11, 52.

وقسطنطين نفسه .

ان السياسة الايجابية التي اتبعتها الحكومة الرومانية تجاه المسيحية في مطلع القرن الرابع ضرورة حتمتها ظروف الامبراطورية . فالضعف الذي اخذ يدب في قسم الامبراطورية الغربي في المجالات الاقتصادية والايدي العاملة جعل السلطات الرومانية منذ اواخر القرن الرابع تعتمد بشكل رئيسي في مواردها المالية وشؤونها الدفاعية على جهاتها الشرقية (٣٧) في اسيا الصغرى وسوريا ومصر والانحاء الليبية ، تلك الجهات التي تركزت فيها المسيحية ، هذا وان العلاقات العدائية بين الفرس والرومان وللمخاطر المهددة للامبراطورية من قبل قبائل الغوط في جهات الدانوب من العوامل الهامة التي ادت بكل من كالريوس وقسطنطين ان يعملا على كسب ولاء السكان في الجهات الشرقية وذلك بجعل الكنيسة قوة مؤيدة بدلا من معاداتها حفظا على وحـدة الامبراطورية ومناعتهـا ، هذا بالاضافة الى امكانية الاستفادة من مجهودات رجال الدين التبشيرية بين القبائل الوثنية الجرمانية في جهات الدانوب بصورة خاصة لكسر حدة طباعهم وترويضهم ودفع شرورهم بمؤاخاتهم دينيا ولامكانية الاستفـادة منهم في شؤون الامبراطورية . واخذت السلطات الرومانية منذ عهد دفلديانوس تبـدي اهتماما متزايدا في الجهات الشرقية وتمثل ذلك في اقامته في نيقوميديا في اسيا الصغرى وانعكس ذلك الاتجاه بشكل جلي في سياسة التسامح والاعتراف بالمسيحية وبتشييد قسطنطين لروما الجديدة على ساحل البسفور والتي اصبحت رمز المعتقد الجديد ومحور التاريخ البيزنطي .

تشير المصادر التاريخية الى ان نقطة التحول في سياسة الامبراطورية تجاه المسيحية دشنت في مرسوم التسامح Edict of Toleration وبما يسمى بمرسوم ميلان Edict of Milan فقد اصدر الامبراطور كالريوس المرسوم الاول في سنة ٣١١ وغفر هذا المرسوم للمسيحيـين مقاومتهم العنيدة السابقة للسلطات . واعلن فيه حقهم القانوني في الوجـود وحرية عقد الاجتماعات الدينية شريطة عدم الاخلال بالنظام . وجاء في ذلك المرسوم (وعليه فبموجب التسامح الذ ياوليناهم اياه يمكنهم عبادة ربهم من اجلنا واجل الامبراطورية ومن اجل انفسهم) (٣٨) . اما عن المرسوم الثاني فيقول المؤرخ فازليف : كان الاعتقاد بين المؤرخين الى وقت قريب

37) Ostrogorsky, Op. Cit., p. 27.
38) Eusebius, op. cit. pp. 401-403.

ان هناك مرسوما قد اصدره كل من قسطنطين وشريكه ليكينوس اثـــر انتصارهما على ماكسنتوس يشار له بمرسوم ميلان سنة ٣١٣ (٣٩) . وقد دلت الابحاث التاريخية على ان هذه التسمية غير صحيحة وان ما يسمى خطـــا بمرسوم ميلان عبارة عن رسالة بعث بها ليكنوس الـــى نيقوميديا يوضح فيها سياسة الحكومة تجاه المسيحيين في تلك الانحاء وهي عبارة عن تأكيد على سياسة التسامح (٤٠) .

ان سياسة قسطنطين منذ ٣٢٤ كانت موجهة للمحافظة على وحـــدة الامبراطورية في كافة النواحي وخاصة الدينية منها . فهو لم يجعل مـــن المسيحية الديانة الرسمية للدولة وانما عاملها على قدم المساواة مـــع الاديان الاخرى (٤١) .

غير ان قسطنطين جابهته مشكلة جديدة في داخل المجتمع المسيحـــي الا وهي المشكلة الاريوسية التي اخذت تهدد مجتمعات اسيا الصغرى والجهات الشرقية بصورة خاصة بالتفكك (٤٢) .

لقد شهد القرن الرابع صراعا عقيديا عنيفا بين المسيحيين في الاقسام الشرقية مما ادى الى ضرورة تدخل السلطات لحسم النزاع . والمشكلة الاساسية هي نظرية اريوس في الابن والاب . اذ قال هذا بوحدانية الله ولا يمكن للابن ان يساوي الاب جوهرا وقدسية وازلية (٤٣) . ويعتقـــد البعض ان الاراء الاريوسية مستمدة من المدرسة الانطاكية التي مارست نشاطها منذ النصف الثاني من القرن الثالث وان المؤسس لتلك المدرســـة الفكرية الانطاكية هو لوقيان Lucian السوري (٤٤) . وعلى كل فقـــد ساند اريوس في القرن الرابع العديد من رجال الدين في الشرق امثـــال الراهب بوزبيوس نفسه (٤٥) ، وقد تلقى قسطنطين بعد انتصاره علـــى خصمه ليكينوس سنة ٣٢٤ عدة شكاوى من اتباع اريوس وخصومـــه على حد سواء . وقاد المعارضة لاراء اريوس بطريق الاسكندرية اثناسيوس Athanasius وقد اقترح قسطنطين في البداية على كل من اريوس

---

39) Vasiliev, op. cit., p. 44.
40) Ibid., 51.
41) Lot F, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages (London, 1931) p. 29.
42) Gibbon, op. cit., Vol. 11, p. 273.
43) Ostrogor,ky, op. cit., p. 44.
44) Vasiliev, op. cit., p. 55.
45) Bullough S., Roman Catholicism (Middlesex, 1963), p. 54.

وخصمه ان يسويا المشكلة فيما بينهما . فوجه الامبراطور رسالة خاصـــة في هذا المعنى الي بطريق الاسكندرية بصحبة راهب هوسيوس Hosius وقد شرح الاخير الى قسطنطين عند رجوعه خطورة المشكلة بين الاريوسية وخصومها . لهذا أمر الامبراطور بعقد مؤتمر عالمي ديني كان الاول مـــن نوعه في تاريخ الكنيسـة . Ecumenical Council في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ . وقدر عدد المؤتمرين بـ (٣١٨) عضوا واكثريتهم من رجال الدين في القسم الشرقي ، واوفد البابا نائبين عنه لحضور الاجتماع (٤٦) . وقـــد افتتح الامبراطور الاجتماع ومما قاله (ان مسؤولية السلام في الامبراطورية تقع على عاتقي ، وانه ليسؤوني ان ارى ذلك الصراع بين الصف المسيحي. ان هذه الفتنة لاخطر انواع الحروب ٤٧) . وقاد المساجلة ضد الاريوسية اثناسيوس الذي تمسك بالراي الارثوذكسي القائل بان المسيح هو ابن الله ومن نفس جوهره وقد ايدت اكثرية المؤتمرين ذلك الراي . وقد رفض اريوس الانصياع الى قرار المؤتمر فامر الامبراطور بنفيه وفرض الاقامة الاجباريـــة عليه . وقال قسطنطين في ختام ذلك المؤتمر (لم يعد للشيطان حول علينا ولا قوة . حيث ان مخططاته الرامية للقضاء علينا قد نسفت من اساسها . ان العناية الالهية قضت على عوامل الانقسام والفتنة والشغب السموم المفرقـــــة) (٤٨) .

لم ينجح مؤتمر نيقيا في القضاء على الاراء الاريوسية . اذا استمـــر المذهب الاريوسي في الانتشار وخاصة في جهات اسيا الصغرى وسوريا وعبر الدانوب بين قبائل القوط الجرمانية . لقد اصبح الامبراطور بمرور الايام من المؤيدين للاريوسية وقد امر فعلا بالافراج عن اريوس واصحابه . وامر ان يلقى بالسجون بمعارضيهم المتمسكين بقرارات مؤتمر نيقيا (٤٩) . واصبحت الاريوسية في سني حكمه الاخيرة ذات تأثيرات كبرى في البلاط الامبراطوري . ومع ذلك فقد بقي قسطنطين من ناكية رسمية وثنيا الى اخر يوم من حياته حيث عمد وهو على فراش الموت من قبل الراهب الاريوسي يوزبيوس راهب نيقوميديا (٥٠) ، وكذلك امر بتعميد اولاده (٥١) . ولعل ذلك

---

46) Vasiliev, op. cit., p. 55.
47) Bullough, op. cit. 53-54.
48) Ware T., The Orthodox Church (Middlesex, 1964), pp. 28-30.
49) Vasiliev, op. cit., 57.
50) Eusebius, op. cit. 13.
51) Vasiliev, op. cit. 57.

للامبراطور المسيحي . اذا اشار الى ان الامبراطورية رغما عن كونها الحدث من الاسباب الهامة التي الهمت يوزبيوس نظرية السيادة والسلطان مؤسسة دنيوية الا انها مقدسة يحكمها امبراطور نيابة عن المسيح في هذه الدنيا (٥٢) . وقد مهدت سياسة قسطنطين اتجاه المسيحية الى تدخل الاباطرة في الشؤون الكنسية في الكنيسة الشرقية والى ظهور بما يسمى البابوية القيصرية . Caesaropapism (٥٣) .

وعلى العموم فلم تطلق الامبراطورية تراثها القديم ، اذ لم يكن الاعتراف بالمسيحية محاربة المدنية الوثنية انذاك . اذ بقي التراث الوثني الفلسفي والفني محط رعاية المسيحيين وخاصة في القسم الشرقي . كما لم يقصد بالاعتراف بالمسيحية احداث تغييرات سياسية أو ادارية . فالسلطة الامبراطورية المطلقة اصبحت مباركة من قبل المسيحيين واعتبرتها الكنيسة تمثل ارادة الله . واستمر الجهاز الاداري بتقسيماته ووظائفه التي وضعها دقلديانوس (٥٤)

اما الحدث الثاني الخطير في تاريخ قسطنطين فهو نقله عاصمة الامبراطورية الى شواطيء البسفور . اذ امر بتشييد عاصمته الجديدة سنة ٣٢٤ بجوار خرائب بيزنطة اليونانية . وكانت بيزنطة من امهات المدن اليونانية التابعة لحكومة مدينة مكارا Megara وقد امرت حكومة تلك المدنية بتأسيس بيزنطة سنة ٦٥٧ ق.م. واستعانت في تخطيطها باحد قادتها البحريين المسمى بيزاس Byzas الذي يرجع الفضل اليه في اختيار الموقع وسميت المدينة التي اشادها باسمه . وقد بقيت بيزنطة المطلة على البسفور ذات مركز تجاري هام واستراتيجي حصين وحياة مزدهرة الى ان دمرتها الجيوش الرومانية بقيادة سيفيروس في اواخر القرن الثاني للميلاد لقيامها بثورة ضد الرومان (٥٥) .

لقد حاول اباطرة الرومان منذ عهد يوليوس قيصر الانتقال بعاصمتهم الى الشرق . اذ فكر هذا في جعل الاسكندرية او طروادة عاصمة له . وجعل دقلدياتوس عاصمته في نيقوميديا في اسيا الصغرى اما قسطنطين فقد فكر بعدة اماكن قبل الاقدام على بيزنطية سنة ٣٢٤ ، منها مدينة

52) Hussey, op. cit., 12.
53) Baynes and Moss, op. cit., XXVIII.
54) Hussey, op. cit., p. 13.
55) Runciman, op. cit., pp. 9-10. See also, Vasiliev, op. cit. 57.

تيش مثلا (٥٦) وهناك اخبار ظريفة عن كيفية اختيار قسطنطين لعاصمته الجديدة وتخطيطها . ففكرة انشائها اعتبرت وحيا من السماء . اذ ترائت له أمرأة مقدسة اثناء نومه بين اسوار بيزنطية ازاحت عنها غبار السنين واستوت عذراء باهرة الجمال . وتقدمت نحو الامبراطور فزينت يديه بكافة رموز العظمة . واستفاق قسطنطين مباشرة من نومه وهو ملم بكل مـــا انطوت عليه الرؤيا شارعا لتوه في تنفيذ الارادة الربانية (٥٧) . . ويقول المؤرخ كبون عن هذه الرؤيا (انها عادة الرومان منذ القديم ان ارادوا انشاء مدينة جديدة او مستعمرة فينسبونها الى امثال تلك المعجزات ثم يحتفلون في افتتاحها حسبما تأمر به خوارق الطبيعة التي سببت بنائها ٥٨) .

ومع ان قسطنطين اعرض عن كثير من المراسيم التي تحمل طابعـــا وثنيا عميقا الا انه ابقى على قسم منها في تخطيط مدينته ليلقي في روع المشاهدين الرهبة من تلك المدينة ورجاء الخير من مستقبلهـــا . اذ قـــاد الامبراطور بنفسه مسيرة التخطيط حافي القدمين شاهرا رمحه ومؤشرا فيه على الارض خطة البناء وحدود المدنية . وقد رأى المختصون ان الامبراطور قد تجاوز في تحديد المدينة الحد المعقول الذي يجعلها مدينة عظيمة فارادوا ايقافه . غير انه ايتدرهم قائلا انني سوف استمر سائرا حتى يأمر الدليل غيرالمرئي الذي يسير امامي انه من المناسب ان اكف عن السير . وهنا يعلق المؤرخ كبون بقوله (انه من الخير لنا الا نتساءل عن هذا الدليل غـــير المنظـــور ٥٩)

تقع مدينة قسطنطين على درجة عرض ٤١ وتسيطر تلالها السبـــع على شواطيء قارتي اسيا وا وروبا من تلك الجهات . ان جمال الموقـــع وستراتيجيته وصحيته وثراءه من العوامل الكافية لاختيار ذلك الموقع عاصمة. ان المساحة التي اختطها قسطنطين قدرت بمائة وخمسين اكرا وتمتـــد اسوارها من الميناء مارة بقاعدة شبه الجزيرة المثلثة حافة بالتلال السبعة بما فيها بيزنطة . وقد شغلت الحدائق والقصر الامبراطوري الجانـــب الشرقي واول التلال السبعة . وصرف على بنائها ما يعادل مليوني وخمسماية

56) Runciman, op. cit., p. 11. See also, Vasiliev, op. cit., 58.
57) Gibbon, op. cit., Vol. 1, p. 77
58) Ibid., p. 78.
59) Ibid., pp. 79-88.

الف جنيه ، وسخر لبنائها اربعين الف عامل . وحشد لزخرفتها طاقات كافة الخبراء . ويقول المؤرخ كبون (سلب مدن الشرق والغـــرب نفائسهـــــا لاستخدامها في تزيين المدينة) ثم امر ببناء الملعب الرياضي الذي يبلغ طوله اربعمائة خطوة وعرضه مائة خطوة (٦٠) . وقد تم افتتاحها في اليــوم الحادي عشر من شهر مايس . سنة ٣٣٠ وقد اسماها الامبراطور رومـــا الجديدة غير ان الناس فضلوا تسميتها باسم مؤسسها (٦١)

هذا وقد اعتبر المؤرخ رنسيمان Runciman السنة التي دشنت فيهـــا القسطنطينية خير بداية للتاريخ البيزنطي (٦٢) .

---

60) Ibid., pp 79-88.
61) Runciman, op. cit., p. 11.
62) Ibid., p. 11.

اباطرة القسم الشرقـــي

٣٣٧ — ٥١٨

Constantin	337 - 361
Julian	361 - 363
Jovian	363 - 364
Valens	364 - 378
Theodosius I	379 - 395
Arcadius	395 - 408
Theodosius II	408 - 450
Marcian	450 - 457
Leo I	451 - 474
Leo II	474
Zeno	474 - 491
Anastisius I	491 - 518

الفصل الثاني

مشاكل الامبراطورية

٣٣٧ ـ ٥١٨

الفرق الدينية الهامة : تذبذب سياسة الاباطرة الدينية، المؤتمرات العالمية الدينية، مشاكل القبائل البربرية : القوط الغربيون ، الوندال ، الهون ، زينو والقوط الشرقيون الوضع العام في قسم الامبراطورية الشرقي

لم تكن البدعة الاريوسية الوحيدة من نوعها والتي تعرضت لها الكنيسة في الفترة التي نحن في صددها . فقد عصفت الاراء المختلفة في كيان المجتمع المسيحي الشرقي وادت الى تفكيك الرابطة الكنسية في الشرق والى ظهور كنائس متعددة متصارعة حسب تعدد الفرق الدينية بينما احتفظت كنيسة روما بوحدة صفها الديني وقد مكنها ذلك من التفوق والهيمنة على الشؤون الدينية في الغرب ، وكانت الاساس في ادعائها الزعامة الروحية العالمية على كافة المجتمع المسيحي فيما بعد . وادت البلبلة الدينية في الشرق الى اضعاف مركز القسطنطينية الديني في العديدمن جهات الامبراطورية في القسم الشرقي والى عدم تمكنها من منافسة كنيسة روما في الزعامة الدينية في الغرب . ومن اوائل تلك الفرق هي :

١ ـ المانوية Manichaeism وسميت بذلك نسبة الى مؤسسها ماني *Mani* الذي بشر بأرائه في النصف الثاني من القرن الثالث وانتشرت تعاليمه في اسيا الصغرى وسوريا وشمال افريقيا . وكانت اراؤه مزيجا من التعاليم البابلية والفارسية القديمة (٦٣) . اذ اعتقد بوجود قوتين تتحكمان في مصير العالم هما الخير والشر او النور والظلام . وان الصراع بين هاتين القوتين هو صراع بين الرحمن والشيطان ذلك الصراع الذي يقرر مصير الاحداث . وان الحياة الدنيا يتحكم فيها الشيطان (٦٤) .

وقد فسر المسيحية حسب ذلك المفهوم ، معتبرا العهد القديم من صنع الشيطان بينما العهد الجديد من صنع الرحمن . ولم يكتف بذلك بل حاول التشبه بالمسيح ونسب اليه الادعاء بأنه الروح المقدسة وأحاط نفسه باثني عشر حواريا (٦٥) . هذا وقد اجتذبت الاراء المانوية في بداية الامر القديس اوغسطين St. Augustine غير انه نبذها فيما بعد معتنقا المسيحية حسب مذهب كنيسة روما ، واخذ في تفنيد العقيدة المانوية في كتابه (الاعترافات Confessions) ٦٦ . وبالرغم من الاضطهادات التي لاقاها المانيون فقد استمرت عقيدتهم تظهر باسماء مختلفة من زمن الى اخر كالفرقة البولصية Paulician التي اسسها بولص سامو ساتا Pauls Samosata في القرن الثالث في جهات سوريا . وكان بولص رئيس اساقفة انطاكيا في وقت كانت فيه سوريا باجمعها تحت سيطرة اذنية وزنوبيا . ويقال انه كان موظفا ماليا مسؤولا عن الجباية في تلك المنطقة لحساب دولة تدمر ، وكان راتبه ما يعادل الفا وستمائة جنيه سنويا ،(٦٧) وقد ظهر هذا بمظهر القياصرة واتهم بالاستهتار الخلقي (٦٨) . وبقي محتفظا بمنصبه الديني بالرغم من تحريمه من قبل رجال الكنيسة الارثوذكسية وذلك لمساندة الملكة زنوبيا له . واخيرا ازاحه الامبراطور اورليان Aurelian (٢٧٠ ـ ٢٧٥) من ذلك المنصب (٦٩) . ومع ذلك فقد قويت فرقته في

---

63) Gibbon., op. cit. Vol. 11, p. 260.
64) Ostrogorsky, op. cit. p. 238.
65) Eusebius, op. cit. pp. 319-320.
66) Saint Augustine Confessions, Translated with an Introduction by R.S. Pine — Cappin (Middlesex, 1964) pp. 91-111.
67) Gibbon, op. cit., p. 44.
68) Euseius, op cit. p. 316.
69) Ibid., p. 319,

القرن الرابع في جهات اسيا الصغرى (٧٠) . ومن اهم ميزاتهم الاعتقادية قولهم بأن (المسيح هو بشر ومن اهل هذه الدنيا ولم يصدر عن السماء)٧١ . وقد انتشرت هذه الفرقة فيمابعد في اقطار اوربا تحت اسما متعددة منذ اواخر القرن الثامن (٧٢) .

الدوناتية Donatism ظهرت في شمال افريقيا في اواخر القـــرن الثالث واشتد امرها في القرن الرابع . وسميت بالدوناتية نسبة الـــى المؤسس دوناتوس Donatus وجوهر المشكلة الدوناتية صراع بـــين الارستقراهية الحاكمة والسواد المحكوم والى هذا يشير المؤرخ ستيفن نيل Stephen Neill (لعبت الفوارق الأقتصادية والاجتماعية واللغويةوالرسيبة ادوارا هامـــــة) ٧٣ ، واعتقدت الفرقة بان السلطة السياسية هي من وحي الشيطان فهي شريرة في طبعها . واتخذ عداؤها للسلطة طابع كفاح طبقي ، اذ وجهوا نقمتهم ضد ملاك الارض ولم يقبلوا من هؤلاء مسيحيتهم لاعتقادهم بان دخولهم المسيحية بعد الاعتراف بها كان للمحافظة على املاكهم وامتيازاتهم السياسية (٧٤) . ويذكر المؤرخ كبون بان السببالمباشر لثورة الودناتيين كان حول المنافسة على رئاسة الكنيسة في قرطاجة بين كل من كاكليان Caecilian ودوناتوس في عهد حكم دقلديانوس . وقد امـــر قسطنطين باضطهاد الدوناتيين واستمرت مقاومة هؤلاء في شمال افريقيـــا لقرابة ثلاثة قرون (٧٥) . كما انهم وقفوا مواقف متعارضة مع الفرق المسيحية الاخرى المؤيدة للسلطات ويعتقد القديس اوغسطين بان مـــروق هذه الفرقة لم يكن بتلك الخطورة ، لانهم حادوا عن الطريق السوي نتيجـــة للتكتم الشديد في ممارسة طقوسهم الدينية اثناء الاضطهادات التي شنت على المسيحيين في تلك الجهات ولعدم اطلاعهم على التطورات في شرح التعاليم الدينية لانعزالهم عن المراكز الدينية الاخرى . ولهذا فعندما ولـــى عصر الاضطهاد وجهر المسيحيون بارائهم واصبح المعتقد من الاديان المعترف بها استمر هؤلاء في نظرتهم المريبة للسلطات ولكافة الفرق المؤيدة للحكـــم

70) Gibbon, op. cit. p. 260.
71) Eusebius, op cit., 317.
72) Vasiliev, op. cit, Vol. 11, p. 382.
73) Neill S., A History of Christian Missions (Middlesex, 1964) p. 38.
74) Baynes and Moss, op. cit., p. 90.
75) Gibbon, op. cit., pp. 262-63.

الروماني ، وكانوا عاملا هاما في تسهيل مهمة الفتح الواندالي لشمالـــي افريقيا (لانهم وجدوا في الوندال منقذين لهم من بطش السلطات الرومانية)٧٦.

٣ ـــ البلاجيوسية Pelagianism نسبة الى بيلاجيوس Pelagius الذي بشر بتعاليمه في اوروبا وشمال افريقيا واشترك في مساجلات دينية ضـــــد اصحاب الفرق المختلفة . وظهر بيلاجيوس في أوائل القرن الخامس وكان معاصرا للقديس اوغسطين الذي اهتم كثيرا في الرد على ارائه (٧٧) وموجز مذهب بيلاجيوس عدم الاعتراف بالخطيئة الاولى وتوارثهـــا ، وان الانسـان حر في ارادته (٧٨) . وان التعميد لم يكن ضروريا ، كما ان كل نفس سائرة الى الزوال ولا يوجد مخلوق ازلي ، ان الله خلق الانســـان ووهبه العقل والادراك ولذلك وجب محاسبته ، لان الله لا يحاسب انسانا مسلوب الارادة . وقد ذهب اوغسطين الى العكس مما ذهب اليه بيلاجيوس واشار بان كل شيء يعتمد على مشيئة الله (٧٩) . وبقيت البلاجيوسية تلعب دورا هاما في القضايا الدينية وخاصة في الجهات الاوروبية حتـــى سنة ٥٢٩ اذ قرر مؤتمر ديني عقد في مدينة اورانج Orange بطلانها واتباع المنطق الاوغسطيني والانصياع لكنيسة روما (٨٠) .

٤ ـــ النسطورية Nestorism

سميت بهذا الاسم نسبة الى نسطور Nestorius الذي اصبح بطريق القسطنطينية سنة ٤٢٨ . حاول نشر اراء مدرسة انطاكيا التي ينتمـــي اليها (٨١) . وموجز ارائه ، انه تتواجد في المسيح طبيعتان الهية وبشريـــة غير ان الطبيعة الاخيرة هي المتغلبة على شخصية المسيح . وان العذراء لم تكن اما لتلك الطبيعة الالهية وانما هي ام المسيح البشري . وتصدت لاراء نسطور كنيسة الاسكندرية في عهد رئيس اساقفتها كيرل Cyril الذي كان يعتقد كما تعتقد كنيسة روما بأن الله خلق انسانا تمثلت فيه الطبيعتان الالهية والبشرية بارادتين . وقد اقر مؤتمر افيسوس الديني المنعقد سنـــة ٤٣١ بطلان النسطورية واعتبارها بدعة . وقد عزل نسطور عن منصبه(٨٢) .

76) Gibbon, op. cit., Vol. 111.
77) Ibid., p.200
78) Ware T., op. cit., p. 227.
79) Burgh, op. cit., p. 378.
80 Leff G., Medieval Thought, St. Augustine to Ocklam (Middlesex, 1962)
81) Baynes and Moss, op. cit., p. 95.
82) Ware T., op. cit., pp. 32-33.

المونوفستية Monophysitism

لقد تطرفت مدرسة الاسكندرية اثر وفاة كيرل سنة ٤٤٤ وقاد الحركة المتطرفة كل من دأيوسكورس وبوتيخس Eutyches Dioscorus وتوصلا الى ان الطبيعتين الالهية والبشرية في المسيح قد امتزجتا وكونتا طبيعة واحدة مقدسة . وقد اطلق على اصحاب ذلك المذهب باتباع الطبيعة الواحدة Monophysites وهكذا فقد اكد هؤلاء الطبيعة الالهية في السيد المسيح وأن تلك الطبيعة الالهية قد أبتلعت الطبيعة البشرية (٨٣) .

تذبذب سياسة الاباطرة الدينية .

ساعد الاعتراف بالمسيحية على أشتداد الصراع العقيدي في داخل المجتمع المسيحي من جهة وبين المسيحيين والوثنيين من جهة اخرى وقد أنعكس ذلك الصراع في تصرفات السلطة الحاكمة وكان من شأنه العمل على تعميق الفوارق بين الجزئين الشرقي والغربي (٨٤) .

ان مؤتمر نيقيا الذي امر قسطنطين الكبير بعقده سنة ٣٢٥ لم يفلح في وضع حد للتفرقة بين الصفوف المسيحية من ناحية العقيدة . اذ انقسم المسيحيون على اثر قرارات ذلك المؤتمر الى فريقين كبيرين هما المتمسكون بقرارات المؤتمر والمسمون (بالنيقيين) والمعارضون لتلك القرارات ، ومن اهم الفرق المناوئة هي الفرقة الاريوسية (٨٥) . ولقد تأرجحت السياسة الدينية للحكام حسب التطورات الدينية في هذا المضمار . اذ تقرب قسطنطين الكبير في اواخر حكمه من الاريوسيين فأغدق عليهم الامتيازات وامر باضطهاد خصومهم من النيقيين (٨٦) . كما انقسم اولاد قسطنطين الكبير الثلاثة وهم قسطنطين ٣٣٧ ــ ٣٤٠ وقسطان ٣٣٧ ــ ٣٥٠ وقسطنطينيوس ٣٣٧ ــ ٣٦١ ، بين الاريوسية والنيقية . فقد اتبع الاول والثاني القرارات النيقية وحكما الجزء الغربي بينما تأرجح الثالث بين الاتجاهين وكان يحكم الجزء الشرقي . ومع ذلك فقد عملت محاولة لتسوية الخلاف في مؤتمر ديني عقد في سارديكا على الحدود بين الجزئين ٣٤٣ غير ان كلا من الفريقين تمسك برأيه . واخيرا اضطر قسطان اخاه قسطنطينيوس على اتباع النيقية . وادى ذلك الى انقسام الاريوسيين الى فرقتين هما الاريوسية المعتدلة

---

83) Ibid., p. 34.
84) Ostrogorsky, op. cit., p. 45.
85) Burgh, op. cit.
86) Ostrogorsky, op. cit., 44.

القائلة بتشابه جوهري الاب والابن والاريوسية المتطرفة التي لا تعتــرف بالتشابه اطلاقا . غير ان الامبراطور قسطنطينيوس عاد الى المذهـــب الاريوسي بعد مقتل اخيه قسطان سنة ۳٥٠ جاعلا اياها الدين الرسمـــي في مؤتمر ريميني وسيرميوم Sirmium and Rimini المنعقدان في سنة ۳٥٩ . واسفرت تلك السياسة عن انقسام اخر بين الاريوسيين المعتدلين اذ اتبع قسم منهم السياسة الرسمية وفضل القسم الاخر اتباع النيقية . وقـــد عارضت كل من كنيستي روما والاسكندرية سياسة ذلك الامبراطور الدينية (۸۷) . وقد تمركزت المعارضة حول بطريك الاسكندرية اثناسيـــوس Athanasius (۲۹٦ ـــ ۳۷۳) بصورة خاصة . كما اتبع قسطنطينيوس سياسة عنيفة ضد الوثنيين ، فاصدر مرسوما قصد فيه وضع حد (للخزعبلات الوثنية) وابطال تقديم القرابين للاوثان واغلاق دور العبادة الوثنية . وهدد المخالفين بالاعدام . كما امر بازالة مذبح النصر Altar of Victory من قاعة مجلس الشيوخ في روما . لقد كانت سياسة هذا الامبراطور كابوسا ثقيلا على النيقيين والوثنيين ، لذا رحب الطرفان بموته سنة ۳٦۱ اذ قال القديس جيروم في تلك المناسبة (مات الوحش وعاد الهدوء) ۸۸ .

اما فترة حكم الامبراطور جوليان Julian ۳٦۱ــ۳٦۳فمثلتخطرا على المسيحية بكافة فرقها ، وذلك لمحاولته اعادة مجد الوثنية ومكافحتـــه المسيحية بشتى السبل والاساليب . وكان هذا ذو ثقافة عالية ، وترك اثارا ادبية كشفت عن مدى اطلاعاته الثقافيـــة الواسعـــــة وعن اتجاهاتـــه الفلسفيـــــة (۸۹) .

لقد عاش جوليان في توتر نفسي اثناء حكم ابن عمه قسطنطينوس ولخوفه من فتك ذلك الامبراطور الذي قضى بالموت على اكثرية اقاربه . اذ شدد الرقابة عليه وطوح به من مكان الى اخر . وقد اطلع اثناء اقامتـــه في نيقوميديا على التراث الوثني ووقع تحت التأثيرات الفكرية للفيلســـوف الوثني ليبانيوس Libanius وقد اتيحت له الفرصة ثانية على الاستزادة من التراث الوثني اثناء اقامته الاجبارية في اثينا . واضطر قسطنطينوس ان

87) Ibid., pp. 44-45.
88) Vasiliev, op. cit., 67-8.
89) Gibbon, op. cit., p. 360.

يعهد له بولاية العهد سنة ٣٣٥ نظرا لعدم وجود وريث له . ثم انفذه على راس حملة الى بلاد الغال لمقاومة القبائل الجرمانية المغيرة على تلك الجهات ، فاحرز عدة انتصارات اثارت حسد الامبراطور وقلقه . فطلب الامبراطور من جوليان ارسال قسم من جيشه الى الجهة الفارسية ورفض الجند اطاعة امر الامبراطور ونادوا بجوليان امبراطورا . وقد ناشد الاخير قسطنطينوس ان يعترف بالامر الواقع وكادت ان تنشب الحرب بين الطرفين لولا وفاة قسطنطينوس في سنة ٣٦١ (٩٠) .

شرع جوليان في تنفيذ مشروعه الذي طالما تبناه سرا الا وهو اعادة مجد الوثنية لهذا امر بفتح دور العبادة للوثنيين ومنحهم الحرية المطلقة في اقامة شعائرهم الدينية . وتقدم جوليان بنفسه في القسطنطينية بتقديم القرابين للاوثان في قصره الامبراطوري . وحدثت له حادثة طريفة اثناء ذلك . اذ اقترب منه رجل اعمى يقوده صبي وصاح الاعمى في وجه الامبراطور واصفا اياه بالكفر والالحاد والارتداد . فاجابه جوليان (ان ربك الجليلي ايها الاعمى سوف لا يشفيك) فرد هذا (احمد الله الذي جعلني اعمى لكيلا ارى فجورك) ٩١ .

حاول جوليان مكافحة المسيحية بتقوية الاجهزة التنظيمية للمؤسسات الوثنية . فامرهم بتنظيم مسلك كهنوتي على غرار التنظيمات المسيحية واتباع الاساليب المؤثرة في الجماهير عن طريق الوعظ والاجتماعات العامة (٩٢) . وامر بالتسامح الديني لكافة الطوائف المسيحية وتشجيعهم على اقامة المساجلات الدينية فيما بينهم سواء اكانوا من النيقيين او الاريوسيين . وهدف جوليان من ذلك الى ازادة الفرقة والانقسامات بين الطوائف المسيحية للامعان في اضعافهم ثم اقدم على ابعاد المسيحيين من المناصب الادارية مستبدلا بهم الوثنيين (٩٣) . وامر بابطال الراية الرسمية Labarum واستبدال الصلبان التي يحملها الجنود على دروعهم بالرموز الوثنية (٩٤) .

---

90) Vasiliev, op. cit., 70-7.
91) Ibid., p. 71.
92) Baynes and Moss.
93) Gibbon, op. cit. p. 372.
94) Iid., 379.

ولعل اخطر الاساليب التي اتبعها جوليان في اضعاف المسيحية هي الاساليب الثقافية . اذ اشترط على اساتذة الدين ان يكونوا مرشحين من قبل سكان المدينة التي يدرسون فيها . ويجب على سلطات المدينة رفع قائمة باسماء المرشحين الى الامبراطور للنظر في اسناد الوظائف التدريسية لهم ثم حتم على كافة الاساتذة عدم التطرق الى مواضيع من شأنها ان تختلف مع وجهة نظر الدولة الرسمية . وصرح جوليان مخاطبا الاساتذة المسيحيين (انه لمن الخطل ان ينتقص الاساتذة الذين يدرسون تراث فلاسفة اليونان من كرامة الالهة التي قدسها هؤلاء الفلاسفة ... ان الاساتذةالذين يكسبون عيشهم على فتاة هؤلاء العظماء يجدر بهم الا يبيعوا هؤلاء الرجال بالثمن البخس ركضا وراء الجشع والاطماع ... (٩٥)..

واشار رامانوس مارسلينوس Ammanus Marcellinus صديق الامبراطور الى سياسة جوليان الدينية ضد المسيحيين بقوله (حرم جوليان التدريس على الاساتذة المسيحيين الا اذا عادوا لعبادة الالهة . ويعلق المؤرخ كبسون على ذلك بقوله (لقد حرم المسيحيون مباشرة من التدريس ومن الدراسة بصورة غير مباشرة لان المسيحيين لا يرسلون اولادهم الى مدارس وثنية)٩٦.

لم تؤثر سياسة جوليان السلبية في معونيا تالمسيحيين ولاحظ ذلك بنفسه عند زيارته لانطاكيا التي قال عنها (اختارت الالحاد دينا) ويقصد بذلك المسيحية . ودون جوليان في كتابة المعنون كاره اللحية Misopogon وهو كتاب تهكمي ، مواقف سكان انطاكية العدائية من سياسته أثناء مروره بها وهو على راس حملة لمقاتلة الفرس ، حيث قابله الانطاكيون بالفتور والاشمئزاز وكثيرا ما سخروا منه وخاصة لان له لحية طويلة طولا غير مألوف (٩٧) . وعند زيارته لاحد المعابد الوثنية خارج المدينة اصابتهالدهشة حينما لم ير في المعبد سوى الكاهن وبطته التي اعدها قربانا . ومما وتر العلاقات بين الامبراطور والانطاكيين اندلاع الحريق في ذلك المعبد الوثني بصورة مفاجئة ، لهذا امر باغلاق كنيسة انطاكيا الكبرى (٩٨) .

---

95) Ibid, 389-390.
96) Ibid., 390.
97) Vasiliev, op. cit., 75.
98) Gibbon, op. cit., 395-97.

ان معتقد جوليان الديني عبادة الشمس والاهها متراس *Mithras* وشرح فلسفته الدينية في كتابه (ملك الشمس) وتتلخص نظريته بوجود ثلاثة عوالم وثلاثة شموس . هي الشمس العليا اصل المخلوقات والحق المطلق وهي السبب الاول ومملكة المباديء العليا . ثم العالم الظاهر والشمس الظاهرة ، ان العالم المادي انكاس غير مباشرة عن اعالم الاول . وبين العالمين المجرد والمادي يقع عالم الفكر والاخير ايضا عبارة عن انعكاس عن العالم الروحي المجرد ملك الشمس (٩٩) .

توفي جوليان في سنة ٣٦٣ اثر اصابته بسهم ونسب الحادث عند البعض الى المسيحيين . حيث قيل ان جوليان جمع كمية من دمه في كفه ورماها في الفضاء قائلا (انتصرت ايها الجليلي) ١٠٠ .

وهكذا تخلصت المسيحية من عدو عنيد وخسرت الوثنية اخر بطل من ابطالهـا .

لقد اعاد جوفيان Jovian ٣٦٣ — ٣٦٤ مركز الكنيسة الى سابق عهده ، ولا يعني ذلك اضطهاد الوثنية لانه توخى اعادة الامن والهدوء الى كافة الاديان . ومع ان جوفيان من اتباع الاتجاه النيقي لم يتبع سياسة سلبية ضد اي من الفرق المسيحية الاخرى ، كما امر باعادة استعمال الراية المسيحية راية قسطنطين (١٠١)

لقد استمر الانقسام وتذبذب السياسة الرسمية بين الاتجاهين النيقي والاريوسي اثر وفاة جوفيان . اذ خلفه اخواه فالنتين الاول Valentinan ٣٦٤ — ٣٧٥ وفالنز Valens ٣٦٤ — ٣٧٨ واصبح الاول يحكم القسم الغربي والثاني القسم الشرقي ، واتبع كل منهما سياسة دينية مغايرة لما يتبعه الاخر .. اذ اتبع فالنتين قرارات مؤتمر نيقيا التي تتمسك بها كنيسة روما . بينما تمسك الثاني بالمذهب الاريوسي (١٠٢) . ومع ذلك فان فالنتين سار بسياسة تسامحية تجاه كافة الطوائف المسيحية والاديان بينما عمل فالنز على النقيض من ذلك . حيث كانت سياسته تعسفية ضد كافة الفرق المناوئة للاريوسية . ولعل من الاسباب الهامة في

99) Vasiliev, op. cit., 77.
100) Ibid, 78. See also, Gibbon, op. cit., 440.
101) Gibbon, op. cit., 456.
102) **Runciman, op. cit., 26.**

اتباعه الاريوسية محاولة استمالة القبائل القوطية التي تفشت فيهـــا الاريوسيـــة .

انتهجت الامبراطورية سياسة موحدة تجاه المسيحيين فـــي عهـــد الامبراطور كراتيان Gratian ٣٧٥ — ٣٨٣ — الذي اناب عنه في حكم الشرق الامبراطور ثيودوسيوس الاول Theodosius ٣٧٩ — ٣٩٥ حيث قد تمسك كل منهما بقرارات مؤتمر نقيا . ولعب ثيودوسيوس الاول دورا هامـــا في اعلاء شأن المسيحية بموجب المذهب النيقي وجعلها الدين الرسمـــي الاوحد للامبراطورية (١٠٣) ، وانبرى هذا لمكافحة الايوسية ، عـــن مذهبه الاوامر الى بطريق القسطنطينية الاريوسي يأمره بالعدول عن مذهبـــه والرجوع الى العقيدة الاصلية التي اقرها مؤتمر نيقيا (١٠٤) . واتبعت كافة الكنائس في القسطنطينية السياسة الامبراطورية بالرغم من احتجاج البطريق واعتزاله المنصب .

كما اتجه هذا الامبراطور اتجاها عنيفا ضد الهراطقة والوثنيين . حيث اشار مرسومه الصادر سنة ٣٨٠ (الى ان الذين يعتقدون بالاب والابن وروح القدس هم المسيحيون الكاثوليك وما عداهم عبارة عن جماعة مـــن الحمقى والمجانين وليس يحق لهم تسمية محلات اجتماعاتهم الدينية بالكنائس وانهم خارجون على القانون) ١٠٥ . وهدف الامبراطور الى تحقيق وحـــدة الامبراطورية الدينية لهذا امر بعقد مؤتمر ديني عالمي في القسطنطينيةسنة ٣٨١ وهو المشار له بالمؤتمر الديني العالمي الثاني توصل فيه المؤتمرون الى قرارات خطيرة . اذ اكد القرارات النيقية ثم عالج موضوع البطرقيـــات الكبرى وقرر جعل مركز القسطنطينية الديني يلي مركز البابوية . وقـــد رفض بطاركة الشرق الاخرون الاعتراف بهذا التفضيل .

هدف ثيودوسيوس الاول من سياسته الدينية ان يكون ايضا المحكـــم الاول في الشؤون الكنسية . فاصطدمت فكرته هذه مع فكرة القديس امبروس St. Ambrose اسقف مدينة ميلان . اذ اعتقـــد الاول بتفـــوق السلطة الزمنية على الدينية بينما اعتقد الثاني بخلاف ذلك . واضطـــر القديس المذكور على اصدار قرار التحريم ضد الامبراطور على اثر حوادث

103) Gibbon, op. cit., vol. 111, p. 119.
104) Baynes and Moss, op. cit., p. 4.
105) Vasiliev, op. cit., 80.
106) Ibid, 81.

مدينة سلانيك الدامية . وموجز ذلك ان سكان سلانيك ثاروا ضد الحامية هناك وكانت هذه متألفة من القوط الذين استفزت تعدياتهم الفردية اهالـــي المدينة واسفرت الثورة عن مقتل القادة واكثرية جنود الحامية . لهذا شـــن الامبراطور حملة انتقامية ضد الثوار . حيث ارسل اليهم جيشا غوطيا غالي في الانتقام من السكان وقد استفزت هذه الاعمال ذلك القديس فكانتسببا في اتخاذ قرار التحريم . واضطر الامبراطور فيما بعد الى طلبالصفـــح والغفران . ومنع القديس الامبراطور من ارتداء الحلل الامبراطورية اثناء مراسيم التوبة . وتضمنت هذه الحادثة تفوق السلطة الروحية على الزمنية واصبحت من السوابق التي تمسكت بها الكنيسة الغربية في صراعها فيمـــا بعد مع السلطات الزمنية (١٠٨) .

لجأ ثيودوسيوس الاول الى سياسة العنف والمطاردة ضد الوثنيين وامر بتهديم معابدهم ونهبها وحرم عبادتهم تحريما قاطعا في مرسومه الصادر سنة ٣٩٢ (١٠٩). ومع ان سياسة هذا الامبراطور مثلت الانتصار الكامل للمسيحية على الوثنية الا انه لم يكن باستطاعته وضـــع حد لانتشار الفرق المسيحية المناهضة .

اما الاتجاهات الدينية لاباطرة القرن الخامس فلم تكن علـــى وتيرة واحدة . ففي باديء الامر ايد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ — ٤٥٠ نسطور رئيس بطارقة القسطنطينية غير انه تراجع عن ذلك وامر بنفـــي نسطور الى مصر على اثر القرارات التي اتخذت في المؤتمر العالمي الثالث المنعقد في أفيسوس سنة ٤٣١ (١١٠) . ثم اعتنق الامبراطور في اخريات سني حكمه المونوفستية مما ادى الى اثارة كنيسة روما . ان سياســـة الترضية التي اتبعها الامبراطور ماركيان Marcian ٤٥٠ — ٤٥٧ حيال كنيسة روما ، والمصادقة على مقررات مؤتمر خلقدونيا Chalcedon المؤتمر الديني العالمي الرابع ، التي حرمت المونوفستية ادت الى نفور بطركيـــة الاسكندرية بصورة خاصة . واتجهت هذه سبيلا دينيا وقوميا مستقلا عـــن الامبراطور ية منذ ذلك التاريخ ، ونتج عن ذلك ثورات في القدس وانطاكيا

---

107) Ibid., 82.
108) Strayer and Munro, op. cit., 20.
109) Gibbon, op. cit., 136-160.
110) Vasiliev, op. cit., 99.

قمعت بعد اراقة دماء غزيرة (١١١) .

هذا وقد حاول الامبراطور زينو Zeno ٤٧٤ — ٤٩١ ايجاد حل وسط لارضاء الفرقة المونوفستية ، فاصدر مرسومه المسمى بمرسوم الاتحاد Henoticon وتجنب هذا الخوض في بحث طبيعة المسيح ، مكتفيا بالتأكيد على ما جاء في قرارات المؤتمرين الاولين ، نيقيا والقسطنطينية واشار المرسوم بان المسيح في طبع واحد مع الله وفي طبع واحد معنا في الطبيعة البشرية وتعمد ايضا عدم استعمال طبيعة واحدة او طبيعتين (١١٢) . وكان هذا المرسوم نشازا بالنسبة لكل من المونوفستين والارثوذكس، حيث احتج الارثوذكس على التنازلات الدينية التي جاءت فيه ، بينما اعتبره المونوفستيون غامضا . وهكذا ادت سياسة زينو في المجال الديني الى انقسامات اخرى في الصفوف الأرثوذكسية والمونوفسيتية والى احتجاجات البابوية وتوتر العلاقات بين روما القديمة والجديدة . اما بالنسبة للارثودكس فهناك فريق تمسك بمرسوم الاتحاد مفضلا اتباع السياسة الرسمية للدولة ، واتخذ فريق اخر مواقف عدائية من السياسة الدينية الجديدة للامبراطور . والفريق المعارض جماعة متطرفة من الرهبان زاهدة في الحياة يسبحون الله بكرة واصيلا ولهذا فقد اطلق عليهم لقب (الفرقة الساهرة Akoimetoi ١١٣ كما انقسم المونوفستيون الىجماعتين احداهما مؤيدة لسياسة الامبراطور واخرى مناهضة اصبحت تعرف بالفرقة السائبة أو العديمة الرئاسة Akeptaloi أما بابوية روما فقد اصدرت قرار التحريم في حق بطريق القسطنطينية اكاسيوس Acacius حيثاعتبرته مسؤولا عن هذه السياسة الدينية التي انتهجها الامبراطور (١١٤) .

واجاب الاخير على قرار التحريم بعدم ذكر اسم البابا في المراسيم الدينية . ان الحادثة الاخيرة ترمز الى اول انشقاق بين الكنيستين الغربية والبيزنطية وقد استمرت القطيعة الى سنة ٥١٨ . وهكذا فان الهوة السياسية بين الجزئين الشرقي والغربي اخذت بالاتساع نتيجة للخلافات الدينية وخاصة في عهد ذلك الامبراطور (١١٥)

---

111) Ibid., 105-6
112) Beynes and Moss, op. cit., 99-100.
113) Ibid., 144-145.
114) Vasiliev, op. cit., 108.
115) Ibid., 109.

اما الامبراطور انستاسيوس الاول Anastasius ٤٩١ — ٥١٨ فاتبع سياسة دينية كان لها مضاعفات خطيرة — اذ اتخذ المونوفستية مذهبا له مما اثار كنيسة روما بشكل اعنف من السابق ونجمت عن تلك السياسة ثورة في القسطنطينية واخرى في اليونان وحاول رئيس الثوار في اليونان فيتاليان Viatalian الزحف بجيش بربري نحو القسطنطينية برا وبحرا وتمكن الامبراطور من دحر تلك القوات بعد تضحيات كبيرة .

وعليه فان تذبذب سياسة الاباطرة الدينية منذ وفاة قسطنطين الكبير من بين العوامل الاساسية التي اربكت الاوضاع الداخلية في الامبراطورية وكانت سببا هاما في الاسراع في عملية افتراق القسمين الغربي والشرقي عن بعضهما البعض .

المؤتمرات الدينية العالمية Oecumenical Councils

قامت المجالس الدينية العالمية في هذه الفترة وفيما بعد من ناحية نظرية بدور القوة اللامة الى المركز ضد القوى الانتباذية . اما من ناحية واقعية فلم يكتب لجهودها ذلك النجاح فكانت قراراتها سببا هاما في تسعير الخلافات الدينية بين الفرق والى ابتعاد كل من روما والاسكندرية والقسطنطينية عن بعضها البعض . وان العمل الاساسي لتلك المؤتمرات الدينية ينطوي على جانبين هامين . الاول لتنظيم الكنيسة المرئية وتوضيح مبادئها ولتحديد مراكز البطرقيات الرئيسية . والثاني لتحديد العقيدة وتعريفها بموجب الاسس الرئيسية التي ترتكز عليها كالثالوث (١١٦) والتقمص Incarnation ويعتقد المسيحيون ان الثالوث والتقمص هما من الاسرار التي لا تفسرها لغة الانسان ولا يرتقى اليها فهمه . ولم تكن غاية المؤتمرين تفسير هذه الاسرار ولكن ليبعدوا عنها الاراء الخاطئة وليحولوا دون وقوع المسيحيين في الخطأ والانزلاق في البدع .

ان المناقشات في تلك الفترة هدفت الى غرض معين الا وهو انقاذ الانسان Salvation of Man الذي انفصل عن الله لوقوعه في الخطيئة حسبما جاء به العهد الجديد . ولا يمكن للانسان بمحاولاته الخاصة ان

---

١١٦) للاستزاده راجع الاب بولس اليسوعي ، خلاصة الدين المسيحي (بيروت ١٩٦٥) ص ص ٤١ — ٤٤

يخلص نفسه من تلك الخطيئة . لهذا اتخذ الله الخطوة من جانبه . اذتمثل بشرا سويا وصلب ثم نهض من القبر لتخليص الانسان من عبودية الخطيئة والموت (١١٧) . هذه النقطة هي اساس الرسالة المسيحية التي حاولت المجالس الدينية العالمية معالجتها والحفاظ عليها فالبدع الدينية ظواهر خطرة يجب استئصالها لانها تعرض تعاليم العهد الجديد الى الخطر وانها تقيم حاجزا بين الله وعبده ويصبح من المتعذر على الانسان ان يتوصل الى الانقاذ الروحي الكامل .

وقد جاء في التعاليم الاولى وخاصةعنبولص بان المسيح الهياوبشريا . وعليه فكل بدعة دينية اخذت بدورها تسيء فهم احد الجانبين في المسيح . فهي اما قد جعلته اقل من الله ، كالاريوسية او انها ميزت الجانب البشري عن الجانب الرباني وجعله بشخصيتين بدل شخصية واحدة كالنسطورية او انها لم تمثله كانسان حقا . كالمونوفستية . لهذا فالمجالس الدينية العالمية الاولى اكدت التعاليم الاصيلة . فان مؤتمري القرن الرابع ركزا الاهتمام على موضوع (ان المسيح يجب ان يكون ربا) وعملت على اظهار عقيدة الثالوث Trinity . اما المؤتمرات الاخرى المعقودة فيما بعد فقد ركزت الاهتمام على بشرية المسيح التامة ، محاولة توضيح المشكلة القائلة كيف ان الطبيعتين البشرية والالهية . قد امتزجتا في شخص واحد (١١٨) .

ان اول مؤتمر عالمي ديني هو مؤتمر نيقيا سنة ٣٢٥ ومن قراراته رفض الاراء الاريوسية كما ذكرنا سابقا . ولعلنا نتذكر بان اريوس قد اشار الى ان الابن لا يساوي الاب قدرا ورسم خطا فاصلا بين الله والمخلوقات وعامل المسيح بانه مخلوق ولكنه مخلوق متفوق ودوافع اريوس بلا شك للدفاع عن وحدانية الله وسموه . غير ان اعتبار المسيح بانه اقل قدرا ومكانة من الله قد صير انقاذ الانسان متعذرا . لهذا قرر مؤتمر نيقيا بان (لا يمكن للمسيح ان يعود بنا الى مرضاة الله بدون ان يكون الها) وان المسيح هو (من جوهر الله) وعليه فلا يمكن ان يكون المسيح نصف اله او مخلوق متفوق (انه رب بحق من رب حقيقي) واعلن المجلس (ان

١١٧) للاستزاده راجع نفس المصدر السابق ص ص ٥١ — ٦٣

118) Ware, op. cit., 23-29.

المسيح ازلي وليس بمخلوق وهو من نفس جوهر الاب) ١١٩ .

ونظر المؤتمر الاول في شؤون الكنيسة التنظيمية فاعترف بثلاثة مراكز كبرى (بطرقيات) على انها في المرتبة الاولى هي روما والاسكندرية وانطاكيا وقرر ايضا بان كنيسة القدس لها المقام الرابع بعد الكنائس المتقدمة ولو انها تابعة اداريا لبطرقية هرقليا . وذلك لانها محل صلب المسيح ورفعه الى السماء . ولم يتعرض المؤتمر الى القسطنطينية للسبب الواضح انها لم يتم انشاؤها بعد ، وان بيزنطية كانت تابعة الى بطرقية هرقليا (١٢٠) .

ان المؤتمر العالمي الديني الثاني المنعقد في القسطنطينية ٣٨١ عمل على توسيع قرارات المؤتمر السابق وتأكيدها . وعالج بصورة خاصة روح القدس Holy Spirit واكد على انها اله كالاب والابن (١٢١) . وهي تنطلق من الاب . لهذا فيجب ان تعبد وتقدس على قدم المساواة مع الاب والابن . ثم عدل بعض القرارات الاولى المتعلقة بمركز البطرقيات . حيث ان القسطنطينية اصبحت عاصمة الامبراطورية لذا تقرر وضعها قبل كنيسة الاسكندرية مرتبة اي في الدرجة الثانية بعد كنيسة روما . واشار المؤتمر « الى ان اسقف القسطنطينية يجب ان يكون له شرف المرتبة الثانية بعد اسقف روما لان القسطنطينية اصبحت الان روما الثانية » (١٢٢) .

شرع رجال اللاهوت في توضيح قرارات المؤتمرين وفلسفتها ، ومن اهم هؤلاء بطريق الاسكندرية اثاناسيوس Gregory Athanasius الذي فسر المفهوم القائل بان المسيح من جوهر الله ويشاركه الازلية . وكذلك اباء كيادوكيا امثال كريكوري مازيانزوس Gregory of Ma zianzus ٣٢٩ ٣٩٥ وبازل الكبير Basil the Great ٣٣٠ — ٣٧٩ وكريكوري النياسي Gregory of Nyssa المتوفي عام ٣٩٤ . فبينما اكد اثاناسيوس وحدانية الله ، وان الاب والابن من طبيعة واحدة فأن الاباء الكبادوكيون اكدوا ثلاثية الله ، الاب والابن وروح القدس ، واحتفظوا بتوازن دقيق بين ثلاثية الله ووحدانيته (١٢٣) .

والنقطة التي اثارت جدلا عنيفا فيما بعد هي المادة الرابعة من قرارات المؤتمر السابق والتي كرهتها كل من الاسكندرية وروما ، الا وهي مرتبة

---

119) Ibid., 30.
120) Ibid., 31.
121) Bullough, op. cit., 53.
122) Ware, op. cit., 31.
123) Ibid., 32.

كنيسة القسطنطينية الثانية بعد روما . اذ رفضت البابوية تصديقها خوفا من ادعاء روما الجديدة باحتلال المرتبة الاولى . ان المادة الرابعة كانت تحديا لكنيسة الاسكندرية التي احتلت المكانة الاولى في الشرق منذ القديم . وشهدت السبعون سنة التالية نزاعا حادا بين الاسكندرية والقسطنطينية. وقد انتصرت الاسكندرية على القسطنطينية الى حين . ومن اوائل الانتصارات التي سجلتها الاسكندرية عندما تمكن بطريقها ثيوفيلوس Theophilus من تفنيد اراء رئيس اساقفة القسطنطينية جون خرايسوستوم John Chrysostom ٣٤٤ ــ ٣٠٧ واضطراره الى تخليه عن منصب الرئاسة الدينية في العاصمة وذلك في مؤتمر اوك الديني Synod of oak

والنصر الثاني الذي سجلته الاسكندرية في عهد بطريكها كيرل المتوفي عام ٤٤٤ حينما فند اراء نسطور في المؤتمر العالمي الديني الثالث المنعقد في افيسوس سنة ٤٣١ (١٢٤) .

وبالاضافة الى التنافس بين الاسكندرية والقسطنطينية فهناك مشكلة عقيدية متعلقة بعناصر الثالثوت عالجها المؤتمر الديني العالمي الثالث .

ولنكن على علم بان كلا من كيرل ونسطور كانا على اتفاق في ان المسيح هو اله ، غير انهما اختلافا حول وصف طبيعته الانسانية وفي التعابير التي استعملها كل منهما في توضيح اتحاد الطبيعتين في شخص واحد . فقد تمسك نسطور بتأكيد الطبيعة البشرية على حساب الطبيعة الالهية بينما تمسك كيرل بوحدة المسيح ولم يؤكد كثيرا على طبيعته البشرية . وتطرف كل منهما فيما بعد بارائه . فلم يعد نسطور معتقدا بان العذراء ام المسيح الالهي بل انها ام المسيح البشري (١٢٥) وذهب كيرل الى العكس من ذلك اذ اشار الى ان ام المسيح حملت كلمة تحولت الى لحم ، اي انها حملت في ذات الوقت انسانا والها ، وعليه فهي ام لشخصية واحدة .

لقد تطرفت مدرسة الاسكندرية في تفاسيرها بعد وفاة كيرل وقاد الاراء المتطرفة دياوسكورس وبوتيخس اللذان اكدا العنصر الالهي في المسيح ، وان الطبيعة الالهية قد ابتلعت الجانب البشري في المسيح ، ونشأ عن ذلك

124) Ibid., 32.
125) 125) Bullough, op. cit., 55.

بما يسمى بمذهب الطبيعة الواحدة كما اشرنا لذلك سابقا . وقد دحضت تلك الاراء في المؤتمر الديني العالمي الرابع المنعقد في خلقدونيا سنة ٤٥١ . اذ اتفقت فيه كل من كنيستي روما والقسطنطينية (١٢٦) ضد الاسكندرية وتوصلا الى قرار مؤداه ان في المسيح طبيعتين متميزتين وغير منفصلتين .

ولهذه فان مؤتمر خلقدونيا لم يكن ليمثل انهزاما للعقيدة المونوفستية فحسب ، بل دحضا لادعاء الاسكندرية في الزعامة الاولى لكنائس الشرق . واكدت القسطنطينية في ذلك المؤتمر منزلتها الثانية بعد روما ايضا . وحرر مؤتمر خلقدونيا كنيسة القدس من اشراف بطرقية هرقليا واصبحت تحتل المرتبة الخامسة بين البطرقيات الكبرى الا وهي روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكيا والقدس . وقسمت هذه البطرقيات فيما بينها الاشراف على العالم المسيحي كافة ما عدا جزيرة قبرص حيث قد منحت استقلالاخاصا في مؤتمر افيسوس (١٢٧)

وهنا يجب الالتفات الى نقطتين اساسيتين . الاولى : ان الترتيب المتدرج في مقام البطرقيات لا يعني التفوق الديني لبعض البطرقيات على بعضها وانما هو مجرد ترتيب اداري . لان كافة الاساقفة في الاصل سواسية من ناحية روحية وانهم متساوون ايضا بالاسهام في التوارث الحواري وفي الصلاحيات الدينية . هذا ولا يكتفى عادة بقرارات البطارقة الخمسة حول ابداء الراي النهائي في اية مشكلة دينية كبرى بل ان الحق هو موكول لكافة الاساقفة في ابداء الرأي وحضور المؤتمرات الدينية والمناقشة وان المؤتمر الديني باغلبيته صاحب الكلمة العليا . والثانية : هي اقدمية كنيسة روما . فمع ان اتباع كنيسة القسطنطينية اعترفوا بان لاسقف روما ميزة خاصة من بين زملائه الخمسة ، غير انهم لا يعترفون بتفوقه على الجميع . وان ما يفهمونه من الميزة الخاصة هي الاقدمية . واصرت كنيسة القسطنطينية على ان بابوات روما على خطأ حينما يفهمون القدم

---

١٢٦) يشير المؤرخ *Bullough* في تلك المناسبة الى ان كنيسة القسطنطينية انبعث المعتقد الصحيح فلم تكن مونوفستيه ولا نسطورية ومنذ ذلك الحين اخذت تسمى نفسها بكنيسة القسطنطينية الارثوذكسية ص ٥٦

127) Ware, op. cit. 33.

بانـــه التفوق او الزعامة على سائر الكنائس (١٢٨) .

ان القدم الذي يتمتع به بابوات روما استند في الاصل علـــى ثـــلاثـــة اسس ، الاول : ان كلا من الحواريين بطرس وبولص قد تزعما اسقفية روما وقد اعترف الارثودكس بان بطرس هو اول الحوراييين الا انهم فهموا نظرية توارثه الحواري بشكل غير الذي فهمه رجال الكنيسة في روما . اذ اصرت الارثوذكسية على ان كافة الاساقفة هم ورثاء بطرس من ناحية روحية . ثانيا : ان روما هي العاصمة الاولى للامبراطورية وانها اعظـــم مدنهـــا . وثالثـــا لم تتعرض كنيسة روما للهرطقات الدينيـــة كمـــا تعرضت لها كنائس الشرق ولهذا اصبح بابوات روما في كثير من المناسبات يحكمون في الامور الجدلية العقيدية التي تحدث بين الكنائس الشرقية (١٢٩)

ومهما يكن ، فان قرارات مؤتمري افيسوس وخلقدونيا تمثلان الحجـــر الاساسي في العقيدة سواء كان ذلك بالنسبة لروما او القسطنطينية غير ان تلك القرارات ادت الى تكدير الجو بين الطوائف الاخرى

ان الطائفتين الرئيسيتين اللتين استمرتا تقودان المعارضة هما النسطورية والمونوفستية . اذ رفضت الطائفة الاولى قرارات مؤتمر افيسوس ورفضت الثانية قرارات مؤتمر خلقدونيا (١٣٠) هذا ولم تعد النسطورية لتشغل بال الكنيسة الارثودكسية منذ سنة ٣٨١ حيث انتقلت مراكزهم خارج الامبراطورية في بلاد فارس والهند . وقد بذلت القسطنطينية عبثا مجهودات جهيـــدة لارجاع المونوفستيين الى المعتقد الارثودكسي .

ومما زاد الاختلاف اتساعا الاختلافات الثقافية والاقليمية اذ رفضتكل من مصر وسوريا الزعامة اليونانية في كافة المجالات وهـــذا مما حـــدى بكنيسة الاسكندرية على اثر قرارات مؤتمر خلقدونيا سنة ٤٥١ الى الغاء اللغة اليونانية من المراسيم الدينية واستبدالها باللغة القبطية (١٣١) . « واسفرت قرارات ذلك المؤتمر عن حوادث دموية كما اشرنا في سورية» (١٣٢) . وهكذا تحول الاختلاف الديني الى عداء قومي في تلك الاماكـــن واخذت تكلم الاقطار منذ ذلك التاريخ تفضل اي حكم على التسلطالروماني

128) (129) Ibid., 34-35.
130) Bullough, op. cit., 56.
131) Ware, op. cit., 36.
132) Gibbon, op. cit., Vol. V, 32.

المتعسف . وكان ذلك تمهيدا لخروج تلك البلدان عن الدولة الرومانيـــة الشرقية فيما بعد .

~~مشاكل القبائل البربرية~~ البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب

لقد عانت الامبراطورية الرومانية الامرين من هجمات القبائل البربرية التي اشتدت ضراوة وقسوة منذ الثلث الاخير في القرن الرابع وعملت على تقويض نظام الحكم الروماني في ايطاليا وسائر المناطق الغربية . ولم تسلم الادارة الشرقية من تدميرهم الشامل الا بعد تضحيات كبرى واساليب سياسية متنوعة استهدفت دفعهم الى اية جهة كانت حتى الى قسمهـــا الغربي . ومن اوائل القبائل الجرمانية التي سجلت تاريخا حافلا في علاقاتها مع الامبراطورية الرومانية في الفترة التي نحن في صددها هي قبائل القوط العوط Goths بقسميها الغربي Visigoths والشرقي Ostrogoths (١٣٣). وكانت منازل تلك الجموع في ذلك الحين بما يسمى الان بولنـــدا واوكـــرانيا وسواحـــل البحـــر الاسود الشمالية الغربيـــة . او بمعنى اخر بين نهـــري الدانوب والدون . وكـــان نهـــر الدنيستر يفصل بين هذه الجموع (١٣٤) . اذ سميت القبائل القاطنة الى شـــرق ذلـــك النهر بالقوط الشرقيين بينما أطلق على اولئك الساكنين في جهاته الغربية القوط الغربيون . واعتنقت هذه القبائل الديانة المسيحية حسب المذهب الاريوسي . حيث انتشر بينهم المبشرون الاريوس منذ أوائل القرن الرابع . ومن اشهر هؤلاء المبشرين يولفيلاس *Ulfilas* (١٣٥) ~~وهذا قوطي الاصل درس اللاهوت المسيحي في القسطنطينية حينما كان رهينة لـدى الحكومة هناك . ثم عين اسقفا لبني قومه سنة ٣٤١ . وترجم يولفيـــلاس معظم اجزاء الكتاب المقدس الى اللغة القوطية . غير انه سقط من الترجمة كتابي صموئيل Samuel والملوك Kings لاحتوائهما على اخبار قتال كثيرة، وان الامة حسب رأيه شغوفة سلفا بالحروب وان العيش قبل السيف ، واوجـــد لهم كتابة خطية من الاشارات القوطية القديمة والحروف اللاتينية اصبحت فيما بعد اساسا لدراسة اللغات الجرمانية القديمة (١٣٦)~~ . هذا وقد خلقت لهم الاريوسية مشاكل جمة فيما بعد .

---

133) Lot, op. cit., 191.
134) Vasiliev, op. cit., 84.
135) Fisher, op. cit., 108.
136) Strayer and Munro, op. cit., 30.

القوط الغربيون :

بدأت قبائل القوط الغربية تتململ وتستغيث بالامبراطورية في القســم الشرقي لتسمح لها عبور الدانوب والاحتماء في داخل الحدود وذلك في عهد الامبراطور فالنز Valens ٣٦٤ ــ ٣٧٨ على اثر الضغط المتزايد عليهم من قبل هجرات اسيوية للجموع الهونية . حيث مزقت تلك الجمـــوع الاسيوية شمل قبائل الالان Alans الجرمانية وكذلك قبائل السيوفي Seuvi القاطنة في الجهات الشرقية من منازل القوط الشرقيين . كما تمكنت جموع الهون من استعباد قسم كبير من قبائل القوط الشرقيـــين وتشتيت القسم الاخر ./لذا الح زعماء قبائل القوط الغربية على الامبراطور في مساعدتهم والاحتماء داخل حدود الامبراطورية (١٣٧) . واستجـــاب الامبراطور فالنز لاستغاثات القوط لاعتبارات متعددة سنة ٣٧٦م منهـــا للاستفادة منهم في الدفاع عن الامبراطورية ضد خطر الهون (١٣٨) . وربما دعما لسياسته الاريوسية في المجالات الدينية ولتشغيلهم في الانتاج الزراعي . وسرعان ما خاب ظن الامبراطور بهؤلاء واصبحوا وبالا على الامبراطورية في قسميها الشرقي والغربي . اذ لم يكن باستطاعة هـــذه الجموع القبلية ترك ما تعودت عليه من حياة تعتمد على التنقل والسلب بتلك السهولة ، بالاضافة الى ان تصرفات الحامية الرومانية في جهات ~~ادريانوبل~~ ادرنة لم تعالج اسكان هؤلاء بالشكل الذي اراده الامبراطور . حيث لم تقـــم السلطات المسؤولة في تلك الجهات بتوزيع المؤون وتخصيص الاراضـــي اللازمة للقوط الغربيين ناهيك عن استفزازات الجنـــد الروماني لهم ، كمصادرتهم لقسم من الحيوانات التي يعتمدون عليها في معيشتهم التـــي لم تكن لتتعد مرحلة الصيد والرعي (١٣٩) . وعليه تمرد هؤلاء واصطدموا بالجيش الروماني الذي كان تحت قيادة فالنز في معركة ~~ادريانوبل~~ ادرنة سنة ٣٧٨ التي اسفرت عن اندحار الجيش الروماني ومقتل الامبراطور .

احدث انتصار تلك القبائل البربرية دويا هائلا في ارجاء الامبراطوريـــة وخارجها ، وفتت في معنويات الحكومة الرومانية وخاب ظنها في امـــل الاستفادة منهم . وادت الى رفع معنويات القبائل القوطية وجراتهم علـــى العبث في جهات البلقان وتجرات قبائل جرمانية اخرى على ايجاد طريقهـــا

137) Painter, op. cit., 24.
138) Ibid., 25.
139) Strayer and Munro, op. cit., 31.

بالقوة الى جهات الامبراطورية . ومع ذلك فلم يكن في نية هذه القبائل اسقاط الحكومة الرومانية او الاستيلاء على الامبراطورية . لذا لم يجد الامبراطور ثيودوسيوس الاول صعوبة في الاتفاق معهم سلميا سنة ٣٨٢ اذ وافق ذلك الامبراطور على استطيان قسم منهم في الاقسام الشمالية من تراقيا واسكان القسم الاخر في جهات اسيا الصغرى ، ومنحهم اشبه بما يسمى حديثا بالاستقلال الذاتي ، مقابل تعهدهم بالخدمة العسكرية ان دعت اليها الحاجة (١٤١) . لقد نجح ثيودوسيوس الاول في سياسته تجاه القوط الغربيين لما اتبعه من اساليب تبدو سلمية في الظاهر وتحمل في باطنها مبدأ فرق تسد ، ذلك المبدأ الذي سار بموجبه اباطرة الروم حتى نهاية حكمهم . وتمكن ثيودوسيوس من توجيه بعضهم ضد البعض الاخر الذي تمرد في جهات اليونان (١٤٢) .

عادت مشكلة القبائل القوطية الغربية تمثل خطرا داهما على القسمين الشرقي والغربي على اثر وفاة ثيودوسيوس الاول سنة ٣٩٥ الذي قسم الامبراطورية بين ولديه . فحكم القسم الشرقي اركاديوس ٣٩٥ — ٤٠٨ وحكم القسم الاخر انوريوس ٣٩٥ — ٤٢٣ وكان كل منهما تحت التأثيرات الجرمانية . اذ تسلط في البداية الجنرال ستليكو Stilicho على انوريوس . وتسلط الجنرال القوطي روفينوس لردح من الزمن على حكم اركاديوس وقد تمكن روفينوس من تفادي خطر القوط الغربيين الذين ثاروا منذ سنة ٣٩٥ وهددوا بالزحف على القسطنطينية وذلك بمنحهم اقليم اليريا في عهد حكم زعيمهم الاريك بالتا Alaric Balta سنة ٣٩٨ وتشجيعهم على توجيه فعالياتهم الى القسم الغربي (١٤٣) .

لقد تخلصت بذلك الامبراطورية في الجزء الشرقي من خطر الغزو المهدد لها من قبل القبائل القوطية الغربية وانصرفت لمكافحة تأثيراتهم في الدوائر السياسية العليا في القسطنطينية . وكانت العاصمة تتجاذبها سياسيا ثلاثة احزاب هي الحزب القوطي الذي تولاه اولا روفينوس ومن ثم كيناس Gainas وحزب رئيس الوزراء يوتروبيوس Eutropius الذي تألفت

---

140) Ostrogorsky, op. cit., 48.
141) Vasiliev, op. cit., 87.
142) Ibid., 91.

اكثريته من طلاب الوظائف المتصيدين . والثالث هو الحزب الروماني الخالص .. وهذا اشبه بحزب قومي تألف من كبار الاداريين ورجال الدين تحت قيادة اورلن Aurlen الذي هدف الى تطهير الجيش من القوط واعادة تشكيله على اسس رومانية ، وتشغيل القوط في الانتاج الزراعي ، وان تعذر ذلك فيجب اخراجهم من الامبراطورية بالقوة .

وافت الفرص الحزب الروماني من الانتصار على اثر ثورة قام بها الزعيم القوطي تريبيكلد Tribigild في اسيا الصغرى ، حيث وجه الامبراطور اركاديوس الجنرال القوطي كيناس لاخمادها . غير ان الاخير تواطأ مع الثائر واتفقا على اقتسام الحكم في اسيا الصغرى . وارسل القائدان مذكرة مشتركة الى الامبراطور يطلبان فيها تنحية يوثروبيوس عن الحكم وتسليمه لهما . هذا ولم يكن بمقدور الامبراطور انذاك مقاومة الثائرين ولم يكن كذلك من الهين عليه تسليم كبير الوزراء الى الاعداء . لذا ارتأى حلا وسطا الا وهو نفي يوثروبيوس سنة ٣٩٩ . ولم يرض الحل الثائرين فطلبا من الامبراطور ثانية محاكمته واعدامه فاستجاب اركاديوس لذلك الطلب . لقد ولدت المطاليب القوطية تلك ومطالبتهم بالكنيسة الكبرى في القسطنطينية لتكون مركزا للاريوسية ثورة في العاصمة هلك فيها معظم القوط هناك .

وفي الوقت ذاته تمكن اركاديوس من الاستفادة من المنافسة بين كيناس وزعيم قوطي اخر موال للامبراطورية الا وهو فرافيتو Fravitto وقدر للاخير ان ينتصر عسكريا على كيناس الذي فر الى جهات اليونان حيث قبائل الهون الموالية للامبراطورية وقد لقي حتفه على يدهم . وهكذا فلم تعد المشكلة القوطية تشكل خطرا على القسم الشرقي . غير ان سياسة الامبراطورية في دفع الغزاة الى القسم الغربي . ادت في الاخير الى فقدان السيطرة الرومانية على تلك الاجزاء (١٤٣) .

اخذت قبائل القوط الغربية في بداية القرن الخامس تحت زعامة الاريك تطالب بمطاليب متزايدة من قسم الامبراطورية الغربي في عهد انوريوس والذي كان تحت تأثير الجنرال ستليكو الجرماني . وكان هذا عسكريا ممتازا وسياسيا بارعا ، عارفا بالاساليب الناجعة في معالجة امر

143) Ibid., 92-4.

القبائل الجرمانية وخاصة قبائل القوط الغربية . واحرز ستليكو انتصارا عسكريا سنة ٤٠٢ على قبائل الارك عندما حاولت غزو ايطاليا . لذا وافقوا على عقد هدنة تعهد فيها ستليكو اعطائهم اموالا عينية سنويا مقابل اخلادهم للسكينة . وهكذا بقيت علاقتهم مع القسم الغربي هادئة طالما بقي ستليكو في الحكم (١٤٤) . غير ان ستليكو وقع فريسة لغدر الامبراطور انوريوس سنة ٤٠٨ لاتهامه بممحاباة الاعداء . لهذا رأى الاريك الفرصة سانحة للتقدم بمطاليب جديدة للامبراطور في القسم الغربي كتعيينه حاكما على اقسام الادرياتيك الشمالية والتعهد بدفع اتاوات سنوية عينية ونقدية . وعندما رفض الامبراطور ذلك الطلب زحف الاريك على ايطاليا واحتل روما سنة ٤١٠ (١٤٥)

احدث سقوط روما اصداء مدوية في الامبراطورية وشجع الوثنيين على الانتقاص من المسيحية لاعتبارهم الكارثة من مظاهر نقمة الالهة القديمة لترك الدولة عبادتها وعلى كل فقد انسحب القوط الغربيون من ايطاليا على اثر وفاة الاريك واتفاق الملك اوتولف **Autulf** مع الامبراطور انوريوس على تخصيص مناطق الغال الجنوبية لهم وزواجه من كالا بلا سيديا **Galla Palacidia** اخت الامبراطور (١٤٦) . ومن جنوب الغال توسعت تلك القبائل على حساب اسبانيا التي دانت لهم في فترة ٤١٤ ــ ٤٥٦ بصورة كاملة .

الوندال :

تعرض القسم الغربي من الامبراطورية في النصف الاول من القرن الخامس لرجا تاعنف مما تعرض اليه انفا كانت سببا في اضعاف السلطة الرومانية هناك وتبديدها . جاءت الكارثة من قبائل الوندال والهون . والوندال من القبائل الجرمانية التي كانت تقطن جهات ازوف ، إندفعت نحو اوروبا الوسطى تحت ضغط الهون ، وشقت طريقها مع قبائل الالان والسيوفي عبر الغال في بداية القرن الخامس ، ومنها الى اسبانيا حيث طبعوا اسمهم على شبه الجزيرة (١٤٧) . غير انهم اضطروا على مغادرتها الى الشمال الافريقي سنة ٤٢٩ تحت ضغط قبائل القوط الغربية . ونجح زعيمهم جيسرك Gaisaric في الاستيلاء على قرطاجة وعلى كافة الاجزاء

---

144) Pirenne, op. cit., 28.
145) Strayer and Munro, 32.
146) Deanesly, A History of Early Medieval Europe 476-911 (London, 1960) p. 28.
147) Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960) 36-37.

من الشمال الافريقي

~~الليبية~~ . وبدأت غاراتهم البحرية من السواحل الافريقية على جزر ايطاليا ومنها الى شبه الجزيرة الايطالية ذاتها وتمكنوا سنة ٤٥٥ من الاغارة على روما ولم ينسحبوا منها الا بعد اتاوات غزيرة قدمها البابا ليو الاول ٤٤٠ — ٨٦١ (١٤٨) .

الشمال الافريقي

اتصف حكم الوندال في ~~ليبيا~~ بالدمار والخراب اذ اجلوا قسما كبيرا من السكان عن اراضيهم واتبعوا سياسة الابادة والتهمة الخطيرة التي يوجهها الوندال للسكان اخفاء الاموال عن الجباة وامر جيسرك بتهديم كافة الاسوار عدا سور قرطاجة لكي يحول دون تمرد ~~الليبيين~~ الافارقة . ودام حكم جيسرك تسعا وثلاثين سنة منذ احتلاله قرطاجة حتى وفاته سنة ٤٧٧ . واحرز انتصارات على الجيوش الرومانية التي وجهها ضده من الشرق الامبراطور ليو سنة ٤٦٧ . واضطر الامبراطور زينو الى اتباع سياسة سلمية تجاه جيسرك وبقيت العلاقات هادئة بين الوندال والامبراطورية الرومانية في الشرق حتى اعتلاء جستنيان الاول عرش الامبراطورية (١٤٩) .

لقد اتبع ملوك الوندال سياسة البطش بالمناوئين للاريوسية (١٥٠) . وخاصة في عهدي الملكين انورك Honoric ٤٧٧ — ٤٨٤ وجونداموند Gundamund ٤٨٤ — ٤٩٦ . وقد (اجبر ~~الليبيين~~ الافارقة على اعتناق الاريوسية وتطبيق عقوبة الاعدام على المعارضين) . وهناك (عدد كبير من المتنعين من قطعت السنتهم) غير ان الملكين تراساموند ٤٩٦ — ٥٢٣ وهلدرك Hilderic ٥٢٣ — ٥٣١ اتبعا سياسة الاعتدال . ان اختلاف العائلة المالكة الوندالية حول اتباع سياستي الشدة او اللين مع غير الاريوسيين كان من الاسباب الهامة التي مكنت جستنيان من القضاء على الدولة الوندالية .

الهون Huns

لقد نفذت جموع الهون الاسيوية الى حدود الامبراطورية من جهات الدانوب سنة ٤٢٥ ، وراحوا يعيثون في مناطق البلقان ودفع الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ — ٤٥٠ الاتاوات لهم تجنبا لاخطارهم وابعادهم عن القسطنطينية (١٥١) وسمح لهم بالتوجه غربا . وشملت غارات الهون بقيادة اتيلا Attila كافة الاقسام الوسطى من اوربا واغاروا على

---

148) Deanesly, op. cit., 76.
149) Ure, Justinian and his Ages (Middlesex, 1951) 21.
150) Oman The Dark Ages (London, 1908) pp. 7-9.
151) Vasiliev, op. cit. 98.

بلاد الغال . غير ان الحكومة الرومانية في القسم الشرقي انزلت بجيوشه هزيمة كبري سنة ٤٥١ في موقعة شالون Chalon في الاراضي الفرنسية وذلك لبراعة القائد اتيوس ولمساعدة قبائل القوط الغربية (١٥٢). وظهر خطر اتيلا على ايطاليا سنة ٤٥٢ فهاجم عدة مدن في الاقسام الشمالية ثم زحف على روما وفرض عليها الحصار . غير انه قرر الانسحاب لاقتراب جيوش اتيوس منه ولانتشار الاوبئة في جيشه . وتعزو المصادر الدينية المسيحية انسحابه الى معجزة حققتها البابا ليو الاول(١٥٣). ولم تنته الاعمال التدميرية لهذه الجموع الا بعد وفاة اتيلا سنة ٤٥٣ وثورة القبائل الخاضعة لحكمهم في اوروبا سنة ٤٥٥ والتي ادت الى تدمير قوى الهون (١٥٤) .

القوط الشرقيون

سمح الامبراطور ثيودوسيوس الاول لقسم من جموع القوط الشرقيين السكن في داخل الامبراطورية في جهات هنغاريا ومع ذلك فان غالبيتهمكانت خاضعة لامبراطورية الهون وقاتلت في صفوفهم . وقد تحرر هؤلاء من السيطرة الهونية سنة ٤٥٥ كما ذكرنا اعلاه واتسمت علاقاتهم مع الامبراطورية في القسم الشرقي بطابع السلبية لما يقومون به من غزواتفي جهات البلقان ، فكانوا في حرب سجال مع الجيوش الرومانية الشرقية . وقد أضطر زعيم القوط الشرقيين ثيوديمر Theodomer على ارسال ابنه ثيودوريك Theodoric الى القسطنطينية كرهينة لدى الامبراطور ليو الاول ٤٥٧ — ٤٧٤ للتدليل على حسن نواياه تجاه الامبراطورية . وكان عمر ثيودوريك انذاك تسع سنوات . وهناك تأثر بالحضارة الرومانية بالرغم من انه لميتعلم القراءة والكتابة طيلة حياته (١٥٥) . ثم اعاده ليو الىوالده عند بلوغه الثامنة عشر من عمره . غير ان ثيودوريك اشترك مع قومه في الاغارة على المدن اليونانية . وقد حاول الامبراطور زينو كسب ثيودوريك الى جانبه على اثر وفاة والده وانقسام القوط بين زعامتي ثيودوريك وسترابو Strabo فأيد زعامة الاول ثم وجه اليه دعوة لزيارة

152) Cambridge Medieval History, vol. 1, 280.
153) Strayer and Munro, op. cit., 36.
154) Lot, op. cit., 288.
155) Deanesly, op. cit., 35.

القسطنطينية سنة ٤٧٨ حيث استقبله استقبالا رسميا ومنحه لقب القنصل (١٥٦) . وتقدم ثيودوريك باقتراح الى الامبراطور زينو محواه ان ينزح بجموعه عن البلقان لمقاتلة ادوكر في ايطاليا واعادة ذلك القسم الى الامبراطورية على ان يحكم فيها نيابة عن الامبراطور . وقال للامبراطور (ان فشلت في ذلك فتكون قد تخلصت من صديق عزيز مشاكس ، وان كتب لي النجاح بعون الله فسوف احكم باسمك ومن اجل مجدك) (١٥٧). ورحب الامبراطور بذلك الاقتراح ليبعد عنه خطر القوط وليضرب البرابرة بعضهم بالبعض الاخر . وزود الامبراطور ثيودوريك برسائل الى مجلس الشيوخ الروماني في ايطاليا بصفته نائبا عنه . وغادر ثيودوريك بجموعه اليريا الى ايطاليا سنة ٤٨٨ وسجل نصرا باهرا على جيوش ادوكر في موقعة ادا Adda سنة ٤٩٠ ووافق مجلس الشيوخ الايطالي على حكمه ايطاليا.

غير ان الحروب مع ادوكر استمرت حتى سنة ٤٩٣ حيث تحصن في عاصمته رافينا ولم يتمكن القوط من فتحها نظرا لانهم لم يحاصروا ساحلها لعدم وفرة الاساطيل لديهم . لذا عمد ثيودوريك الى الخديعة . اذ تظاهر بمسالمة ادوكر وان يقتسما حكم ايطاليا . واقام لادوكر بهذه المناسبة وليمة كبرى وفي اثنائها اغتال ثيودوريك ضيفه وبذلك دانت له ايطاليا باكملها (١٥٨) .

لم يكن في هذا المجال بحث سياسة ثيودوريك في ايطاليا . ويكفي القول بانه كان عادلا في حكمه فلم يفرق بين الرومان وقومه ولم ياخذ من الاراضي الايطالية سوى ثلثها التي كانت تحت تصرف ادوكر (١٥٩) . حيث جعل للرومان محاكمهم الخاصة وانشأ اخرى مختلطة لحسم الدعاوى المشتركة بين الرومان والقوط كما تسامح مع الكنيسة الكاثوليكية بالرغم من كونه اريوسيا (١٦٠) . فقرب اليه ادباء الرومان امثال كاسيودوروس Cassiodorus مؤلف كتاب تاريخ القوط . وكذلك بوثيوس Boethius الذي اشتهر بتراجمه عن فلسفة اليونان والف كتا بعزاء الفلسفة Consolation of Ph ilosophy وتقلد الاثنان مناصب رفيعة في دولته (١٦١) . ولم يحاول الخروج على

---

156) Ibid., 35-36.
157) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, (London, 1934) p. 42.
158) Gibbon, op. cit., Vol. IV, p. 122.
159) Ibid., 123.
160) Strayer and Munro, op. cit., p. 40.
161) Gibbon, op. cit., pp. 142-44.

الامبراطور الروماني في الشرق اذ بقي يحكم باسمه فعلا ودامت هذه السياسة المعتدلة التي اتبعها ثيودوريك الى سنة ٥١٨ م ٥٢٨ م . اما اسباب تحوله عن تلك السياسة التسامحية فتكمن في مجالات خارجية وداخلية . فبالنسبة للنقطة الاولى كان الامبراطور انستاسيوس Anastasius ٤٩١ — ٥١٨ اريوسيا وعلى وفاق مع ثيودوريك غير ان خلفه الامبراطور جستين Justin الامي اتصف بالتعصب الى الكثلكة والقسوة على كافة الفرق الاخرى وقد امر بمصادرة الكنائس الاريوسية وتسليمها الى الكاثوليك (١٦٢) . لهذا استفزت تلك التصرفات ثيودوريك خاصة ان جستين شرع بالتآمر مع اعضاء مجلس الشيوخ الايطالي باسم الدين ضد ثيودوريك . اما الداخلية فان الفروق بين الاريوسية والكاثوليكية من العوامل الهامة في عدم امتزاج الايطاليين مع القوط هذا بالاضافة الى ان كنيسة روما اعتبرتهم هراطقة . ناهيك عن اعمال العنف التي قام بها اتباع كنيسة روما ضد اليهود في رافينا وميلان ونهبهم الممتلكات اليهودية ادت بثيودوريك الى اتخاذ اجراءات متشددة ضد الثوار — محتما عليهم تعويض اليهود عما خسروه بضرائب فرضت على الثائرين (١٦٣) .

حاول ثيودوريك ان يسوي امر الخلاف الديني مع الامبراطور جستين سلميا . فارسل اليه البابا جون الاول على رأس وفد الى القسطنطينية . غير ان ثيودوريك ارتاب في نوايا الوفد عند رجوعه . لذا امر بسجن الوفد المفاوض بما فيهم البابا الذي توفي سجينا سنة ٥٢٦ (١٦٤) . كما امر بايداع كل من كاسيودوروس وبوثيوس السجن واعدام الاخير لاتهامه بالخيانة العظمى (١٦٥) وهكذا بلغت العلاقات بين ثيودوريك وجستين حد الانفجار قبل وفاة الاول في ٢٦ اغسطس سنة ٥٢٦

الوضع العام في قسم الامبراطورية الشرقي

يتضح مما سبق ان القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية وقع فريسة لجموع الجرمان التي قوضت واقعيا السلطة الرومانية في تلك الجهات خلال القرن الخامس واوائل القرن السادس . اذ استحوذ الانجليز والسكسون

---

162) Deanesly, op. cit., p. 43.
163) Ibid., p. 42.
164) Ibid., p. 44.
165) Ibid., p. 43.

انكلترا

والجوت على انكلترا الذين بدأوا غاراتهم على ذلك القطر منذ انسحاب الحامية الرومانية في العقد الاول من القرن الخامس كما وقعت بلاد الغال تحت سيطرة ~~الفرانك~~ العرنجة في عهد ملكهم كلوفيس ٤٨١ ـ ٥١١ . واستقر القوط الغربيون في اسبانيا والسيوفي في الجهات الشمالية الغربية في ~~ابريا~~ ايبيريا . بالاضافة الى وقوع ايطاليا تحت حكم القوط الشرقيين .

وبالرغم من الاحداث الخطيرة المدمرة التي اجتاحت الامبراطورية فان القسم الشرقي بقي محتفظا بقوته وكان اسعد حالا من القسم الغربي بصورة عامة . وذلك لما ابداه الاباطرة في القسم الشرقي من مهارة عسكرية وسياسة دبلوماسية ابعدت عنهم خطر الفرس والغزاة البرابرة ، كذلك لما اتبعوه من سياسة اصلاحية في الداخل . ففي عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني كانت علاقاته ~~على العموم~~ مع الفرس ايجابية وان بعض الروايات تعزوا ذلك الى ان الامبراطور المذكور كان في رعاية امبراطور فارس يزدجرد الاول اثناء طفولته بناء على وصية والده ١٦٦ . ومهما يكن من امر فان المخاطر الفارسية المهددة للروم تختلف في طبيعتها عما يتهددهم من القبائل البربرية على اعتبار ان الفرس لا يقلون مدنية عن الروم اذ قال المؤرخ الروماني ثيوفيلاكت Theophylact (لقد شاءت العناية الربانية ان تسلط على هذا العالم رقابتين : الاولى الرومانية الجبارة والثانية رقابة الفرس الحكيمة) ١٦٧ ان الاصلاحات التي نهض باعبائها ثيودوسيوس الثاني كان من شأنهما تقوية الامبراطورية في القسم الشرقي معنويا وماديا . اذ امر بتأسيس جامعة القسطنطينية سنة ٤٢٥ واجرى على اساتذتها رواتب سنية كما امر بجمع القوانين الصادرة منذ عهد قسطنطين الكبير الى وقته . ان مجموعة القوانين المسماة بشريعة ثيودوسيوس قد صدرت سنة ٤٣٨ بعد جهود استمرت ثمان سنوات في اللغة اللاتينية كونت فيما بعد مستندا الى شريعة جستنيان واثرت في المجتمعات البربرية التي اهتد تبها في القضايا

---

166) Labourt J., Le Christianism dans l'empire Perse sous la dynastie sassanids (Paris, 1904) p. 93.
167) Quoted in Hussey, op. cit., 16.

الداخلية قبل عصر جستنيان ١٦٨ وعمل ثيودوسيوس على توسيع اسوار القسطنطينية سنة ٤١٣ لتشمل كافة الاحياء التي نشأت خارج الاسوار الاولى نتيجة لتضخم السكان في العاصمة ولزيادة مناعتها . ان المثل القاسي الذي الم بروما على ايدي القوط الغربيين من العوامل الهامة في تحفيز الامبراطور على اعادة بناء اسوار للعاصمة اتقاء لما يضمره المستقبل ١٦٩ . وقـــام الامبراطور اناستاسيوس الاول بعدةاصلاحات منها تكملة تسوير العاصمة اذ بني السور الطويل على بعد اربعين ميلا غرب العاصمة موصلا بين بحري مرمرة والاسود . هذا بالاضافة الى محاولته تخفيف عبء الضرائب عـــن السكان حيث امر بالغاء الضريبة الدورية التي تدفع كل خمس او اربع سنوات نقداً Chrysargyron وهي ضريبة رومانية قديمة يدفعها التجار كافة واصحـــاب الحرف وحتى بنات الهوى (١٧٠) ، حيث قابل الناس الغائها بفرح عظيم في كافة ارجاء الامبراطورية وقال عنها احد المؤرخين السوريين بان الغاءها كان عيدا لدى السكان (اذ عم الفرح ولبس الناس الحلل البيضاء وساروا حاملين المشاعل والمباخر مرتلين الاغاني الدينية المجدة بحمد الله ومجد الامبراطور (١٧١) كما الغى نظام الجباية القديم المتبع في المدن . اذ كانت الهيئة المسؤولة عن الجباية سابقا هي المجالس البلدية Curia ، حيث استبدل هذه الهيئات بموظفين يشار لهم Vindices يعينهم حاكم الاقليم . وتميز حكم اناستاسيوس الاول باصلاح العملة حيث استحدثت العملة البرنزية الكبيرة المسماة فوليس Follis واجزائها الصغرى سنة ٤٩٨ فرحب بها الفقراء بصورة خاصة .

اما سياسته تجاه الفلاحين فساعدت على ربط هؤلاء في الارض .. اذ حتـــم قانونه على كل من يزاول فلاحة الارض لمدة ثلاثين سنة متواصلة يعتبر معمراً ثابتاً .

---

168) Berger A. and Schiller A., Biography of Anglo-American Studies in Roman, Greek and Greeko-Egyptian Law and Related Science, (Washington D.C. 1945) pp. 75-99.

169) Bury, op. cit., 70.

170) Ibid., 441.

171) Quoted in, Vasiliev, op. cit., 112.

ثابتا Colonus على شرط الا يخسر حريته الشخصية وحقوقه في التملك وبلغ وفر الميزانية في عهده حوالي السبعين مليون دولارا مما مكن جستنيـــان فيما بعد من القيام بمشاريعه الكبرى (١٧٢).

***

172) Bury, op. cit., 446-47.

الفصل الثالث

Section. I

القسم الاول

The Age of Justinian عصر جستنيان

جستنيـــان ووحدة الامبراطوريـــة الرومانية

مشاريعه العسكرية:الجبهـــــة الغربيـــة

ليبيـــا ــ ايطـــاليا ــ اسبانيـــــا

الجبهة الشرقيةحروبه ضد

الفرس ٠معاهـــدة

السلـــم

لا توجد اخبار تاريخية ثابتة عن اصل عائلة جستنيان اذ ظهر اسمه على مسرح التاريخ عند انتخاب ~~عمه~~ خاله جستين الاول امبراطورا سنة ٥١٨ وكان هذا قائدا لاحدى الفرق العسكرية الامبراطورية . وسواء اكانت العائلـــة الجستينيانية سلافية في اصلها او رومانية فقد مثل جستنيان دورا فعالا في مساعدة عمه في الحكم وتسلم مقاليد الامبراطورية اثر وفاة جستين سنـــة ٥٢٧ واستمر في الحكم حتى سنة ٥٦٥ . ان الهدف الرئيسي الـــذي سعى لتحقيقه هو اعادة الوحدة الرومانية وعظمتها في الغرب والشرق مستعينا على ذلك بمشاريع عسكرية واجراءات دينية وثقافية وعمرانية .

الجبهة الغربية :

حاول جستنيان الاول اعادة الهيمنة الرومانية على الاجزاء الغربية في اوروبا وافريقيا التي وقعت تحت حكم البرابرة فبدأ اولا في استرداد شمال افريقيا او بما يسمى بالبلاد الليبية من الوندال وتمتد الحدود الليبية انذاك من وادي النيل غربا وتمتد الى سواحل المحيط (١٧٣)

اشرنا سابقا الى ان السياسة المعتدلة التي انتهجها ملك الوندال هادريك ازاء الكاثوليك والامبراطورية الرومانية اثارت المعارضة بين العائلة المالكة الوندالية التي قادها جليمر Gelimer والاخير اريوسي متطرف اعتقد بان سياسة التقارب مع الرومان ستؤدي الى زوال دولة الوندال وبالتالي حرمانه من وراثة العرش . ان هذه السياسة تمثل خيانة كبرى لميراث جيسريك في نظره . لهذا تمرد على هلدريك والقى عليه القبض واودعه السجن سنة ٥٣٠م . فاثار ذلك احتجاجات الامبراطور جستنيان تلك الاحتجاجات التي كان رد فعلها شديدا . اذ وجه جليمر موجة انتقام من اتباع هلدريك متهما اياهم بالتآمر مع جستنيان . ويشير المؤرخ بروكوبيوس Procopius ان هناك عدة احتجاجات تبودلت بين الملك الوندالي وجستنيان لم تسفر عن سوى اسراع الامبراطور الى عقد هدنة مع الفرس والاستعداد لحرب الوندال (١٧٤)

لم يكن مشروع الحرب هذا مرغوبا فيه من قبل قادة جستنيان ولا من وزرائه . اذ ارتهب قادة الاسطول من فكرة الاشتباك مع الوندال مثيرين الى صعوبة الاستيلاء على الشمال الافريقي بينما ايطاليا وصقلية في حوزة حكومة معادية ١٧٥ كما اعترض الوزراء قائلين بان المشروع يحتاج الى جباية اموال اضافية من شانها ارهاق السكان . وكاد الامبراطور ان يعتقد بوجاهة الاعتراضات لولا حادث طاريء يراه بروكوبيوس على غاية من الاهمية . والحادث هو وصول احد الاساقفة من الشرق لمقابلة جستنيان . واسر الاسقف الى جستنيان بان الله اوعز اليه مقابلة الامبراطور . ولومه على

---

١٧٣) للتفاصيل في مصدر عربي راجع : الدكتور مصطفى عبد العليم دراسات في تاريخ ليبيا القديم (بنغازي ، ١٩٦٦) ص ١

174) Procopius, History of the Wars, III. IX, 8-23, Tr. by H.B. Dewing, Vol. II (London 1954) pp. 87-91.

175) Procopius, 2-7, in Ibid, pp. 93-95.

اخبره (فيما اذا نهض الامبراطور بهذا الامر فسوف يعينه على ذلك ويجعله تقاعسه عن نصرة المسيحيين في ليبيا الشمال الافريقي) واستطرد الاسقف قائلا بان الله سيد ليبيا شمال افريقيا) (١٧٦) ومهما يكن من امر هذه الرواية فقد اصدر جستنيان اوامره بتجهيز الحملة التي تولى قيادتها بليساريوس Belisarius ، ان الجـو السياسي في ليبيا الشمال الافريقي كان مهيئا لهذه الحملة . فبالاضافة الى النزاع بين العائلة المالكة فقد نشبت ثورتان في مملكة الوندال الاولى في طرابلس والثانية في جزيرة سردينيا وكلاهما طلب مساعدة جستنيان (١٧٧) .

لقد تالفت الحملة من عشرة الاف من المشاة وخمســــة الاف فارس وخمسمائة سفينة واثني وستين طرادا . وفي الربيع سنــــة ٥٣٣ قــاد الامبراطور سفينة الجنرال بليساريوس مرسيها امام القصر الامبراطوري . وعند اتمام رئيس اساقفة القسطنطينية ابيفانيوس Epiphanius المراسيم الدينية ابحر الجنرال القائد برفقة زوجته انتونيا Antonia وكذلك المؤرخ بروكوبيوس وسار الاسطول من الدردنيل الى بحر ايجه ثم سواحــل البلوبونيز واخيرا وصل صقلية التي اصبحت مقر العمليات العسكريــة ونقطة الانطلاق ضد الوندال (١٧٨) . ويقول بروكوبيوس ان بليساريوس وضع خطته الهجومية هناك وقام بروكوبيوس بصفته مستشار بليساريوس بجمع المعلومات والاخبار عن اوضاع الوندال حيث امره بالذهاب الى سيراكيوز من اجل ذلك . وتمكن بروكوبيوس من الحصول على معلومات قيمة عـــن طريق صديق قديم ، اخبره بان جليمر جيلمر لم يكن له علم بالحملة وانه منهمك في اخماد الثورة السردينية (١٧٩) .

توجه الاسطول الى مالطة ومنها الى ليبيا في محل يشار له كابوت فاذا ان المدة التي استغرقتها الحملة منذ تحركها من القسطنطينية الى انزالها في ليبيا خمسة شهور . ومن هناك اتصل بليساريوس بزعماء العناصـــر الناقمة على حكم جليمر وابلغهم رسالة جستنيان المتضمنة ان الامبراطور لم يكن في حرب مع الليبيين ولا مع الوندال غير انه يرغب في احترام وصيــة جيسريك التي انتهكها المغتصب جليمر وقد جاءهم البيزنطيون كمحررين لا فاتحين

---

176) Ibid., pp. 97-99.
177) Ibid., 107-111.
178) Ibid., 127.
179) Ibid., 128-29.

ان هذه الرسالة قد عجلت في مصير هلدريك وحاشيته اذ امر جليمر باعدامهم جميعا . (١٨٠)

احرز بليساريوس اول انتصاراته في اد دكموم Ad Decimum على مسافة عشرة اميال من قرطاجة ، تمكن على اثرها الجيش والاسطول من الاستيلاء على قرطاجة عاصمة الوندال . ويعتقد بروكوبيوس ان احتلال البيزنطيين لتلك المدينة هو احدى الاعمال الجليلة في تاريخ الرومان حيث لم يحدث فيها اي اعتداء على المواطنين خلافا للمألوف وذلك لحسن قيادة بليساريوس (١٨١).

وبالرغم من اللطف الذي عامل به بليساريوس السكان فان جليمر كسب عطف الكثيرين عن طريق توزيع الاموال مما مكنه من مواصلة المقاومة (١٨٢). هذا واحرز الجيش البيزنطي نصرا اخرا في موقعة تريكامرون Tricamaron على بعد عشرين ميلا من قرطاجة في ديسمبر سنة ٥٢٣ قتل فيها القائد الوندالي جازون Tzazon وادت الى انسحاب جليمر الى مونت بابيا Mount Papia في نوميديا Numidia حيث حوصر هناك الى حد المجاعة واضطر الى التسليم (١٨٣)

ان قصة حصار جليمر وتأسيره ومقابلته لبليساريوس وجستنيان ذات اخبار فريدة في طرافتها ، اذ ارسل بليساريوس لحصاره القائد فاراس Pharas الذي بعث برسالة الى جليمر يناشده فيها الاستسلام وبذلك يكون له شرف خدمة الامبراطور لا خدمة بليساريوس كما يعتقد ١٨٤ . وجادت عيناه بالدموع عند قرائته لها ورفض الاستسلام بإباء وشمم . غير انه طلب من فاراس ان يرسل له مزمارا ورغيف خبز وقطعة اسفنج .حيث اراد ان ينفس عن كربه بالمزمار نظرا لكونه ماهرا في العزف فيه ، كما اراد ان يشير الى مبلغ المجاعة التي وصل اليها المحاصرون بطلبه رغيف الخبز . اما الاسفنجة فليداوى بها عينه الملتهبة (١٨٥) ويقول بروكوبيوس ان السبب المباشر في استسلامه فيما بعد رؤياه لطفلين يقتتلان على كسرة خبز . وعندما جيء به امام بليساريوس لم ينفجر بالبكاء بل حدث العكس تماما

180) Ibid., 147.
181) Ibid., 171-77.
182) Ibid., 191.
183) Procopius, vol. IV, in Ibid., p. 231.
184) Ibid., 259-261.
185) Ibid., 263-265.

اذ انفجر مقهقها بصوت مدوي حتى ظنه الحضور اصابه مس من الجنون . واشار جليمر بان نصيب الفرد من الدنيا لا يستحق غير الضحك . غير انه حافظ على وقاره عند مقابلته لجستنيان وكان يردد دائما ان الحياة وهم وخداع (١٨٦) .

تمكن بليساريوس من القضاء على المقاومة الوندالية في شمال افريقيا وجزر سردينيا وكورسيكا وموريتانيا ثم البليار سنة ٥٣٤ . ومع ذلك فلم يستقر الوضع في ليبيا لثورة السكان الوطنيين حالما رجع بليساريوس وتولى امر اخمادها نائبه سالومون الذي قضى نحبه في احدى المواقع سنة ٥٤٤ . وتعرضت البلاد الليبية الى اسوأ فترة في حياتها اذ ان التنافس بين القادة الرومان ادى الى حروب فيما بينهم من جهة وضد السكان من جهة اخرى مما سبب ابادة اكثرية الليبيين ، ولم تستتب الاوضاع الا في سنة ٥٤٨ في عهد الحاكم البيزنطي تروكيلتا (١٨٧) .

ويقدم لنا المؤرخ بروكوبيوس وصفا للمآسي التي جرتها حروب جستنيان على سكان ليبيا بقوله : هذه ليبيا فقد انزل فيها الدمار والخراب. اذ يسير الانسان فيها مسيرة طويلة ومن النادر ان يعثر على فرد واحد .بعد ان كانت تضم ثمانين الفا من الوندال المسلحين وجموع الليبيين التي لا تحصى المشتغلة بالزراعة والتجارة .. لهذا كان قيل بان ما هلك في ليبيا خمسة ملايين نفسا فلا اراه مقاربا الحقيقة ... والسبب في ذلك ان جستنيان عند قهره الوندال لم يتخذ الاجراءات التي تكفل له المحافظة على املاكه عن طريق مرضاة الناس . بل عمد الى فرض ضرائب ثقيلة لم يكن لها نظير من قبل . وادعى بملكية كافة الاراضي الصالحة للزراعة . ومنع الاريوسيين من اقامة شعائرهم الدينية وعجز عن تسديد نفقات الجند .. لهذا كانت الثورة الليبية التي اسفرت عن مآسي كبرى (١٨٨) .

حروب جستنيان في ايطاليا :

هناك عاملان ساعدا جستنيان في القضاء على دولة القوط الشرقيين في ايطاليا ، الاول نقمة كنيسة روما على القوط بسبب الاختلاف المذهبي

---

186) Ibid., 283.
187) Bury, op. cit., vol. II, pp. 124-148.
188) Procopius, Anecdote, XVIII, 1-8, in Dewing, op. cit., vol. VI, p. 213.

بين الطرفين ولاضطهاد القوط لاتباعها والثاني التنافس على العـرش القوطي حيث ادى هذان العاملان الى فسح المجال لتدخل جستنيان ثـم الهيمنة على ايطاليا .

عهد ثيودوريك بالحكم الى حفيده اثالاريك Athalaric ونظرا لصغره تولت امه امالاسونتا Amalasontha الوصاية عليه . وقد اشتد الخصام بين فئتين في عهد الوصاية ، الفئة المناهضة للرومان والاخرى الداعيـة للتعاون مع الحكومة الرومانية وعلى رأسها الوصية ، فارادت الاخيرة ان تربي ولدها تربية رومانية فأثارت بمحاولتها هذه حفيظة المناوئين لهامدعين بأن ملكهم سوف يحرم من تربية آبائه واجداده ولن يتحلى بصفات الرجولـة الحقة . ولنعلم بان ثيودوريك الملك الراحل بالرغم من تبنيه الادباء والعلماء من الرومان الا انه بقي اميا واعتقد كما يعتقد قومه أن عصا المربي تكسر معنويات الصبيان وتفقدهم صفات الرجال لهذا لم يسمح ثيودوريك بارسال اولاد القوط الى المدارس . وعلى كل فقد نجحت الفئة المناوءة للرومان مـن السيطرة التربوية على الملك الصغير . (١٨٩) . وازدادا الموقف تعقيدا على اثر التنافس بين الوصية وابن اخ ثيودوريك المسمى ثيوداتوس Theodatus للحصول على اكبر حظوة عند الامبراطور جستنيان . اذ فاوض تيوداتوس سرا وعلى انفراد وفدا ارسله الامبراطور الى ايطاليا برئاسة هيباتيوس Hypatius اسقف مدينة افيسوس . كما تفاوضت الوصية ايضا مع وفد اخر في الوقت ذاته ووافقت سرا بانها مستعدة لتسليم كافة ايطاليا الـى جستنيان في الوقت المناسب (١٩٠) . وهكذا اخذت الظروف تتطور بسرعة الى صالح جستنيان وخاصة عند وفاة الملك الصغير اثالاريك سنة ٥٣٤ . حيث تم الاتفاق بين أمالا سونتا وثيوداتوس على الزواج نظير ان يكـون الاخير ملكا اسميا وان تكون امالا سونتا صاحبة السلطان الفعلي . غير ان ثيوداتوس سرعان ما تنكر لزوجته فاودعها السجن وامر بقتل القادةالموالين لها لهذا قرر جستنيان التدخل لصالح الفئة الموالية الى امالاسونتا (١٩١) .

بدات حروب جستنيان ضد القوط الشرقيين في السنة التاسعة مـن حكمه في جبهتين ، هما صقلية تحت قيادة بليساريوس ودلماشيـا بقيـادة

189) Procopius, op. cit., V, 13-20, in Ibid., vol. III, pp. 19-21.
190) Ibid., pp. 31-33.
191) Ibid., pp. 35-37.

موندوس . Mundus كما استعان جستنيان على قتال القوطبالفرنجة على اعتبارات دينية اذ ان الفرنجة اعتنقوا المسيحية الكاثوليكية منذ سنة ٤٩٦ في عهد ملكهم كلوفيس . لقد استولى بليساريوس على صقلية سنة ٥٣٥ وعبر منها الى نابلي ففتحتها بعد حصار دام لعشرين يوما ، وقد دافع اليهود مع القوط ببسالة عن ا لمدينة بلا طائل (١٩٢) . لهذا قرر زعماء القوط على اثر ما اصابهم من انتكاسة عسكرية خلع الملك ثيوداتوس ~~او كما يسمى ايضا ثيوداهاد Theodohad~~ سنة ٥٣٦ واسناده الى وتيك ٥٣٦ ـــ ٥٤٠ الذي امر باعدام الملك السابق . وواجه هذا الحرب في الجبهتين المذكورتين غير انه ركز قواه في الجبهة الخاطئة . اذ ترك حامية صغيرة للدفاع عن روما بينما قاد اكثرية جيوشه الى رافينا لملاقاة الفرنجة.

هذا وقد اتفق البابا سلفريوس مع بليساريوس على تسليمه روما . ورجع وتيك بعد فوات الاوان لمقاومة بليساريوس الذي تحصن في روما ، وقد فرض القوط الحصار عليها لمدة سنة عانت فيه الشدائد لانقطاع المياه وانتشار المجاعة والطاعون سنة ٥٣٨ (١٩٣) . ومع ذلك ارسل الرومانقوة لحصار رافينا لتخفيف الضغط عن روما ، وفعلا سارع القوط برفع الحصار عنها والتوجه للدفاع عن عاصمتهم رافينا . كما ارسل الرومان قوة جديدة الى ايطاليا تمكن بها بليساريوس من الاستيلاء علىرافينا سنة ٥٤٠ ووقوع وتيك اسيرا في قبضته . الا ان مقاومة القوط قد استؤنفت في عهد ملكهم توتيلا Totila ٥٤١ ـــ ٥٥٢ وتمكنوا من استرداد اكثرية المواقع في ايطاليا بما فيها نابلي سنة ٥٤٣ وروما سنة ٥٥٠ . لهذا ارسل جستنيان حملة بقيادة **نارسيس** Narses ومستعينا على القوط بالفرنجة واللمبارد.

واشتبك نارسيس **في معركة ضد توتيلا قرب بحيرة تراسمين** **Trasimene** هزم فيها القوط ومات توتيلا متأثرا من جراحه ١٩٤ غير ان الملك القوطي تياس Teias ٥٥٢ ـــ ٥٥٣ حاول مواصلة المقاومة بدون جدوى .

وبذلك تمكن نارسيس من تصفية الجبهة الايطالية من القوطيين . اذ سمح لقسم منهم مغادرة ايطاليا وامر بنقل القسم الاخر الى جهات اسيا الصغرى املا في الاستفادة منهم في الحروب ضد الفرس .

---

192) Ibid., 95-99.
193) Procopius, vol. VI, in Ibid, p. 309.
194) Ibid., vol. IV, pp. 401-421.

الجبهة الاسبانيـــة :

كانت اسبانياتحت سيطرة قبائل القوط الغربية . وتمكن جستنيان مـــن التدخل في شؤونهم على اثر التنافس بين زعماء القوط حول العرش وكذلك لعامل التفرقة المذهبية بين الاريوسيين والكاثوليك . اذ ان الاضطهاد الذي وجهه الملك اجيلا Agila ٥٤٩ ــ ٥٥٤ ضد الكاثوليك ادى بمنافسة اثناكلد Athanagild ان يطلب مساعدة جستنيان . وفعلا امر الاخير اسطوله للقيام بغزو اسبانيا سنة ٥٥٠ تحت قيادة ليبريوس Liberius وقد تمكن حليف جستنيان أثناكلد من الانتصار على خصمه بمساعدة قوات جستنيان في موقعة اشبيليه سنة ٥٥٤ وتم تتويجه ملكا . وبذلك تمكـــن البيزنطيون من تثبيت اقدامهم في بعض المناطق الاسبانية التي شملـــت قرطاجة الاسبانية وملقا وقرطبة والاشبيلية (١٩٥) .

ان محاولة جستنيان في اعادة القسم الغربي للامبراطورية محاولة لم يكتب لها الدوام . فقد هاجم اللمبارديون ايطاليا سنة ٥٦٨ واستعاد القوط الغربيون المناطق البيزنطية في اسبانيا سنة ٦٦٢ هذا وقد بقيت الجـــزر البريطانية وبلاد الغال خارج السيطرة البيزنطية .

الجبهة الشرقية :

يشير المؤرخ بروكوبيوس بانه كان من المقرر ان تستأنف الحرب بـــين الفرس والبيزنطيين منذ عهد جستين الاول على اثر حادثة تاريخية نادرة ، ملخصها : ان ملك الفرس قباذ اراد أن يقتدي باحدى السوابق فـــي العلاقات بين الدولتين من اجل تأمين العرش لابنة كسرى . والسابقة هذه هي ان اركاديوس طلب قبيل وفاته سنة ٤٠٨ من ملك الفرس يزدجرد ان يكون وصيا على ابنة ثيودوسيوس وحاميا له وقد استجاب ملك الفـــرس لهذا الطلب وعقد هدنة لمدة ثلاثين سنة (١٩٦) . ومع ان الحرب قد نشبت ايضا بين الطرفين في عهد ثيودوسيوس الثاني سنـــة ٤٤١ الا أن مبعـــوث الاخيـــر الـــذي حمل رســـالتـــه الى ملك الفرس ادى دوره احســـن اداء مذكرا الملك الفارسي عما كان بين الطرفين من صلات ودية وقدانسحبت الجيوش الفارسية فعلا لقاء تعهد الجانبين بعدم بناء المعاقل العسكرية على

---

195) Atkinson, op. cit., pp. 39-40.
196) Procopius, op. cit., vol. I, in Dewing, vol. I, pp. 9-13.

الحدود (١٩٧) . لهذا فان قباذ عمد الى هذه السابقة في وقت عصفت الفتن في داخل بلاده واراد ان يؤمن سلما مع البيزنطيين باقتراحه على جستين ان يشرف على تربية ابنه وان يكون بمثابة الوالد له . وكاد جستين وجستنيان ان يقبلا ذلك لولا معارضة المستشارين ، واضطر جستين ان يكتب الى قباذ جوابا حادا اعتبره الاخير اهانة بالغة . وموجز الرسالة (ان جستين لا مانع لديه من ان يتخذ من خسرو ولدا على شرط ان يربيه تربية تليق بالبرابرة) وهكذا رجع الصبي خسرو الى والده كسير الجناح ١٩٨ فثارت ثائرة الاب واستعد لحرب البيزنطيين غير ان الحرب لم تنشب في عهد جستين وذلك لانشغال الفرس في الدفاع عن حدودهم ضد موجة من الجموع الاسيوية انحدرت على جهات القوقاس . وقد اصبح لهذه القبائل الاسيوية دورا خطيرا في العلاقات بين البيزنطيين والفرس .

لقد احتلت المناطق الكائنة بين البحرين الاسود والخزر ثلاث مجموعات قبلية انتشرت في واديي فوسيس Phosis وكليروس Cyrus والسفوح الجنوبية لجبال القفقاس . وتسمى المنطقة حاليا ما وراء القفقاس Trans Caucasus وجورجيا واذربيجان . كما احتلت قبائل اللازيين Lazians او كما تدعى ايضا بالكولخيين Calchions الاقسام الغربية. واستوطنت قبائل الابريين Iberians الاقسام الوسطى واستولت قبائل الالبانيين على المناطق الشرقية . وكونت هذه القبائل حاجزا بين الروم والفرس من جهة وبين كل من الفرس والبيزنطيين وقبائل الهون من جهة ثانية وكان الهونيون يحتلون المناطق الشمالية للبحر الاسود (١٩٩) .

ان نقطة خلاف الحدود مع الامبراطورية الرومانية حول الممرات الخزرية التي تقع وراء حدود ابريا Iberia (جورجيا) وهي المراكز الاستراتيجية للدولتين . واصبح الفرس بيدهم السيطرة على تلك الممرات في عهد الملك قباذ . هذا بالاضافة الى ان الابريين الخاضعين للفرس يدينون ~~بالديانة المسيحية . وقد استغاث هؤلاء بجستين عندما حاول قباذ فرض~~ الزراد شتية عليهم بالقوة .

---

197) Ibid., pp. 11-15.
198) Ibid., pp. 83-93.
199) Ure. P. N., op. cit., pp. 63-64.

ان مركز العمليات العسكرية للرومان والفرس كانت في الجهات الشمالية لبلاد الرافدين . فالحصون الفارسية في نصيبين تقابل الحاميات البيزنطية في داراز Daraz غير ان الحرب امتدت الى جهات اخرى . وبـرز اسم بليساريوس لاول مرة في هذه الحروب . ومكنته مهارته العسكرية من تولي قيادة الجيوش البيزنطية سنة ٥٣٠ (٢٠٠)

حاول قباذ عقد الصلح مع البيزنطيين بشروط تضمنت ان يتعـاون الطرفان على حماية الممرات الخزرية وان يهدم الروم قلاعهم في داراز وان يدفعوا مبلغا من المال فلم يقبل جستنيان بهذه الشروط فاستؤنف القتال بين الجانبين . حيث استعان الفرس بالزعيم العربي المنذر زعيم المناذرة فـي العراق . اذ قاد جموعه في حملة على سورية مستهدفا انطاكيا ٢٠١ وقد هزم الروم المناذرة في موقعة كبرى في كولينيكوم Collinicum في جهات الفرات . وحاول البيزنطيون الاستعانة بامبراطور الحبشة والغساسنة في سورية — واقترح البيزنطيون على الاحباش تسوية مشاكلهم مع الحميريين في اليمن لتوحيد جهود الدولتين المسيحيتين الكبيرتين ضد الفرس ومن اجـل احتكار التجارة مع الشرق الاقصى وخاصة تجارة الحرير ، غير ان المحاولة لم يكتب لها النجاح وسار الاحباش في نهجهم المستقل في اليمن ٢٠٢ .

قام الفرس بهجوم في اقاصي الجهات الشمالية العراقية في الـوقـت الذي استدعى فيه بليساريوس ليتولى قيادة الجيوش الموجهة ضد الوندال فحاصر الفرس مدينة مرتيروبولس Martyropolis غيـر ان العمليـات الفارسية الحربية قد توقفت على اثر وفاة قباذ وتولى ابنه خسرو العرش وعلى اثر ذلك بدأت مفاوضات الصلح بين الجانبين . انتهت بموافقـة جستنيان على شروط الفرس التي تضمنتها اتفاقية « السلم الدائم سنة ٥٣٢ (٢٠٣) جاء فيها ان تكون داراز مجردة عن السلاح وانسحاب الطرفين الى اماكنهما السابقة ثم اعطاء الفرس كمية من المال (٢٠٤) . اما الاسباب التي ادت بالطرفين الى عقد السلم فتكمن في ان خسرو لم يكن في مركز امين حيث كانت هناك مؤامرة فارسية حول عرشه . وقد انصرف برهة من الزمن

200) Bury, op. cit., 82-85.
201) Procopius, op. cit., in Dewing, p. 161.
202) Ibid., pp. 179-189.
203) Gibbon, op. cit., vol. IV, p. 302.
204) Procopius, op. cit., in Dewing, pp. 205-9.

لاستئصال دابر المؤامرة وامر باعدام كافة اقاربه تقريبا لاشتراكهم بالتآمر . اما جستنيان فقد رغب في الصلح لانه كان يعد العدة للعمليات العسكرية في الجبهة الغربية .

غير ان الحرب عادت بين الطرفين ٥٤٠ ــ ٥٤٥ ويعتقد المؤرخ بروكوبيوس ان خسرو كان المعتدى (٢٠٥) . اذ حرض المنذر ملك الحيرة في العراق على محاربة الغساسنة في سورية في عهد ملكهم الحارث بن جبلة ٥٢٩ ــ ٥٦٩ ، وتمكن المناذرة في احدى مواقعهم ضد الغساسنة من اسر ابن الحارث ثم تقديمه قربانا الى العزي سنة ٥٤٤ (٢٠٦) . كما انتهز الفرس فرصة انشغال الجيوش الرومانية في الجبهة الايطالية وهجوم جديد قامت به جموع من الهونيين على الامبراطورية البيزنطية ، فاعلنوا الغاء الصلح بعد ان تحالفوا مع القوط الشرقيين في ايطاليا على مواصلة الحرب سوية ضد البيزنطيين .

لقد استهدف خسرو في عملياته العسكرية مدينة انطاكيا حيث عسكر قرب سوريا على بعد مائة وخمسين ميلا شرق انطاكيا وارتأى ان يستولي عليها بهجوم مباغت . واخيرا وقعت انطاكيا بيده فاعمل فيها السلب والحرق والقتل، ثم قاد اهلها اسرى الى المدائن عاصمة الفرس وهناك امرهم ببناء مدينة لهم على مسيرة يوم واحد من المدائن اسماها (انطاكية الخسروية). اذ اصبح هؤلاء فيما بعد محط رعايته واطلق عليهم (رعايا الملك) (٢٠٧) احدث سقوط انطاكيا رد فعل شديد في الاوساط البيزنطية واضطر جستنيان لاستدعاء قائده بليساريوس وكان من بين فرق بليساريوس جموع من الاسرى القوطيين الذين وافقوا على القتال ضد الفرس . وتجمعت القوى الرومانية في بلاد الرافدين وتمكن بليساريوس من احراز انتصارات على الفرس نتيجة للمساعدات العسكرية التي قدمها الحارث بن جبله (٢٠٨)

اضطر خسرو الى طلب الصلح . وهناك روايتان عن اسباب ذلك الاولى بالرغم من سذاجتها فهي لا تخلو من طرافة . موجزها : ان وفدا فارسيا ام معسكر بليساريوس في مهمة استطلاعية ظاهرها التفاوض من اجل الهدنة والصلح . وقد تظاهر بليساريوس وجيشه بانهم منشغلون بالصيد . فعند مقابلة الوفد لبليساريوس قال لهم (انه لامر عجيب ان يقاتلنا خسرو ويطلب

---

205) Ibid., 271.
206) Hitti Ph., History of Syria (London, 1951) p. 402.
207) Ure, Op. cit., p. 73.
208) Gibbon, op. cit., p. 307.

الصلح) وعلى اثر ذلك قفل راجعا واخبروا خسرو بما رأوه وسمعوه فقرر الانسحاب الى ما وراء الفرات (٢٠٩)٠ وهكذا يفهم من هذه الرواية ان بليساريوس قد فاق خسرو دهاء . اما الرواية الاخرى فتشير الى سبب اخر هو الارجح . وذلك ان موجة من الطاعون سرت عدواها من مصر الى سوريا وظهرت اعراضها في جيش خسرو ، هذا وقد عمت هذه الموجة معظم اجزاء العالم انذاك ، وكانت السبب في انسحاب الفرس من المواقع السورية (٢١٠) .

استأنف خسرو الحرب من جهات العراق سنة ٥٤٤ . ولم تكن حربه هذه المرة موجهة ضد جستنيان بقدر ما هي موجهة ضد المسيحيين ويعزو البعض سبب ذلك الاتجاه الى اعتقاد خسرو بان اضطهاده للمسيحيين قد يقربه الى الـهالنار لينقذ بلاده من الطاعون وعلى كل فإن هجومه المركز على ~~انطاكية~~ الرها ، المركز المسيحي الهام لم يكتب له النجاح لاستبسالها في المقاومة وقرر رفع الحصار لقاء كمية من الاموال . وفضل عقد هدنة مع البيزنطيين سنة ٥٤٥ لمدة اربع سنوات تجددت الحرب عند انتهائها والتي استمرت حتى سنة ٥٥٢ حيث تهادن الطرفان لقاء اموال كبيرة قدمها جستنيان وقد تبلورت هذه الهدنة الى اتفاقية الصلح لسنة ٥٦٢ (٢١١) .

ان الصراع الدائر بين الفرس والبيزنطيين حول منطقة لازيكا Lazica الاستراتيجية على الاخص اتعب الامبراطورية البيزنطية . لهذا طلب جستنيان الصلح . غير ان الفرس اصروا على شرط رئيسي الا وهو (اتاوات) بيزنطية مستمرة لقاء سلم دائم) اما الرومان فهدفوا الى سلم دائم مقابل اقل ما يمكن من الاتاوات (٢١٢) . واخيرا توصل الطرفان الى عقد سلم على جميع الجهات لمدة خمسين سنة على شرط ان ينسحب الفرس من لازيكا مقابل دفع الروم ثلاثين الف قطعة ذهب سنويا للفرس على ان يدفع منها اتاوة سبع سنوات مقدما تليها اتاوة ثلاث سنوات تدفع حال انتهاء السبع سنوات الاولى . واحتوت المعاهدة على المواد التالية : (٢١٣)

١ - سوف لا يسمح الفرس لقبائل الهون والالان Alans وغيرهم من التوغل في الامبراطورية الرومانية خلال ممرات الخزر وعلى ان يمتنع الروم من ارسال الجيوش الى تلك الجهات والى اية جهة اخرى من الجهات الفارسية .

209) Ure, op. cit., p. 76.
210) Procopius, op. cit., in Dewing, pp. 451-465.
211) Gibbon, op. cit., pp. 318-321.
212) Ure, op. cit., p. 94.
213) Ibid., pp. 97-101.

٦

٢ ـ على الحلفاء العرب لكلا الجانبين الالتزام بهذه الشروط ويجب ان يمتنع العرب حلفاء الفرس من حمل السلاح ضد الروم وان يمتنع العرب حلفاء الروم من رفع السلاح ضد الفرس .

٣ ـ على تجار الروم والفرس المرور بمحطات الكمارك المعينة

٤ ـ ان السفراء والموظفين الذين يستخدمون خيولا تحمل البريد سواء اكانوا من الفرس او الروم يجب تكريمهم حسب مكاناتهم الرسمية وحسب المناسبات وان يولوا ما يستحقونه من الاهتمام والعناية . وان يودعوا بمثل ما استقبلوا به من تكريم واعفاء ما يحملونه من سلع من الرسوم .

٥ ـ يجب ان يمتنع تجار العرب والبرابرة عن السفر في طرق غير مألوفة تجنبا لدفع الرسوم . وعلى كافة هؤلاء الذين يتاجرون بين الدولتين اتباع طريق نصيبين وداراز وعليهم عدم دخول الاراضي الفارسية والرومانية الا بتصريحات خاصة . ان المخالفين لذلك والمهربين سوف يلقى عليهم القبض من قبل موظفي الحدود مع بضائعهم ويسلمون للسلطات لينالوا العقاب .

٦ ـ ان المنهزمين من الخدمة العسكرية اثناء الحرب اكانوا من الفرس او الروم والمحتمين بأي من الجانبين يجب عدم منعهم من الرجوع الى اوطانهم اذا رغبوا في ذلك . اما اولئك الذين يفرون اثناء السلم فيجب تسليمهم ولو بخلاف ارادتهم الى الجهة التي فروا منها .

٨ ـ امتناع الجانبين عن اقامة التحصينات على الحدود .

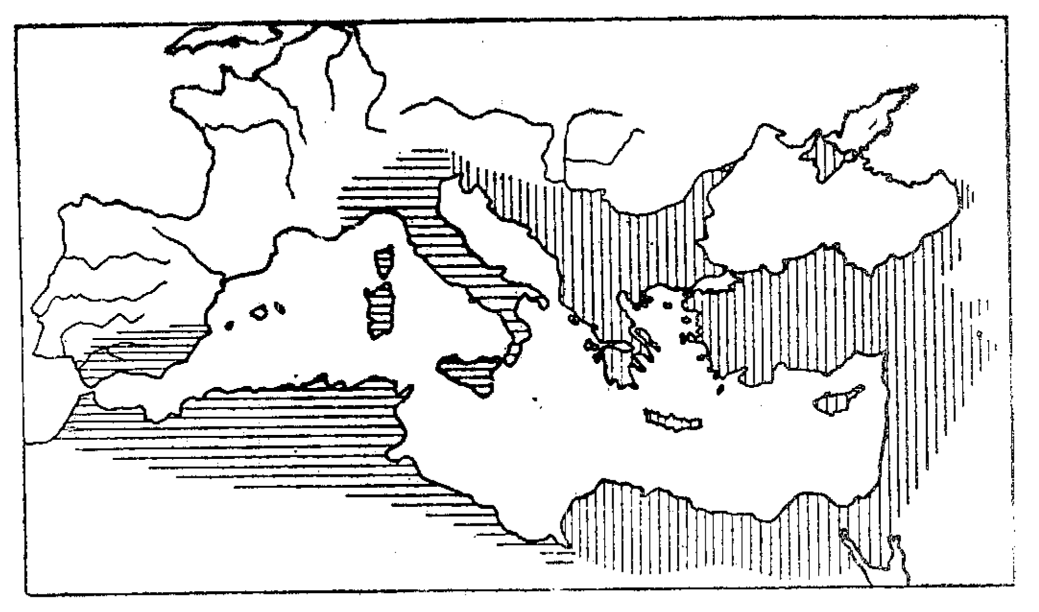
٩ ـ يجب عدم اقامة حامية كبرى في داراز ويكتفى بوضع قوة في حدود المعقول لحماية المدينة . وان جنرال الشرق سوف لا يجعل من ذلك المكان قاعدة له . وعليه منع الغارات على الحدود الفارسية والمحافظة على مصالح رعايا الفرس .

١٠ ـ اذا قام اشخاص غير مسؤولين بالاعتداءات على الحدود من اجل السرقة او ليذر الخلاف بين الدولتين فيجب على ضباط الحدود من الجانبين القيام بتحقيق شامل . واذا استعصى الامر على هؤلاء فيجب احالة

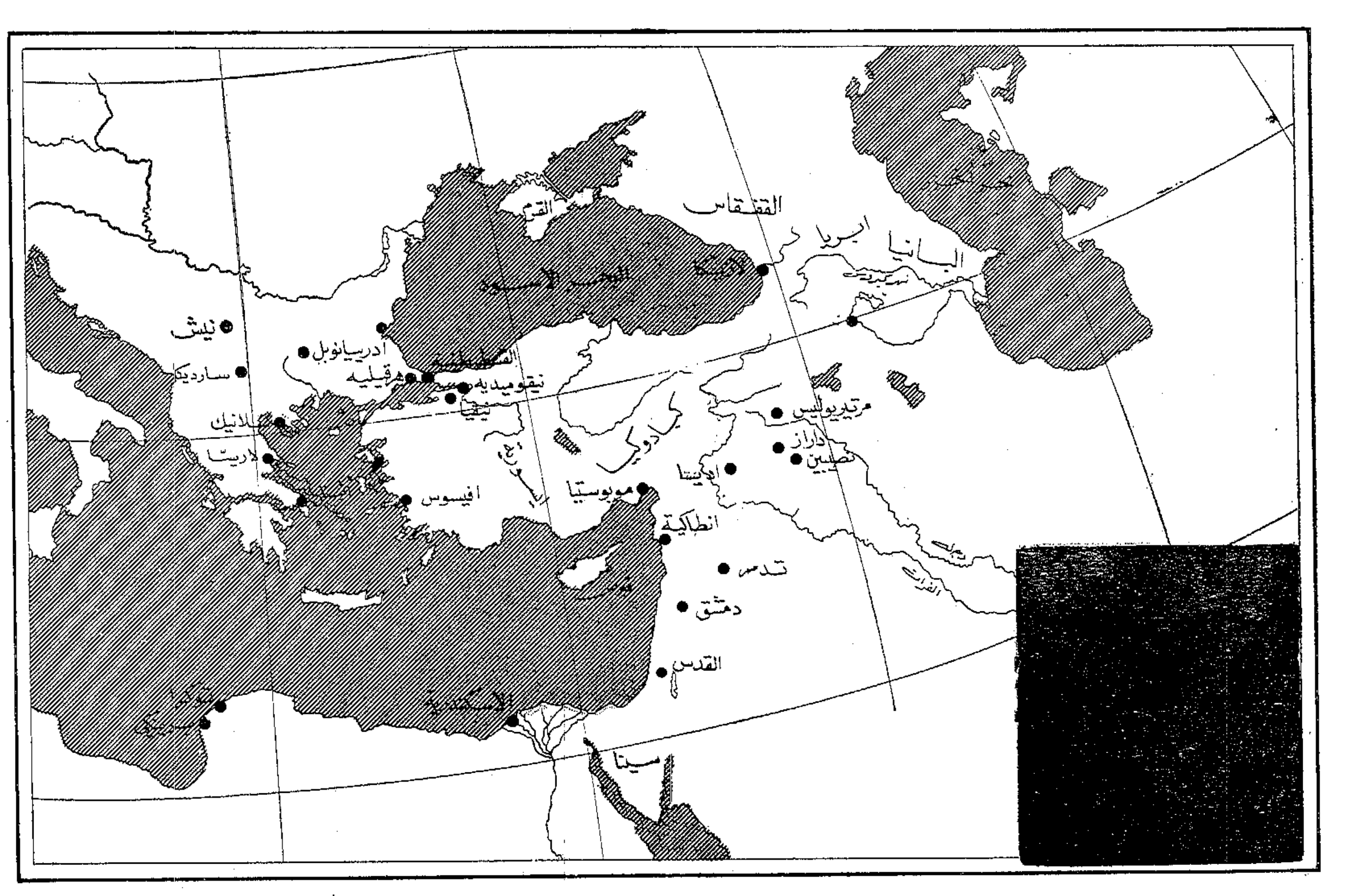
الموضوع الى جنرال الشرق . فان لم يحل المشكلة في مدة ستة اشهرفيجب تعويض المتضرر بمقدار ضعف اضراره . وان الطرف الذي يقع عليه الضرر يجب ان يتصل بسلطان الدولة الاخرى فان لم يستحصل الضمان الكافي ولا التعويض المتضاعف في ظرف سنة فان السلم يعتبر لاغيا .

١١ ـ ان الله مع من ينشد السلام ، وهو على من يحاول تغيير العهود .

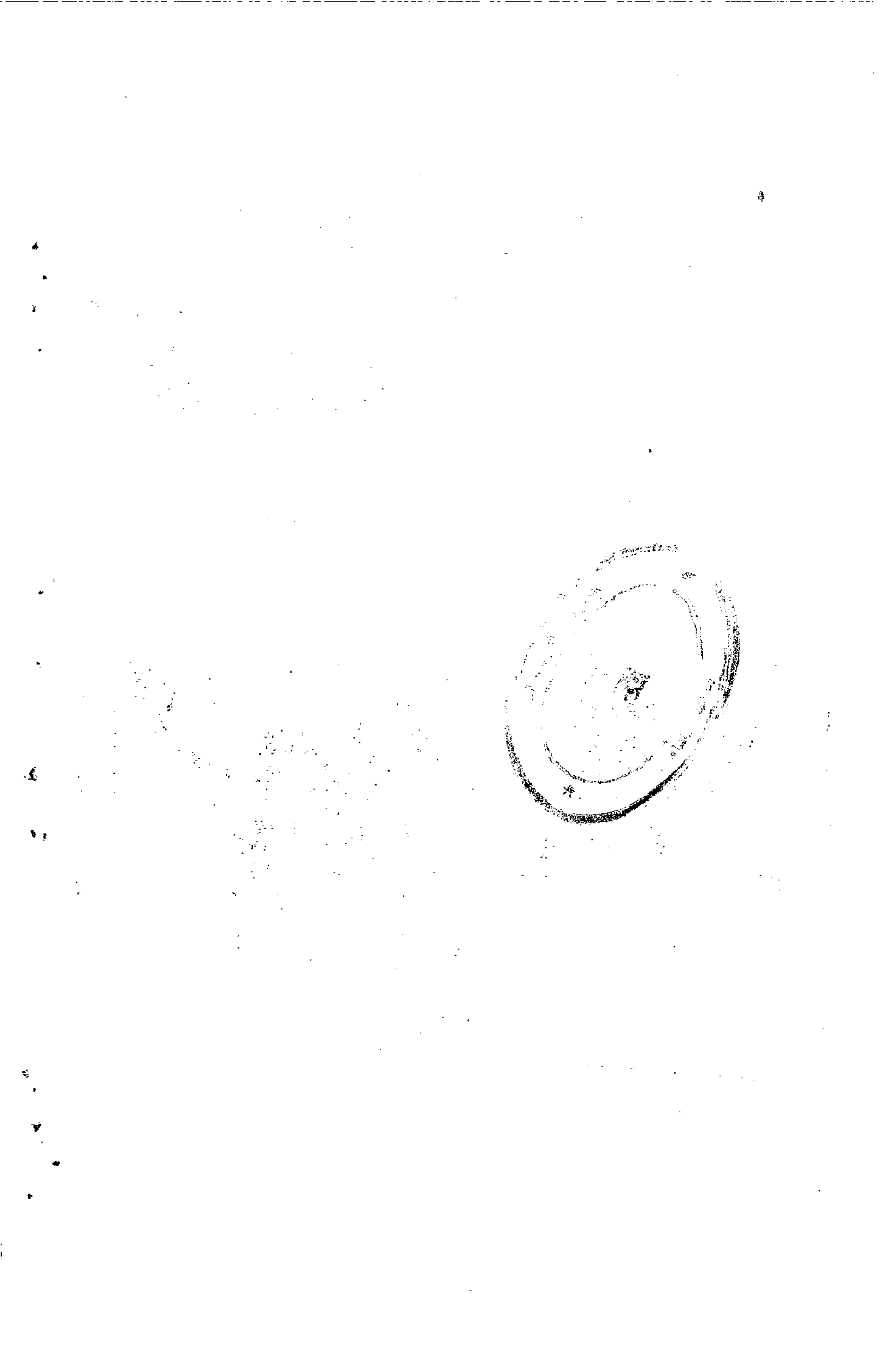
***



تشير الخطوط العامودية الى مساحة الامبراطورية عند اعتلاء جستنيان العرش سنة ٥٢٧ . وتشير الخطوط الافقية الى المناطق التي استعادها ذلك الامبراطور .



خارطة لتوضيح الجبهة الفارسية – البيزنطية بصورة خاصة



الفصل الرابع

Section, II — القسم الثاني

عصر جستنيان The Age of Justinian

الامبراطورة تيودورا ، ثورة الملعب ، الاصلاحات الدستورية : الشريعة Code الوجيز Digest المقتطفات الفقهيـــة Institutes المراسيم Novels اصلاحات ادارية وقضائيـــة واجتماعيـــة مشاريعه العمرانية الحركة الفكرية ـــ نهايـــة العصر الجستنياني

تيـــــودورا Théodora

قبل البحث في سياسة جستنيان الداخلية ومشاريعه الاصلاحيـــــة ارتأيت ان اتي على شيء من ذكر ثيودورا زوجة الامبراطور جستنيان . ان تيودورا من نوادر النساء في التاريخ اكان ذلك من ناحية تاريخ حياتها قبل اقترانها بجستنيان او بعده ، ونظرا لما نسب اليها من تأثيرات كبرى فـــي سياسة ذلك الامبراطور في المجالين الدنيوي والديني (٢١٤) ٠ فمن هــــي

214) Gibbon, op. cit., vol. IV, 153.

هذه المرأة يا ترى ؟ تحدرت ثيودورا من اصول هزيلة . قضت ردحا مــن شبابها راقصة مسرح في وقت كانت فيه تلك المهنة تقيض الفضيلة . انها بنت اكاكيوس Acacius سائس الحيوانات المتوحشة للفرقة الخضراء وهو من اهالي بيزنطة . توفي عند اعتلاء الامبراطور انبستاسيوس العرش وترك ثلاث بنات هن كوميتو Comito وثيودورا وانستاسيا وان اكبرهــن سنا في عمر السابعة عند وفاة والدهن . فاصبحن في رعاية امهن التي كانت على درجة كبرى من العوز والفاقة . وقد تزوجت من الشخص الذي كان المفروض فيه ان يشغل وظيفة زوجها المتوفي . ونتيجة لدسيسة دبرت في داخل الفرقة الخضراء اسفرت عن تعيين شخص اخر . فاضطرت الام ان تشغل بناتها خادمات في المسرح لمدة من الزمن ، ثم ارسلتهن جميعــا للاشتغال على المسرح عندما كبرن وكن جميعا على قدر من الجمال . وقدر لهن ان يصبن نجاحا منقطع النظير ، ولكن النجاح الذي احرزته ثيودورا لا يقاس بمثله . قامت ثيودورا بتمثيل ادوار خليعة على المسرح وخارجهفاصبحت علما في رأسه نار ٢١٥ . ان شهرتها المسرحية لم تكن نتيجة لمهارة فنيــة وانما في رأسه نار (٢١٥) . ان شهرتها المسرحية لم تكن نتيجة لمهارةفنية وانما لتبذلها للغادين والقادمين . فلم تكن لتجيد اللعب في المزمار ، ولا حتى اجادة الرقص . واخيرا قامت ببعض الادوار الهزلية الرخيصة (٢١٦) . الا انها سريعة الخاطر في سوق النكات المعبرة اللاذعة . ثم هجرت المسرح واصبحت محظية هكوبوليوس Hecobolius الصوري عندما عين حاكما على برقة في ليبيا . ورافقته الى هناك لتشاركه الموبقات ولم تدم عشرتها طويلا مع هكوبوليوس ، فاضطرت الى كسب العيش بمفاتن جسمها فيالاسكندرية اولا وفي مختلف البلدان في تلك الجهات الشرقية ثم حل بها المطاف اخيرا في القسطنطينية (٢١٧) . هذا ولم تكن ثيودورا مولعة بهذا النوع من الحياةحيث ان اهتمامها كان مركزا في ملعب العاصمة وفي العطف على النساء البائسات.

لقد تعاشرت مع جستنيان حال رجوعها الى القسطنطينية في وقت لم لم يتول فيه جستنيان العرش بعد ،ولم يستطع الزواجمنها في باديءالامر لخوفه

215) Ibid., 154-155.
216) Procopiu,, Anecdat, IX. 12-13, in Dewing, Vol. IV, pp. 105-107.
217) Procopius, op. cit., in Dewing, 111-115.

من الامبراطورة العجوز يوفيما Euphemia زوجة عمه جستين وقد رضيت ثيودورا عن عشيرها لما ينفقه عليها من مبالغ طائلة والاشتراك معها في حماقات الفرقة الزرقاء (٢١٩) . وابتسم لها الحظ عند وفاة الامبراطورة. حيث تمكن جستنيان من اقناع عمه من تعديل القانون الذي يمنع زواج اعضاء مجلس الشيوخ من الداعارات وهكذا اصبحت ثيودورا زوجة جستنيان شرعا وقانونا (٢٢٠) . وكم يأخذ العجب مأخذه من المؤرخ بروكوبيوس حينما يقول (الغريب حقا لم يرتفع اي صوت معارض لهذه الزيجة لا من رجال الدين ولا من القادة العسكريين ولا من السياسيين عندما تقدموا لتأدية يمين الاخلاص والولاء لها ولا عجب من هذا ان هتافات الجماهير كانت تتعالى لها معتبرين انفسهم عبيدا لها .) (٢٢١) غير ان شغف الجماهير بثيودورا يحمل معنا اخرا . فهي من صفوف الشعب الذي اعجب بها أيما اعجاب في تسليته وفي الاحسان اليه . هذا بالاضافة الى ما تتمتع به الفرق الرياضية في المدينة وخاصة الزرقاء والخضراء من شهرة وتأثير في صفوف عامة الناس (٢٢٢).

اما حياتها الزوجية مع جستنيان ففيها اراء مختلفة . فالشائع انهما مختلفان رايا واتجاها . غير ان هذه الاشاعة حسب رأي بروكوبيوس لا تستند الى الواقع . لان الاختلاف كان متقصدا وموضوعا حسب خطة محكمة من قبل الزوجين من اجل منع المعارضة من الوقوف صفا واحدا ضد العرش وجعلها منقسمة بين الزوجين ليقفا على اخبار المناوئين للسلطة . والمعارضة الاساسية التي يخشى بأسها متمثلة في جبهتين الاولى الفرق الرياضية والثانية جموع رجال الدين وكلاهما يتمتعان بنفوذ مهيمن على عقلية الجماهير .

ثيودورا وثورة الملعب الرياضي Hippodrome

تجلت مواهب تيودورا في اجلى مظاهرها في الموقف الذي اتخذته عندما اتحدت فرقتا الملعب الزرقاء والخضراء في ثورة ضد العرش في كانون الثاني (يناير) سنة ٥٣٢ (٢٢٣) . اذ كانت القسطنطينية مقسمة سياسيا واداريا

---

218) Gibbon, op. cit., 155.
219) Procopius, in Dewing, 115-123.
220) Ibid., 119-123.
221) Ibid., 6-8.
222) Ibid., 125.
223) Ure, op. cit., 201.

بين اربع محلات Demes يشار لها بالالوان الزرقاء والخضراء والبيضاء والحمراء . وسيطرت الفرقتان الاولى والثانية منذ القرن الخامس على المدينة وملعبها الرياضي . واصبح ميدان السباق تتنازعه الاهواء السياسية والدينية . اذا كانت الفرقة الخضراء مونوفستية بينما الزرقاء ارثودوكسية واستغل المتنافسون على العرش هذه الفوارق لمصالحهم الخاصة (٢٢٤) .

بدأ الشغب في الملعب على اثر اقامة عرض صاخب تحول الى هجوم سياسي عنيف . حيث حاولت الفرقة الخضراء ان تعبر للامبراطور عما تقاسيه من ظلم نتيجة للاضطهادات التي تتعرض لها من قبل عصابات الفرقة الزرقاء . غير ان جستنيان نفذ صبره واخذ يكيل الاهانات جزافا للخضر . وقال مخاطبا اياهم (اسمعوا ايها السوقة الوقحون . . . ايها اليهود ايها المانويون . . .) (٢٢٥) ومع ذلك كرر الخضر استرحامهم للامبراطور قائلين (ايها الامبراطور دعنا نموت من اجلك وبأوامرك لا من اجل الغير)٢٢٦ . ونظرا لعدم استماع جستنيان لصرخات الاستغاثة التي وجهتها الفرقة الخضراء تحول الاسترحام الى شتائم موجهة ضد الامبراطور . فاستشاطت الفرقة الزرقاء غضبا واضطر الخضر الى الانسحاب .

غير ان هناك حادثا عرضيا ادى الى اتحاد الفرقتين ضد العرش ففي نفس اليوم قادت السلطات سبعة من المجرمين من اعضاء الفرقتين سبق وان ادانتهم بجارئم الى ساحة الاعدام . وفعلا تم اعدام خمسة منهم غير أن حبل المشنقة قد انقطع حينما علق الاثنان الباقيان وسقطا احياء على الارض . ومن المصادفة ان يكون احدهما من الفرقة الخضراء والاخر من الفرقةالزرقاء. وقد ساعدتهما الجماهير على الهرب وتعهدهما رجال الدين بالحماية لان نجاتهما اشبه بمعجزة من المعجزات . ورأى قادة الفرقتين ان الظلم قد اصابهما بالتساوي لهذا عقدا هدنة عزما فيها على تحقيق مطالبهما باطلاق سراح المعتقلين من الطرفين ومعاقبة الجهات التي حكمت بالاعدام على قسم من افراد الفرقتين . فتوجه الخضر والزرق لمهاجمة السجن فاشعلوا فيه النيران وقتلوا كافة الحراس واطلقوا سراح السجناء . واضطر اكثريةاهالي

224) Vasiliev, op. cit., 155.
225) Gibbon, op. cit., 164.
226) Ibid., 164.

القسطنطينية الى الهروب نحو الجانب الاسيوي ، واشتعلت الحرائق في كافة انحاء المدينة . ان شعار الثوار هو Nika تلك الكلمة المدوية التي تجاوبت اصداؤها فيجوانب المدينة الملتهبةتفيد معنى الفتح . الفتح . ٢٢٧

اما الامبراطور وزوجته وقسم من امراء الحاشية فقد اعتصموا في القصر الامبراطوري . وحالما علم جستنيان بأن نقمة الثوار موجهة بصورة خاصة ضد الوزيرين جون اوف كياد وكيا John of Cappadocia وتريبونيان Tribonian امر باقصائهما ترضية للثوار . غير ان ذلك الاجراء لم يخفف من حدة الثوار شيئا بل تطورت تطورات خطيرة في يومها الخامس وذلك على اثر اخراج جستنيان الاميرين هيباثيوس **Hypatius** ويومبيوس Pompeius من القصر الامبراطوري . لقد علم الثوار بذلك فتوجهوا في التو الى بيت هيباثيوس واخرجوه قسرا من بيته ونادوا به امبراطورا . وهكذا اصبح موقف الامبراطور وحاشيته في القصر حرجا الى درجة انهم هموا بالهروب عن طريق البحر طلبا للنجاة . (٢٢٨) .

وفي تلك اللحظة الحرجة القت ثيودرا خطابها اثناء اجتماع الامبراطور بقادته في القصر الامبراطوري . ذلك الخطاب الذي انقذت فيه الموقف وحفظت العرش لجستنيان ومما جاء فيه (٢٢٩) .

لا ادرى فيما اذا كان من الجائز لامرأة ان تتقدم صفوف الرجال وتتطاول في كلماتها ، وهي ترى الاخرين وكأن على رؤوسهم الطير ان الوقت لا يسمح باطالة المناقشة وتقليب وجهات النظر بين هذا الامر وذاك . ان الحل الصائب هو النهوض بالامر الذي تتطلبه الساعة التي نحن فيها . وما الحل في الهزيمة وان كانت فيها السلامة . ان كل نفس صائرة لا محالة الى الموت .. ان هروب الامبراطور لامرادا .. فأن فضلت النجاة يا ايها الامبراطور بالهزيمة فالامر لك .. فالمال وفير .. وهذا البحر دونك اياه ... اما انا فاتمسك بالمأثرة القائلة بان الاكفان تليق بالعظماء .

وهكذا بعثت ثيودورا الثبات والاقدام في نفس جستنيان وحاشيته فامر قواته بالقصر وعلى رأسها بليساريوس اخماد الثورة بقوة السلاح .

---

227) Ibid., 165.
228)Ibid., 165-166.
229) Procopius, Ware, 1. XXIV. 30-36, Dewing, Vol. 1, 231-233.

وقد عاد الهدوء الى العاصمة بعد معارك ضارية قدرت ضحاياها بثلاثين الف نسمة . (٢٣٠) .

الاصلاحات الدستورية :

ان القوانين الرومانية التي امر جستنيان بجمعها وتصنيفها تعتبر من اكبر مآثر ذلك الامبراطور . ان اقدامه على تلك الخطوة جاء منسجما مع شعاره الثلاثي الذي طالما جاهد الى ترجمته واقعا الا وهو الوحدة السياسية والدينية والقانونية . فالقانون سدى الرومان ولحمتهم ، ومن اسرار عظمتهم التاريخية وقيل حقا ان العقلية الرومانية عقلية قانونية . ولعل من الاسباب التي دفعت بجستنيان للقيام بذلك العمل رغبته في تخفيف الفروق بين التعاليم الدينية من جهة والسياسة الرسمية من جهة ثانية أو بمعنى اخر محاولة تنصير القانون الروماني . ومن المحتمل ان يكون جستنيان قد استهدف من عمله القانوني هذا مكافحة القيم البربرية التي طغت على اجزاء الامبراطورية فكأنه بذلك اراد قهر الكيانات البربرية الجرمانية في الغرب ثقافيا وعسكريا في آن واحد .

اختار جستنيان لتلك المهمة ابرز فقهائه وعلى رأسهم تريبونيان (٢٣١) الذي شغل منصب امين العاصمة واسفرت جهوده عن سفيرين عظيمين هما الشريعة Code والوجيز Digest اذ صدرت الشريعة سنة ٩٢٥ غير انها نقحت بعد طبع الوجيز سنة ٥٣٣ وان ما وصلنا هو الطبعة الثانية المنقحة سنة ٥٣٤ . وتضمنت الشريعة اثني عشر كتابا . وقسم كل كتاب الى عناوين . واشير في القوانين المصنفة الى الاباطرة الذين اصدروها واقدم القوانين في الشريعة ترجع الى عهد الامبراطور هادريان Hadrian ١١٧ — ١٣٨ ، واحدثها يعود الى السني الاولى من حكم جستنيان نفسه . اما الوجيز فقد صدر في خمسين مجلدا ، وبوبت المجلدات حسب العناوين ايضا وبحث كل عنوان في قضايا قانونية خاصة . ان العناوين عبارة عن اجتهادات قانونية لكبار قضاة الرومان واشار الاستاذ رولي Roly الى الوجيز بقوله (هناك ٦٤ ٢٤ مقتبسا من يولبيان *Ulpian* و ٢٠٨١ من يولوس Paulos و٦١٠ من بابيتان Papinian و ٥٧٨ من

230) Ibid., 235-239.
231) Ostrogorsky, op. cit., 69.

بومبونيوس Pomponius و ٥٣٥ من كايوس Gaius وهناك ٢٨٨٣ مقتبا من ثلاثة وثلاثين فقيها . هذا ويعتبر بومبونيوس المتوفي عام ١٣٨ م اقدم الفقهاء اما احدثهم فهو يولبيان المتوفي عام ٢٨٨ (٢٣٢) . هذا وان وان غالبية المقتبسات ماخوذة من فقهاء الرومان الذين عاشوا في القرنين الثاني والثالث الميلاديين .

قصد جستنيان بالشريعة والوجيز ان يكونا مرجعين اساسيين لكافة قضاة الامبراطورية. اما بالنسبة لطلبة القانون في المدارس الحقوقية الشهيرة انذاك في القسطنطينية وبيروت فقد امر جستنيان تريبونان ان يعد لهم كتابا خاصا يفسر فيه القوانين التي تتناول اهم الامور القضائية لهذا وضع كتاب المقتطفات Institutes سنة ٥٣٣ الذي يقع في اربعة ابواب . واشارت مقدمته الى الغاية التي من اجلها وضع الكتاب اذا جاء فيها : (٢٣٣)

باسم الله . الى الشباب الذين تحدوهم الرغبة لدراسة القانون . اننا بعد الانتهاء من ازالة كافة المتناقضات المريكة من القوانين . ولينا الاهتمام الى المجلدات القيمة لخبراء القانون . وحالتنا بذلك كحالة الملاحين وسط عباب المحيط ابتغاء عبوره برحمة الله . وقد كمل العمل باصدار الوجيز . وعند الانتهاء منه بمشيئة الله . قمنا بتوجيه الدعوة الى تريبونيان والى القانونيين الشهرين ثيوفيلوس Theophilus ودوروثيوس Dorothius لتاليف كتاب تحت سلطتنا واشرافنا الا وهو كتاب المقتطفات القانونية Institutes لمساعدتكم في دراستكم الاولية للقانون وليقيكم اقتباس المعلومات عن طريق الروايات البالية . ومنه تستمدون الحقائق على ضوء التعليم الامبراطوري الساطع .

~~لقد اشرفنا على~~ تبويب المقتطفات المتالفة من اربعة اجزاء شاملة على الاسس الضرورية لعلم القانون . حيث قد اختصرنا في تلك الاجزاء القوانين المستخلصة سابقا . واستند الكتاب على اقوال الفقهاء القدماء وخاصة اقوال كايوس ... فاليكم تلك القوانين ، تعلموها بجد وشوق واثبتوا انفسكم بانكم تطمحون الى الاحاطةعلما بكافة الحقول القانونية . وبذلك تكون لكم

---

232) Gibbon, op. cit., Vol. IV, 398.

233) Ure, op. cit., 142-143.

مقدرة الحكم التي قد تناط بكم في هذه الامبراطورية .

يقول الاستاذ يور ، بان عمل جستنيان لم يكن عملا اصيلا بالمعنى العلمي . فهو مجرد تلخيص وتكرار لما سبق تصنيفه وتلخيصه . اذ ان القوانين الرومانية قد جمعت ثلاث مرات قبل عهد جستنيان . حيث جمع كريكوريوس Gregorius القوانين الصادرة في فترة ١١٧ — ٢٩٤ وجمعت كذلك القوانين الصادرة منذ سنة ٢٩٦ — ٣٢٤ . وامر ثيودوسيوس الثاني بجمع القوانين الصادرة منذ وفاة قسطنطين ٣٣٧ الى ٤٣٨ . هذا وان الوجيز عبارة عن مقتبسات من مجهودات فقهاء سابقين . وقد اعترف جستنيان بان المقتطفات من صنع الفقيه كايوس (٢٣٤) .

هذا وقد خصص قسم كبير من الشريعة لموضوع الملكية الخاصة وتناقلها ومع ان جستنيان حاول تنصير القانون الروماني الا ان الشريعة استندت على قوانين اباطرة وثنيين منذ عهد هادريان الى دفلديانوس وكذلك على قوانين الامبراطور المرتدجوليان (٢٣٥) . ولعل سبب ذلك ان المجتمع الروماني لم يكن باستطاعته التكيف الى المتطلبات المسيحية حتى القرن السادس . ومع ذلك فان الشريعة والوجيز والمقتطفات تعتبر من ناحية اخرى سجلا حافلا للتاريخ القضائي للامبراطورية الرومانية منذ تشريع اللاواح الاثني عشر سنة ٤٥١ ق . م .

كما امر جستنيان باصدار كتاب بالمراسيم الامبراطورية Novels وهي القوانين التي اصدرها جستنيان نفسه وامر بجعلها ملحقا بكتاب الشريعة وعالجت هذه امورا تطلبها التطور الزمني ، وعكست لنا جوانب من الحياة البيزنطية في عهد ذلك الامبراطور وهي على العموم تتناول مشاكل عدة منها :

١ — المشاكل الادارية والمالية

اذ أشار المرسوم الثامن الصادر في سنة ٥٣٥ الى اصلاح الجهاز القضائي وذلك بمنع المرشحين للوظائف القضائية من المتوسط او دفع الرشاوى وجاء في القانون المرقم ١٣ لسنة ٥٢٥ استحداث وظيفة جديدة باسم

234) Ibid., 144.
235) Ibid., 145.

لتحل محل وظيفة رئيس الحراس على اثر Praetor of the Demes موجة من السطو والسرقات في العاصمة (٢٣٦) وحتم قانون ٦٩ لسنة ٥٣٨ اقامة الدعاوى في محاكم الولاية ولا يجوز للافراد اقامتها في غير ولاياتهم الا بموافقة امبراطورية خاصة (٢٣٧) . والزم قانون ٩٥ لسنة ٥٣٩ اصحاب المناصب الادارية الكبيرة البقاء في مناطقهم الادارية لمدة خمسين يوما حينما يعفون من وظائفهم سواء كانوا مدنيين ام عسكريين وعلى هؤلاء أن يظهروا انفسهم للجمهور لاثبات نزاهتهم . (٢٣٨) .

وقد حرص جستنيان ان على زيادة اعضاء مجالس الشيوخ في الولايات البيزنطية لان هؤلاء يقومون بادوار ادارية في المدن ويساعدون على حل المشاكل بالاضافة الى انهم ينتمون الى طبقات عليا مثرية من الارستقراطية الزراعية بصورة خاصة . وان ربح الملاكهم المخصصة للدولة تكون موردا كبيرا . ان الاسباب التي دعت جستنيان لاصدار القانون المرقم XXX V111 لسنة ٥٣٥ احتياجه لمزيد من الاموال ، لان عضوية الشيوخ في الولايات اصبحت تتناقص تدريجيا لعدم رغبة الارستقراطية في الاستمرار في دفع حصة الدولة من ممتلكاتهم . ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا الى تصفية ممتلكاتهم بطريقة الاحتيال على القانون ليتجنبوا واجباتهم . وعمدوا ايضا الى عدم اعلان زواجهم باللجوء الى زيجات سرية غير شرعية كل ذلك لاجل اخفاء ثروات ابنائهم عن الحكومة (٢٣٩) . وقد امر جستنيان باتخاذ اقسى العقوبات في حق هؤلاء . كما اصدر تشريعا خاصا يعالج فيه كيفية انتقال الاملاك الى الابناء غير الشرعيين سنة ٥٣٥ واتخذ اجراءات من شأنها الحد من تعاظم الملكيات الكبيرة وتذرع بعدة وسائل لمصادرة بعضها واعادة توزيع البعض الاخر تأمينا لاستمرار مالية الدولة . وبالرغم من تحسسه بثقل الضرائب والتعسف في جبايتها فان مشاريعه الحربية والعمرانية تطلبت الاموال الغزيرة وكانت مراسيمه في هذا الشأن مشيرة الى ان على الجباة ان يكون امناء وعلى دافعي الضرائب الايفاء ما في ذممهم كاملا ٢٤٠

236) Ibid., 147.
237) Ibid., 148.
238) Ibid., 148.
239) Ibid., 111.
240) Vasiliev, op. cit., 159.

ان قانون جستنيان المرقم ١٢٢ لسنة ٥٤٤ صدر ارضاء لاصحاب المعامل والسفن التجارية لان الرسوم التي يدفعونها للحكومة كونت موردا هاما للدولة وكان ذلك المرسوم موجها ضد العمال . اذا جاء فيه على هؤلاء الامتناع عن المطالبة بزيادة الاجور او حتى قبول الزيادة . ومن يخالف ذلك عليه ان يدفع للخزينة ثلاثة امثال المبلغ الذي استلمه . ويقول المؤرخ بروكوبيوس ان جستنيان لم يتحرج عن اية وسيلة للحصول على الاموال . وقدم لنا مثلا طريفا في كتابه السري وهو ان رجلا ثريا اسمه ماكسمليان اوصى بثروته الى ابنته وامها . وكانت الام قد ورثت عن ابيها ثروة طائلة قبلا . فحدث ان توفيت الفتاة . ولهذا فان ثروتها من ناحية قانونية ترجع الى امها . غير ان جستنيان وضع يده على ثروتها مبررا عمله (ان هذه المراة العجوز لم يكن من الجائز لها دينيا ان تكون متخمة بثروة ابيها وزوجها معا)(٢٤١)

٢ ـــ المشاكل العائلية والخلقية :

اهتم جستنيان بمعالجة الشؤون العائلية والمحافظة على الاخلاق العامة. فقانون رقم ٢٢ لسنة ٥٣٦ وجه للمتزوجين للمرة الثانية من الرجال والنساء، اذ جاء في مقدمته (٢٤٢) .

لم يكن القدماء يهتمون كثيرا في ذلك الموضوع . اذ سمحوا للاباء والامهات بالزواج عدة مرات بلا غضاضة . غير ان الموضوع اخذ يثير الانتباه منذ عهد ثيودوسيوس الاول . لهذا فاننا اصدرنا عدة قوانين لمعالجة الامر . مقررين اصلاح قوانين الاباطرة السابقين . وهكذا فنحن لا نخجل حتى من تعديل القوانين التي اصدرناها فيما اذا اكتشفنا فيما بعد حلا افضلا .

واهم ما جاء في ذلك القانون ا ـــ التمسك بما جاء في الالواح الاثني عشر حول الطريقة التي يوزع بها صاحب الوصية املاكه . فالقانون يحترم الوصية مهما كانت الطريقة التي اتبعها الموصى في توزيع املاكه ب ـــ الزواج رباط بين المراة والرجل اكان ذلك مصحوبا باستقرار الزوج في محل ما او عدمه . ج ـــ يجوز الطلاق في الحالات التالية : اذا كان احد الزوجين عقيما او وقع في الاسر لمدة خمس سنوات او اذا ثبت لاحد الزوجين بان الاخر لم يكن حرا . ويمكن طلاق المراة فيما لو عاشرت خليلا او سهرت

241) Procopius, Anecdot, XXIX, 17-25, Dewing, Vol. VI, 339.
242-243) Ure, op. cit., 155.

ليلة كاملة خارج منزلها بدون رضاء زوجها او حضرت حفلات السباق أو الملاهي أو تامرت على حياة زوجها او اصابته بأذى .

وعالج قانون ٤٤ لسنة ٥٣٧ وصية القاصرين . فاشار بان القضـــاء لا يتسامح في تولي القاصر مسؤولية التوصية بامواله . (٢٤٣) .

واشار قانون ١٣٤ لسنة ٥٥٦ الى عدة نقاط عائلية منها : منع رهـن الاولاد لقاء الديون . وان ثبت ذلك فعلى الدائن ان يدفع للمدين او لولده ضعف المبلغ الذي يدعيه . كما لا يجوز ايداع المراة السجن من جراء الديون وفي حالة ارتكابها جريمة مدنية فتسجن في احد الاديرة لا في السجون الاعتيادية ان الطلاق الذي يحدث خلافا للقانون ولو باتفاق الطرفين يزج بالـــزوج والزوجة في الاديرة وتوزع اموالهم على تلك المؤسسات . اما الموظفـون الذين يشرفون على الطلاق فيجردون من مناصبهم ويطبق الجلد في حقهم . وان عدل الزوجان عن الطلاق فلا عقوبة هناك (٢٤٤) .

وبحث قانون ٨٩ لسنة ٥٣٩ في موضوع الاهتمام بالاطفال غير الشرعيين وهدف الى مساواتهم مع الشرعيين . على اعتبار (ان الاطفال جميعا في الاصل احرارا واننا باعادتنا هؤلاء الاطفال الى الحالة الطبيعية فانما تستند على القانون الطبيعي) . ويمكن اعادة اعتبار الطفل بتسجيله في الكـادر البلدي للمدينة ان كان ذكرا وبتزويج الانثى من احد اعضاء ذلك الكادر . وبذلك يصبح لهما حق الوراثة غير ان الاولاد الشرعيين هم المفضلـون في المعاملة . ولا يحق للذين اعيد اليهم الاعتبار المطالبة بوراثة اقارب والدهـم كما لا يجوز لاقارب الوالد الادعاء بوراثة من اعيد اليهم الاعتبار (٢٤٥) .

اما قانون ١٠٩ لسنة ٥٤١ فقد حرم فيه النساء اللواتي يتبعن الفـــرق الهرطقية من التمتع بامتيازات الزوجات المسيحيات (٢٤٦)

حاول جستنيان وضع حد للتصرفات الخلقية الشاذة . اذ امر بتعذيب المتعاطين بالدعارة وتطبيق اقسى العقوبات بحقهم . ان الزانيات يرسلن الى الاديرة ليقضين بقية اعمارهن هناك . وشرع قانونا ضد اللصوصية ميز فيه بين اللصوص المسلحين والعزل فبالنسبة للفئة الاولى اشار جستنيـان

243) Ure, op. cit., 155.
244) Ibid., 159.
245) Ibid., 156.
246) Ibid, 158.

(باننا نكره اطلاقا ان يحرم المجرم من احد اعضائه أو يحكم عليه بالموت ـ دعه يكفر عن ذنوبه بطريقة اخرى) . اما اللصوص الذين ينتهكون حرمة الدور او يقطعون الطرق في البر والبحر فيطبق عليهم العقاب الذي نصت عليه القوانين .

وهناك مرسوم شرع لبلاد الرافدين برقم ١٣٤ لسنة ٥٥٦ جاء فيه (٢٤٧) سمعنا اخبارا فوق العادة بان سكان الرافدين جرأوا على القيام بزيجات غير شرعية من الصعب علينا تصديقها . ولكن نظرا لما تعرضت اليه تلك المناطق من غارات ونظرا للطبيعة الريفية الغالبة على السكان فليس من المستحيل ان يحدث ذلك اننا نمنع التحقيق في الحوادث المرتكبة قبل صدور هذا القانون . الا انه اي شخص يقدم على ذلك النوع من الزواج بعد هذا القانون يعاقب بتجريده من ممتلكاته وبتر بعض اعضائه ، وقد يحكم عليه بالاعدام مهما كانت منزلته . وان اي موظف يتماهل في تطبيق القانون يعرض نفسه لاشد العقاب بما في ذلك تجريده من منصبه وثروته .

ومنع قانون ٥١ لسنة ٥٣٧ اصحاب الملاهي من اجبار النساء على تأدية اليمين لمواصلة الاشتغال في المسارح . وعلى الراقصات المكرهات على تأدية اليمين انيتبن الى اللهبتحررهن من القسم . ان اصحاب الملاهي الذين يمارسو ن ذلك يعرضون انفسهم للغرامة التي تسلم الى المراة التي اكرهت على مزاولة المهنة لتعيل بها نفسها في حياتها الصالحة كما تشدد جستنيان ضد ارتكاب الاعمال الجنسية الشاذة بمرسوم ١٤١ لسنة ٥٥٩ اذ منع مزاولة الشذوذ الجنسي وعلى الشاذين تقديم التوبة الى رئيس اساقفة القسطنطينية ومن لا يفعل ذلك يعرض نفسه لاقسى العقوبات (٢٤٨)

السياسة الدينية :

يفهم من مراسيم جستنيان الدينية انه حاول اول الامر تحقيق الوحدة الدينية حسب المذهب الارثودوكسي كما اقرته المجالس العالمية الدينية ، الا انه اخذ يتأرجح بين الارثوذوكسية والمونوفستية ردحا من الزمن ومن ثم اتبع سياسة مونوفستية قبيل وفاته .

247) Ibid., 159.
248) Ibid., 162.

لقد تساهل جستنيان مع المونوفستية حتى سنة ٥٣٦ وذلك لمحاولة استمالة الجهات الشرقية من الامبراطورية وكذلك لتاثيرات زوجته ثيودورا (٢٤٩) . ويتوضح ذلك في دعوته لعدد من رهبان المونوفستية الى القسطنطينية للتباحث في الامور الدينية من اجل تسوية الخلاف سنة ٥٣١ . واسكن في احد القصور الامبراطورية ما يقارب الخمسمائة راهب مونوفستي . كما اسند سنة ٥٣٥ منصب رئاسة الاسقفية في العاصمة الى انثيموس Anthimus الذي اشتهر منذ تاريخه المبكر في العطف على المونوفستيين . وقد بعث برسالة الى سفروس Severus رائد المونوفستية ورئيس اساقفة الاسكندرية يعلن فيها اعتناقه المونوفستية ٢٥٠ . واثار ذلك العمل البابا اكاباتوس Agapatus الذي جاء الى القسطنطينية وتمكن من اقناع جستنيان باقالة انتيموس سنة ٥٣٦ وعليه اصدر الامبراطور المرسوم المرقم XLII الذي وجه ضد كافة الفرق غير الارثودكسية ، وجاء فيه : (٢٥١)

تتدخل السلطة لارجاع الاوضاع الى حالتها الطبيعية عندما يتولى اناس غير لائقين المناصب الدينية . مثال اريوس ومن هم على شاكلته ، من اجل المحافظة على الانسجام بين الامور الدينية والدينوية . فان تدخلنا في تلك الامور لم يكن مخالفا للتقاليد المتبعة في هذا المضمار ...

لقد صادقنا على القرار الذي اتخذه المجلس الروحاني بعزل انثيموس واعتباره خارجا عن الدين ، واننا نمنع اقتناء كتبه وكتب نسطور واخراجها من البيوت وحرقها وسوف يعاقب ببتر الكف كل من يقوم باستنساخ كتبهم .

استهدف جستنيان من ذلك المرسوم احلال السلام في الامبراطورية اذ اعتقد بان الامبراطورية لا يمكنها الازدهار بدون السلام بين المسيحيين . واراد ايضا مرضاة كنيسة روما لاستمرارها في دعم مشاريعه العسكرية ضد القوط الشرقيين في ايطاليا (٢٥٢) . غير ان المرسوم السابق لم يحقق لجستنيان ما كان يصبو اليه . فقد عارضه المونوفستيون بشكل عنيف في الجهات الشرقية وحاول نتيجة لتاثيرات زوجته استرضاء المونوفستيين فاصدر مرسوما في ثلاثة فصول سنة ٥٤٣ يشار له بالفصول

249) Vasiliev, op. cit., 151.
250) Ibid., 151.
251) Ure, op. cit., 125
252) Ostrogorsky, op. cit., 71

الثلاثة Three Chapters موجها ضد ثلاثة من رجال الكنيسة النسطورية الذين عاشوا في القـــرن الخامس وهـــم ثيودور اوف مـــوبسوستيا Theodore of Mopsuestia وثيودوريت اوف كيروس وإباس اوف أديســـا Ibas of Idessa وجميع هؤلاءمن اعداء المونوفستيه (٢٥٣) . وقد اثار هذا المرسوم النساطره لهجومه السافر على معتقدهم . والتزم المونوفستيون بموافقتهم السلبية لانهم رأوا فيه اضافـــة الى قرارات مؤتمر خلقدونيا . كما اثار كنيسة روما لانها اعتبرته خرقا لقرارات مؤتمر خلقدونيا . لان ذلـــك المؤتمر لم يشجب اراء هؤلاء العلماء بالاضافة الى وجو باحترام ارواح الموتى ولخوف كنيسة روما من ان يكون المرسوم سابقة لتغيير مقررات مؤتمر نيقيا . لهذا فقد أستحضر جستنيان البابا فيجلوس Vigilus الـــى القسطنطية سنة ٥٤٧ ليساعده في حل المشكلة وقد اعلن هذا في اول الامـــر عدم موافقته على المرسوم واصدر عقوبة التحريم ضد بطريق القسطنطينية مناس Menas فاضطر جستنيان الى عقد مؤتمر ديني عالمي في عاصمته سنة ٥٥٣ وقد وافق المؤتمر على ما جاء في الفصول الثلاثة . امـــا البابا فيجلوس فقد حاول تجنب اجتماعات المؤتمر واخيرا امر الامبراطور بنفيـــه الى احدى جزر بحر مرمرة ثم اكرهه على الموافقة فاطلق سراحه غير انه توفي في قبرص اثناء طريقه الى روما (٢٥٤) هذا واخذ جستنيان يتجـــه تدريجيا نحو المونوفستيه (٢٥٥) على اثر انتصاراته على القوط الشرقيين وكذلك لاحتياجه الى مرضاة المرنوفستين في الأجزاء الشرقية التي باتت مهددة بالخطر الفارســـي .

وبالاضافة الى اهتمام جستنيان في امور العقيدة فانه حاول ايضا تنظيـــم المسلك الكهنوتي والاديرة والاملاك الكنسية . منطلقا من الاعتقاد بأن الرئيس الروحاني والسياسي الاعلى هو بابا وقيصر في الوقت ذاته ويمكن ملاحظـــة ذلك من مراسيمه في هذا الشأن . واهمها مرسوم ٨٣ لسنة ٥٣٩ (٢٥٥) والذي منع فيه التأثير في سير الانتخابات للمراكز الدينية وخاصة عن طريق الرشوة . ومنع فيه اشتغال رجال الدين بوظائف الدولة المالية وعـــدم

253) Baynes and Moss, op. cit.. 101
254) Vasiliev, op. cit., 153
255) Beynes and Moss, op. cit., 101-102.

استدعاء الاساقفة كشهود في المحاكم . وامر القضاة بأن يطلبوا من رجال الدين وهم في اماكنهم تقديم الدلائل حول حادثة من الحوادث . ولا يجوز للاساقفة مغادرة اماكنهم الا بعد موافقة رئيس الاساقفة والامبراطور . وعلى رجال الدين الامتناع عن المساهمة في الالعاب وارتياد الملاهي ولا يجوز اجبار الاساقفة على طرد اي موظف من موظفيهم كما لا يحق للاساقفة حرمان اي فرد من المساهمة في الطقوس الكنسية العامة . ويجب الا يقل عمر القس عن خمس وثلاثين سنة والشماس Deacon عن خمس وعشرين والقارىء عن ثمان عشرة سنة . وان تولت امرأة مركز الشماس فيجب ان تكون غير متزوجة والا يقل عمرها عن الاربعين . ولا يقبل اي مرشح للمسلك الكهنوتي ما لم يكن متزوجا الا اذا تعهد بأنه سوف يعيش عيشة طاهرة بلا زوجة . ان القس الذي لم يكن متزوجا سابقا ثم تزوج بعد دخوله السلك الكهنوتي فيطرد حالا . وان الذي يشرف على عقد زواج من هذا النوع يجرد من منصبه .

اما محاكمات رجال الدين من غير الرهبان فقد نظمها قانون ٧٩ لسنة ٥٣٩ (٢٥٦) اذ تجرى محاكمة هؤلاء عن طريق اساقفتهم وبموجب قوانين الامبراطورية والشريعة الدينية ، وان القضاة الذين يخالفون ذلك تفرض عليهم غرامة بمقدار عشر باونات ذهبا ويجردون من مناصبهم .

وحدد قانون ١٣١ لسنة ٥٤٥ (٢٥٧) املاك الكنيسة بصورة خاصة وكذلك التبعات المترتبة على التملك حيث امر بأعفاء الاملاك الدينية من الضرائب مقابل قيام رجال الدين بصيانة الطرق والجسور التي تمر في ممتلكاتهم اسوة بما يعمله الملاكون . ان الاملاك الموهوبة التي لم تشر الى اسم القديس الموهوبة له ، او الكنيسة التي أوقفت عليها تكون تابعة الى أفقر الكنائس . ولا يجوز للاساقفة ان يعهدوا الى أقرابهم الاملاك المنقولة والغير المنقولة التي حصلوا عليها عن طريق الوصايا او الهبات ويجب أن تخصص تلك الاملاك لافتداء الاسرى ومساعدة الفقراء ولصيانة دور العبادة ولا يحق للهراطقة اكتساب الاملاك الدينية ومن يفعل ذلك تصادر املاكه وتسلم الى الكنيسة ، وان المسؤول الذي جرت على يده المعاملة

256) Ibid, 152.
257) Ibid, 152

يجرد من منصبه ويسجن في أحد الاديرة ويحرم من المشاركة في الطقـــوس الدينيـــة لمـــدة سنـــة .

حاول جستنيان ايضا اصلاح الاديرة بقانون ١٣٣ ـــ لسنة ٥٣٩ (٢٥٨) والذي جـــــاء فيـــــه :

لا يجوز لرجل ان يدخل ديرا لمقابلة راهبة . أكان ذلك بقصد زيارة قبر من القبور في نطاق الدير او لزيارة اخ او اخت او أي أقارب في الديـــر لان الرهبان الذين نذروا انفسهم الى الله ليس لهم أقارب في هذه الارض . أن الرهبان الذين يرتادون الحانات يسلمون حالا الى السلطات المدنية . وان وجد راهب متلبسا بذلك الجرم فتقدم السلطات المدنية تقريرا عنه الى رئيس مؤسسته الديرية ويمكن لرئيسه طرده من الدير جزاء تضحيته بالحياة الروحانية من أجل عار الدنيـــا .

كان جستنيان عنيفا ضد الهراطقة والهيود والوثنيين . اذ عالج موضـــوع الهراطقة في المرسوم المرقم ١١ × × × لسنة ٥٥٤ الذي جاء فيه : (٢٥٩)

نعتقد بان الدين المسيحي اعظم منه من الله على الناس انه دين الحق ، جاء ليعم العالم وليربط رجال الدين برباط الوحدة وليجهروا بصوت واحـــد بالمعتقد المسيحي القويم . لقد توضحت سياستنا الدينية بتصريحات ومراسيم في مـ ناسبات مختلفة . غير ان الهراطقة لم يخشوا الله ولم يفكروا بمغبة القانون . اذ اعماهم الشيطان فاستمروا في غيهم يضللون البسطاء ويعقدون الاجتماعات السريـــة .

لقد توخينا في مرسومنا هذا قطع دابر هؤلاء لكي يعرضوا عن اباطيلهم . . ان صدرنا سوف لا يتسع لاجتماعات هؤلاء وسوف تصادر دور عبادتهم السرية وتوهب الى الكنائس وسوف تطبق في حقهم ما نصت عليه قوانيننا . .

وأتبع جستنيان سياسة اضطهادة ضد اليهود في قانونه ١٧١ × C (٢٦٠) حيث اتهمهم بالانحراف عن معتقداتهم ، لعدم تصديقهم النبؤات عـــن المسيح حسبما جاء بها العهد القديم . وقد انذر اليهود الذين ينكرون قيام المسيح من القبر بالطرد من البـــلاد .

---

258) Ibid, 154
259) Ibid, 123
260) Ibid, 130

اما بالنسبة للوثنيين فقد امر الامبراطور باغلاق جامعة اثينا مركز الافلاطونية الحديثة سنة ٥٢٩ وامر بتنصير كافة الوثنيين في اسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ومن يرفض ذلك فيحكم عليه بالاعدام . كما اهتم جستنيان بنشر المسيحية عن طريق المبشرين في جهات البلقان والعراق والسودان .

النهضة الفنية والمشاريع العمرانية :

يعتبر عصر جستنيان عصر الفن الذهبي في الامبراطورية البيزنطية الذي تميز بامتزاج الاتجاهات الهلنستية والمسيحية والتأثيرات الشرقية . وهدف الفن البيزنطي الى تمجيد سلطة الامبراطور والكنيسة ولم يكن استعمال الفن من اجل الدعاية من مبتكرات عصر جستنيان وانما هو معروف لدى الرومان قبلا . ومن امثلة ذلك اعمدة تراجان في روما وكذلك قوس النصر لقسطنطين ويمكن ان يلحظ ذلك حتى من الرسوم على قطع العملة ومن المداليات العسكرية (٢٦١) . وقد عمدت الكنيسة ايضا الى استبدال رمزيتها الاولى بفن واقعي مستمدة موضوعاته مما جاء في الكتاب المقدس من روايات .وكانت غايتهامنذلك تثقيف المشاهدينديينا بواسطة الفنون (٢٦٢)

ان استعمال الفن لاظهار سطوة الحكم ولتوضيح التعاليم الدينية بلغ شأوا بعيدا في المنشآت الدينية والدنيوية التي اشادها جستنيان في القسطنطينية وانطاكية وسيناء ورافينا (٢٦٣) . ومن ابرز الامثلة الموضحة للفن البيزنطي في عهد جستنان كنيسة القديسة صوفيا ٥٣٧ (٢٦٤) . والتي استغرق بناؤها خمس سنوات ، واشرف على تصميمها المهندسان انثموس اوف ترالرز Anthemius of Trallers وايزودور اوف ميلتوس Isodore of Miletus وكلاهما من اسيا الصغرى (٢٦٥) واشتهرت الكنيسة بقبتها الرئيسية والتي يقال عنها كانها معلقة بسلسلة ذهبية في السماء (٢٦٦) وقد تأثرت هذه بهزة ارضية سنة ٥٥٧ فامر جستنيان باعادة بنائها واسند الامر الى المهندس ايزودور ولم يكن هذا نفس المهندس السابق فان كلا من الاخير وانثميوس توفيا قبل سنة ٥٥٧ وبالرغم من ان القبة التي اعيد بناؤها لم ترتق الى المستوى الفني للقبة السابقة الا انها شيدت على اسس اكثر

---

261) Hussey, op. cit., 157
262) Ibid, 152-158
263) Procopius, buildings, in Dewing, op. cit
264) Rice, op. cit., 55
265) Baynes and Moss, op. cit., 166
266) Ibid, 167

شباتـــا . (٢٦٧) .

وتعتبر كنيسة القديسة صوفيا من اروع ايات الفن البيزنطي لما امتـــازت به من هندسة مبتكرة ولما حوته على المشاهد الملونة والاعمال الموازييكية الدقيقة (٢٦٨) وكذلك كنيسة القديسة ايرين التي امر جستنيان بـــاعادة بنائها على اثر حريق اصابها ومن الكنائس الشهيرة كنيسة رافينا في ايطاليـــا التي دونت زخارفها الداخلية عظمة الامبراطور جستنيان .

ان المشاريع العمرانية لجستنيان تناولت ايضا الابنية الدنيوية كاعادة بناء الاسوار والحمامات ومخازن المياه في القسطنطينية وانطاكيا وفي مدن اعالي الفرات ومصر والبلاد الليبية وقد أولى القطر الاخير عناية خاصة لما حل بـــه من دمار نتيجة للحروب الوندالية والثورات التي استمرت حتى سنـــة ٥٤٨ فاعاد بناء اسوار برنتشي Brenetica (بنغازي) وانشأ فيها حماما عاما وكذلك اعاد اسوار توكرا واشاد خمس كنائس في لبده وعمر قصـــر الامبراطور سفيروس Severus المتوفي عام ٢١١ وامر ببناء كنيسة فيصبراتا (٢٦٩) . كما تناولت مشاريعه العمرانية الكثير من مدن البلقـــان وامـــر بانشاء دير القديسة كاترين في سيناء (٢٧٠).

الحركة الفكرية في عصر جستنيان :

يمتاز هذا العصر بالازدهار الفكري في شتى مجالاته وخاصة في القانون والتاريخ والشعر . اذ اشتهر في المجال الاول تربيونيان وجون الليـــدي John the Lydian والفقهاء الاخرون الذين سبقت الاشارة اليهم . ومن اشهر مؤرخـــي العصـــر هم :

١ — بروكوبيوس : وهو المؤرخ الاول في عصر جستنيان . وكونت الاخبار التي دونها منذ بداية حكم جستنيان حتى سنة ٥٢٢ المادة الاســـاسيـــة لدراسة ذلك العصر . اذ تناول حروب جستنيان ومحاولاته الرامية لاعـــادة مجد الامبراطورية الرومانية . كما وصف المشاريع العمرانية التي امـــر بها جستنيان ويستشف من كتاباته مقدار التقدم في الفن المعماري ونوعيته انذاك واظهر المؤرخ مهارة فائقة في صياغة الاسلوب واعطاء فكرة واضحة عـــن

---

267) Ure, op. cit., 255
268) Rice, op. cit., 56-57
269) Ure, op. cit., 240-241
270) Ibid, 239

الاشخاص الذين يتناولهم قلمه . واعتمد في تدوين اخباره على مشاهداته الخاصة وعلى الاخبار التي ينقلها الراوون بعد غربلتها . وقدم لنا وصفا دقيقا لجستنيان وقادته كما تكلم بالتفصيل عن حروبه في افريقيا وايطاليا ، حيث كان بروكوبيوس مستشارا رسميا للقائد بليساريوس . ويحدثنا عن نفسه فيقول بانه اختير للمستشارية عند اندلاع الحرب بين الفرس والبيزنطيين - ثم رافق بليساريوس الى صقلية حيث جمع له الاخبار كما قدمنا . ثم عبر مع الحملة الى افريقيا ووصف فتح قرطاجة واستسلام كيلمر . كما حدثنا عن هروبه سنة ٥٣٦ الى سيراكيوز نتيجة لتمرد احدى الفرق العسكرية في ليبيا . وكان في سنة ٥١٨ في روما عند حصار القوط لها . ومنها ارسل بمهمة من قبل بليساريوس الى نابلي . وقدم لنا وصفا عن موجة الطاعون التي اجتاحت القسطنطينية سنة ٥٤٣ (٢٧١) . ومنذ ذلك التاريخ لم يعد المؤرخ مستشارا الى بليساريوس حيث فقد مركزه المرموق عند جستنيان . اما كتبه الشهيرة فهي « الحروب » وعمارات جستنيان والتاريخ السري ويخبرنا في كتابه الاول بان الرومان في ايطاليا لم يكونوا متحمسين للانتصارات التي حققها جستنيان . اذ لاقى الرومانيون الامرين من اهوال تلك الحروب . فبالاضافة للدمار والمجاعة وانتشار الوباء فأن توتيلا قد جمع ثلمائة من اجمل شباب روما واحتفظ بهم رهائن واخذهم مع جيشه عند انسحابه منها لملاقات نارسيس وعندما تولي تياس القيادة بعد مقتل توتيلا امر بذبح هؤلاء الرهائن جميعا (٢٧٢) .

اما في كتابه الثاني الذي طبع في ستة اجزاء فوصف في الجزء الاول الكنائس والمستشفيات والقصور وصهاريج المياه والاسوار التي انشأها جستنيان واعاد بنائها . وفي الثاني تناول الابنية في الاجزاء الشرقية والاماكن التي دمرتها الحرب الفارسية البيزنطية وبحث في الثالث المشاريع العمرانية في أرمينيا والقفقاس . وتكلم في الجزء الرابع عن عمارات البلقان وفي الخامس تناول اسيا الصغرى . اما الجزء الاخير فكان عن مصر والبلاد الليبية .

ان كتابة التاريخ السري الذي نشر بعد وفاته عبارة عن نقد عنيف للشخصيات

---

(271) Procopius, Wars II, XXII - XXIII
(272) Ibid, XXXIV, 1-8.

البارزة في عهده — وقسم الكتاب الى بابين تناول في الاول الحماقات التي ارتكبها بليساريوس وزوجته . وخصص الثاني لاسفاف جستنيان وتيودورا . وانهم جستنيان يتقلب الاهـــواء والميل نحو الشر ، (فما تكلم جستنيان بصراحة قط ، متحفظا قولا وفعلا ، لا وفاء له ، ولا حدود لعدواته ، محبا للدماء شرها في جمع الاموال ، سهل الانزلاق في الرذائل ولا تسمو بـــه النصيحة الى الفضائل . سريع الابتكار والتنفيذ لكل امر مبتسر . كأن الطبيعة وهبته مثالب البشر اجمعين ٢٧٣) . ثم يقول في مكان اخر في معرض مقارنة جستنيان مع خسرو (ان خسرو من الاشرار المستبدين غير ان امبراطورنا هيأ له كافة اسباب الحرب ولم يكن في مستوى الاحداث ، ففي اوقات الهدنة والسلام يضيق الخناق على عدوه حتى يضطره للحرب ، وفي اوقات الحرب يهمل الامور بلا سبب . وبدلا من اشغال نفسه بامـــر الساعة تراه يتأمل في اشياء سماوية ويكشف عن حب استطلاع قـــوى لطبيعة الله لا يترك الحرب لانه طاغية متعطش للدماء ولا يتمكن من الانتصار لانه عديم المقدرة على اتخاذ الخطوات الضرورية ٢٧٤ .

وجه بروكو بيوس نقدا عنيفا في كتابه السري ايضا لسياسة جستنيان تجاه البرابرة . وراى فيها اسرافا وتبذيرا لثروة الرومان اذ يقول (قدم لكل من هب ودب الاموال الطائلة اكانوا برابرة الغرب ام الشرق ام الشمال ام الجنوب ، حتى لاؤلئك الساكنين في بريطانيا والى الذين لم نسمع بهم من قبل . لان هؤلاء البرابرة علموا بطريقة الرجل فتوافدوا عليه في بيزنطه من كل فج عميـــق . ولم يكن ليتردد في بعثرة ثروة الرومان على تلــك المخلوقات بكل سرور .. وبهذه الطريقة اصبح البرابرة اسياد الثـــروة الرومانية) ٢٧٥ .

اما عن علاقة جستنيان بثيودورا فيقول (كلاهما يبدوان لي والى الناس بانهما ليسا من البشر اطلاقا . انهما من انواع الجان ، فان ضمهما مجلس للتداول في الرأي دمرا البشرية ... ٢٧٦ وبالرغم من تحامل بروكو بيوس على الطبقة الحاكمة باجمعها تقريبا في كتابه السري فان الاخبار التي جاءت

---

273) Procopius, The Secret History, VIII,12, 22-27
274) Ibid, XVIII
275) Ibid, XIX. 13-16
276) Ibid, XII, 14-16

في ذلك الكتاب لها اهمية تاريخية كبرى لما يعكسه من واقع السياسة البيزنطية .

٢ ــ اكاتياس Agathias لقد دون هذا المؤرخ الحوادث التي وقف عندها بروكو بيوس فشمل تاريخه الفترة الكائنة بين ٥٥٢ ــ ٥٥٨ وتقع كثية الخمسة في ثلاثة ابواب تناول فيها الحوادث في ايطاليا وهجمات الفرنجة عليها وكذلك الحروب الفارسية البيزنطية في جنوب القفقاس ، وحوادث العاصمة والبلقان وهجمات القبائل الاسيوية .

ويقول اكاتياس بان المؤرخ الحقيقي لا يكتفي بجمع الاخبار فقط بل عليه دراسة الاساليب التاريخية للاسلاف العظام . هذا ويعتبر هذا المؤرخ كاديب اكثر منه كمؤرخ . حيث قرض الشعر وتناقلته لالسن وقال عن التاريخ والشعر بانهما صنوان لا يفترقان ٢٧٧ .

٣ ــ مننادر بروتكتور Menander Protector

اكمل هذا المؤرخ العمل الذي بداه اكاتياس حيث دون التاريخ منذ سنة ٥٥٨ الى سنة ٥٨٥ . ان اهميته التاريخية هي دون مستوى المؤرخين السابقين . وان ما وصلنا من تاريخه شذرات متفرقة . وبدأ يدون التاريخ عند اعتلاء موريس العرش اي بعد سبع عشرة سنة من وفاة جستنيان . غير انه من المؤكد قد ولد في عهد جستنيان وان والده من موظفي العاصمة . لذا فكان المؤرخ في مركز يمكنه من استقاء الاخبار عن سنوات جستنيان الاخيرة . وأرخ بشيء من التفصيل المفاوضات بين الجانبين البيزنطي والفارسي من اجل صلح سنة ٥٦٢ . ٢٦٦

هذا وقد ظهر في اواسط القرن السادس كتاب يبحث في الجغرافية الكونية Cosmography الفه ملاح المحيط الهندي كوسماس انديكوبلوستس Cosmas Indicopleustes واحتوى الكتاب على معلومات قيمة عن البحر الاحمر والمحيط الهندي وعن العلاقات التجارية مع كل من الهند والصين ٢٧٩ .

ولد هذا الجغرافي في الاسكندرية على الارجح . وكان نسطوري المذهب واصبح راهبا في اواخر حياته . اراد في كتابه ان يبرهن

277) Vasiliev, op. cit., 181
278) Ure, op. cit., 188
279) Vasiliev, op. cit. 183

للمسيحين بان الارض ليست مدورة بل انها مستطيلة كتابوت موسى - وعلى كل فانه يفرق في كتابه بين الاوصاف الجغرافية التي شاهدها وبين الاخبار التي سمعها . وقد وصف بلاط ملك الحبشة وسواحل البحر الاحمر وكذلك جزيرة سيلان . وكانت هذه الجزيرة المركز التجاري العالمي بين الصين وافريقيا وفارس ٢٨٠ .

كما ازدهر الشعر في هذا العصر ايضا ، ولعل ابرز شعراء الفترة هوكوريبوس اذ ان ملحمته الشعرية Johnnids تكون مصدرا ادبيا وتاريخيا في ان واحد . حيث دون فيها الاوضاع العامة في ليبيا منذ سنة ٥٤٤ حتى نهاية عصر جستنيان تقريبا . روى فيها شعرا سياسة الحاكم البيزنطي جون تروكليتا John Troglita الذي اوفده جستنيان الى ليبيا ليعمل على استقرار الاوضاع فيها ويفهم الملحمة الشعرية ان جستنيان زود ذلك الحاكم بنصائح منها (اعمل على تطمين الخائفين واسحق المتمردين وتمسك بالقوانين ، وترفق بالمقهورين ، وروض المتكبرين) ٢٨١ - هذا وقدم لنا الشاعر وصفا لطريق السفر الذي اتبعه جون برفقة ابنه وما حدث لهما فيه من عوارض . وهنا نرى الشاعر يحاكي هوميروس في الياذتة اذ يمزج الواقع بالخيال ، حيث يقول !

ان احد الملائكة حاول الحيلولة دون وصول الحاكم الى ليبيا غير ان الاخير استعاذ بالله وادى الصلاة ثم اخبر ذلك الملاك بان مهمته في ليبيا هي مهمة سيده جستنيان خادم الرب . تلك المهمة التي تهدف الى قطع دابر الفتنة ونشر السلام على ربوع تلك الديار . ثم تضمنت القصيدة اخبارا هامة عن مواقف تروكليتا من ثورة الليبين بصورة عامة وعن علاقاته العدائية مع الزعيم الثوري انتالاس Antalas ٢٨٢ .

نهاية العصر الجستنياني :

ان سياسة جستنيان بصورة عامة لم يكتب لها النجاح اذ ان مشاريعه العسكرية والعمرانية تطلبت زيادة الضرائب التي اثقلت كاهل الشعوب في الامبراطورية كما انها ادت الى نفاذ الرصيد المالي . وقد برهنت الحوادث على ان فتوحاته في ايطاليا واسبانيا كانت وقتية . حيث اصبحت ايطاليا

---

280) Ibid, 184
281) Ure, op. cit., 195
282) Ibid, 196

مسرحا لغارات قبائل اللمبارد التي اخذت تنهال على تلك الجهات بغزارة بقيادة ملكهم البيون *Albiun* منذ سنة ٥٦٨ ــ ٥٨٣ اما سياسته الرامية الى توحيد الامبراطورية دينيا فادت الى اضطهادات وجهت ضد اليهــود والوثنيين . وقام اليهود بثورة عارمة في فلسطين قمعت بشدة متناهيــة . كما ادت سياسته الدينية الى زيادة الاختلاف بين كنيستي روما والقسطنطينية. هذا بالاضافة الى ان سلمه مع الفرس كان بتضحيات كبرى مادية ومعنوية وقد ظهرت نتائج سياستـــــه السلبية فيما بعـــــد معبرة عن نفسها في الاضطرابات التي انتابت الامبراطورية في فترة ٥٦٥ ــ ٦١٠ .

ان المشاكل الاساسية التي حاولت الامبراطورية التغلب عليها فــي حكم جستين الثاني ٥٦٥ ــ ٥٧٨ ــ وطيريوس ٥٧٨ ــ ٥٨٥ وموريس ٥٨٢ ــ ٦٠٢ وفوكاس ٦٠٢ ــ ٦١٠ تتلخص في الدفاع عن الامبراطورية في جبهتين . الشرقية ضد الفرس والغربية ضد القبائل الافارية **Avars** واللمباردية Lumbards والجبدية Gebids اما بالنسبة للاولى ، فان منطقة ارمينيا من المراكز الاستراتيجية والاقتصادية الهامة للبيزنطيين والفرس ٢٨٤ ، لهذا اهتم اباطرة الفترة بالاحتفاظ بتلك المنطقة العسكرية وخاصة ان ارمينيا اصبحت من المناهل الرئيسية في تجييش الجيوش البيزنطية ، بعد ان جعلت الاحداث من الصعب على البيزنطيين الاستمرار في الاعتماد على الفرق القبلية . وبدأت الحرب الفارسية سنة ٥٧٠ حيث استمرت حتى ٥٩١ . وتمكن القائد موريس قائد جيوش الامبراطور طبريوس انذاك من صد هجوم الفرس ٥٧٨ على ارمينيا واضطرهم للتقهقر الى بحيرة (وان) . كذلك انتصر على الفرس سنة ٥٨١ حينما استهدفوا الاستيلاء على ادبيا . ثم سجل انتصارا غير مباشر حينما وافته الفرص للتدخل في الحرب الاهلية فــي فارس بين خسرو والقائــد بهرام **Bahram** اذ التجــأ خسروا الى القسطنطينية طالبا مساعدة البيزنطيين . وكسب النصر على غريمه فعلا بمساعد موريس وكان ثمن المساعــــدة (تنازل خسرو عن مدينتي دارا ومارتيريولس Martyropolis وعقد صلح لثلاثين سنة عام ٥٩١) ٢٨٥

---

283) Ostrogorsky, op. cit., 72
284) Ibid, 73
285) Deanerly, op. cit., 214-215.

ان الانتصارات التي حققتها الامبرطورية في الجهة الشرقية قابلتها انتكاسات في الغرب . اذ ركزت قبائل الجبيديين نفسها في جهات الدانوب السفلي والى غربها قبائل اللمبارد بينما احتلت القبائل الافاريه المنطقة الكائنة بين الدانوب و Theiss وشجعت الامبراطورية في عهد جستين الثاني اللمبارديين والافاربيين على احتلال مناطق الجبيديين . غير ان الافاربين لم يسمحوا للمبارد الاقامة في الاراضي المحتلة ، فاضطر هؤلاء الى الهجرة الى ايطاليا سنة ٥٦٨ ، وتحالف موريس مع قبائل الفرنجة لمقاومة اللمبارد في ايطاليا فكانت هناك خمس حملات فرنجية ضد اللمبارد في فترة ٥٨٤ – ٥٩١ لم تأت بنتائج حاسمة ٢٨٦ . ومع ذلك فان السياسة التي اتبعها موريس في مقاومة النفوذ اللمباردي في ايطاليا بمساعدة مدن ايطاليا و الفرنجة حصرت نفوذ هذه القبائل في المملكة التي اقاموها في الاجزاء الايطالية الشمالية وابقت الامارات اللمباردية الاخرى في ايطاليا في علاقات عدائية مع المملكة اللمباردية . وقد حالت تلك السياسة ايضا دون وقوع كافة اطاليا تحت حيازة اللمبارد .

ويعتقد المؤرخ اوستروكورسكي أن موريس من اعاظم الاباطرة الرومانيين وان السياسة التي اتبعها كانت من الخطوات التمهيدية التي حولت الامبراطورية الرومانية البالية الى امبراطورية جديدة فعالة هي الامبراطورية البيزنطية. ان تركيز موريس على القسم الشرقي وفقدان الامبراطورية لمعظم المناطق الغربية التي اعادها جستنيان جعلته ان يولي اهتمامه للحفاظ على ما تبقى من المناطق الغربية بتنظيمات عسكرية بحثة تركزت في منطقتين هما رافينا وقرطاجة ٢٨٧ . ان هذه التنظيمات العسكرية في تلك المنطقتين عبارة عن مقدمه لتحويل ادارة الامبراطورية الى ادارة عسكرية فيما بعد ٢٨٨ .

286) Ibid, 215
287) Ostrogorsky, op. ciy., 74
288) Ibid, 75

لقد تدهورت الاوضاع الداخلية في اواخر عهد الامبراطور موريس وتمثلت في ردود الفعل ضد الاستبدادية وذلك باستعادة مجلس الشيوخ بعض صلاحياته المضاعة وتمرد الحاميات العسكرية على الحدود ، وفي الحروب الاهلية بين اتباع الفرقتين الخضراء والزرقاء . وادت هذه الحالة بحامية الدانوب ان تسلم قيادتها الى فوكاس ٦٠٢ الذي زحف على العاصمة واضطر موريس الى الفرار واعلان نفسه امبراطورا ٢٨٩ .

جابهت الامبراطورية مخاطر شديدة في بداية القرن السابع اثناء حكم فوكاس . فبالاضافة الى فقدان هيمنتها عل ىالاجزاء الغربية فقد عانست الامبراطورية من تكرر غارات قبائل الافار على جهات البلقان وباتوا يهددون العاصمة سنة ٦٠٤ ولم ينسحبوا منها الا بعد دفع فوكاس اتاوات كبيرة . كما ان الفرس نقضوا شروط الصلح وطالبوا بثأر موريس . وجابه فوكاس مشاكل اخرى ، اذ ان تسامحه مع اللمبارديين نتيجة لتوسطات اللبابوية واستجابته لسياسة روما الدينية باعدت بينه وبين رجال الدين في القسطنطينية ٢٩٠ كما ان اعتماده على سكان المدن وصغار الضباط اسفر عن نقمة الاداريين وكبار الضباط لهذا طلبت الفئات المعارضة من حاكم الجبهة الافريقية هرقل بانقاذ الامبراطورية وقاد هرقلبن الحاكم هرقل اسطولا الى القسطنطينية حيث رحب به السكان امبراطورا سنة ٦١٠ ويرى أوستروكورسكي ان نهاية حكم فوكاس هي نهاية الامبراطورية الرومانية وبداية التاريخ البيزنطي والذي يسميه ايضا تاريخ الامبراطورية اليونانية في العصر الوسيط ٢٩١ .

289) Deanesly, op. cit., 216
290) Ostrogorsky, op. cit., 75
291) Ibid, 78

اباطرة العصر الجستنياني

Justin I : 518 - 527

Justinian The Great : 527 - 565

Justin II : 565 - 578

Tiberius II : 578 - 582

Maurice : 582 - 602

Phocas : 602 - 610

الفصل الخامس

العصـــر الهرقلـــي

أباطرة الفترة • هرقـــل ومواقفه مـــن الفرس • الفتـــوحـــات العـــربية الاسلامية • السياسة الداخليـــة المشكلة الـــدينية • تنظيم الادارة الامبراطـــوريـــة • الحالة العامةفي اواخـــر العصـــر الهرقلي

تحدر هرقل المدعو باليبي من عائلة ارمينية على الاغلب ، حكم ولـــداه قسطنطين الثالث وهرقليانوس بعده مباشرة لبضعة اشهر . اذ توفـــي الاول واجبر الثاني على التنازل الى ابن اخيه قسطان الثاني . تولى بعده ابنه قسطنطين الرابع . وبوفاته انتهى سؤدد العائلة الهرقلية . ومع ان ابن الامبراطور الاخير جستنيان الملقب بالاجدع حكم مرتين ، الا ان حكمه تميز بالفوضى والوحشية وعداء الارستقراطية التي تمكنت من خلعه سنـــة ٦٩٥ وقطعت لسانه وجدعت انفه وارسلته منفيا الى شبه جزيرة القرم . ومن هناك فر الى أمبراطور الخزر وبمساعدة الاخير والقبائل البلغاريـــة استعاد العرش سنة ٧٠٥ وجرت عليه سياسته الانتقامية ثورة في سنة

٧١١ قضت عليه وعلى افراد عائلته بالاعدام . وحكم الامبراطورية اثنان من غير عائلة هرقل بين فترتي حكم جستنيان الثاني هما ليوتتيوس وطبريوس الثالث. ثم تولى بعد جستنيان الثاني ثلاثة اباطرة من اصول متفرقة ٢٩١

ـ تمكن هرقل من العرش البيزنطي باسطوله وبمساعدة ثوار القسطنطينية سنة ٦١٠ ويعتبر حكمه فاتحة لتطورات هامة في تاريخ الامبراطورية . اذ شهد العصر حربا سجالا بين الفرس والبيزنطيين انهكت الطرفين بالرغم من انتصار البيزنطيين . ومهدت لوقوع الامبراطورية الاولى تحت السيطرة العربية الاسلامية واستيلاء المسلمين على ولايات الرومان الشرقية . وتميز العصر باحداث داخلية في المجالين الديني والسياسي . ويعتبر العصر الهرقلي فاتحة للتاريخ البيزنطي في العصر الوسيط ٢٩٢ .

ـ ان المشكلة الاولى التي جابهت هرقل هي الدفاع ضد الفرس . اذ استولى هؤلاء في سنة ٦١١ على انطاكيا ودمشق في سنة ٦١٣ وعلى القدس سنة ٦١٤ واسروا رئيس البطارقة وقسما كبيرا من السكان وحملوا الى عاصمتهم المدائن الصليب المقدس . واستولوا سنة ٦١٩ على الاسكندرية مركز تموين الحبوب للامبراطورية . (٢٩٣) ان استيلاء الفرس على القدس وتدميرها من الحوادث الخطيرة في تاريخ تلك المدينة . اذ عفا على الحضارة الهلسنتية واضعف التاثيرات المسيحية ومهد فيما بعد للسيادة الاسلامية على المدينة . ويقول المؤرخ فاسيليف (ان التيارات المذهبية المسيحية المتصارعة في سورية والاراضي المقدسة ومصر من العوامل الهامة التي سهلت على الفرس فتح تلك الاجزاء) . (٢٩٤) . ان غالبية السكان في تلك المناطق لم يتبعوا المذهب الارثوذكسي الرسمي. وصادف المونوفستيون اضطهادات متعددة حتى انهم اخذوا يفضلون حكم الفرس عبدة النار على الحكم البيزنطي المسيحي . وتمكن الفرس من احتلال مواقع هامة في اسيا الصغرى واتخذوا خلقدونيا المقابلة للقسطنطينية على الجانب الاسيوي قاعدة لهم في وقت كانت فيه القبائل الافارية تواصل غاراتها على مختلف اجزاء البلقان وعلى مشارف العاصمة ، واضطر هرقل على مهادنتهم بدفع الاتاوات الكبيرة ليتفرغ لمجابهة الفرس .

---

292) Ostrogorsky, op. cit., 86
293) Valisiev op. cit., 196
294) Gibbon, op. cit., vol. IV, 53

- اتخذت دعوة هرقل لقتال الفرس طابعا صليبيا بين المسيحية وعبدة النار، معتمدا في ذلك على رئيس بطارقة القسطنطينية سرجيوس

ولهذا يعتقد البعض ان الحروب الفارسية الهرقلية مقدمة للحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحين فيما بعد . واستعان هرقل بقبائل القفقاس والخزر ضد الفرس . واصبحت تلك المناطق المتأخمة لحدود ايران ميادين قتال مرير واحرز البيزنطيون انتصارات حاسمة على الفرس في فترة ٦٢٢ – ٦٢٨ . وفتحت معركة نينوى سنة ٦٢٧ في العراق التي اندحر فيها الفرس الطريق امام البيزنطيين للزحف على بلاد فارس . وقد طلب الفرس الصلح على اثر مقتل خسرو نتيجة مؤامرة دبرها ولده الغير الشرعي وتمكن هرقل بمعاهدة سنة ٦٢٨ من أستعادة المناطق التي استولى الفرس عليها وارجاع كافة المنهوبات بما فيها الصليب المقدس (٢٩٥) .

- لقد استنزفت الحروب الفارسية – البيزنطية كما اشرنا قوى الطرفين غير ان خسارتها كانت اعظم بالنسبة للفرس مما سهلت على المسلمين ازالة تلك الدولة من الوجود فيما بعد . وهكذا مهدت حروب هرقل للقضاء على اكبر دولة منافسة للغرب عرفها التاريخ انذاك .

ان الانتصارات التي حققها هرقل ضد الفرس مكنته من التفرغ لتأديب القبائل الافارية والسلافية وزادت في هيبة الامبراطورية في الخارج فتودد اليه حكام الشرق والغرب . حيث ارسل اليه امبراطور الهند وفدا للتهنئة مع هدايا ثمينة وكذا فعل الملك الميرو فنجي داكوبير **Dagobert** الذي عقد مع هرقل معاهدة سلم وصداقة . وهكذا اصبح هرقل يلقب نفسه بالباسليوس رسميا سنة ٦٢٩ ويفيد ذلك اللقب السيادة والسلطة الاتوقراطية في اللغة اليونانية . ويشير المؤرخ بيبوري **Bury** (ان هرقل لم يحمل ذلك اللقب بصورة رسمية الا في تلك السنة ولو ان اباطرة الروم تلقبوا به بصورة غير رسمية لمدة قرون خلت) (٢٩٦) .

الفتوحات الاسلامية في العصر الهرقلي –

- لم يكد هرقل ليتفرغ من الجبهة الفارسية حتى داهمته قوة جديدة لم تكن بالحسبان قدر لها ان تعصف بكافة الانتصارات التي حققها

295) Deanesly op. cit., 219
296) Bury - the Constitution of the Later Roman Empire (Cambridge, 1910) 20

في الجبهة الشرقية تلك هي القوة الاسلامية .
وتشير بعض المصادر الى ان الرسول (ص) قد بعث برسالة الى هرقل يدعوه فيها للاسلام اثناء اقامته في حمص (٢٩٧) . بدأ المسلمون اول غاراتهم على المناطق البيزنطية سنة ٦٢٩ لنشر الدعوة وللسيطرة على طريق اليمن ـــ الحجاز ـــ سورية ذلك الطريق التجاري التاريخي الهام . وارسل النبي حملة عسكرية بقيادة زيد بن حارثة الذي استشهد في معركة مؤتة الكائنة الى الجهة الجنوبية الشرقية من البحر الميت سنة ٦٢٩ . كما قاد الرسول حملة بنفسه الى تبوك سنة ٦٣٠ وما جاورها . وسار الخليفتان ابو بكر وعمر بن الخطاب على ذلك النهج . اذ ارسل أبو بكر جيشا للاستيلاء على سورية بقيادة كل من عمرو بن العاص ويزيد بن ابي سفيان (اخو معاوية) وشر حبيل بن حسنة ، وكان معاوية حامل لواء اخيه يزيد ، ثم اصبحت القيادة العامة لابي عبيدة الجراح (٢٩٨) . وعلى كل فقد تمكن المسلمون من الانتصار على فرق بيزنطية في وادي العربة التي كانت بقيادة سرجيوس الحاكم البيزنطي في فلسطين والذي فقد حياته في المعركة التي دارت قرب غزة سنة ٦٣٤ . واستولى يزيد وعمرو على كافة اقسام فلسطين الجنوبية .
كما انتصر المسلمون في سنة ٦٣٤ على البيزنطيين في معركة اجنادين وسقطت بيدهم كل من بصرى وفحل وبيسان ودمشق سنة ٦٣٥ (٢٩٩) .
ولهذا جمع هرقل جيشا كبيرا لمقاتلة المسلمين بقيادة أخيه ثيودوروس Theodorus (٣٠٠) . واشتبك الفريقان في معركة اليرموك الحاسمة سنة ٦٣٦ والتي اسفرت عن مقتل ثيودوروس . فاضطر هرقل ان يسلم بالامر الواقع بانسحابه من سورية وتوديعها (٣٠١) . كما فتح المسلمون القدس صلحا بعد حصار دام لمدة سنة ، على يد الخليفة عمر بن الخطاب .
ودانت لهم مصر سنة ٦٤٢ على يد عمرو بن العاص . وهكذا تمكن العرب المسلمون في منتصف القرن السابع من السيطرة على سوريا والعراق وعلى قسم من من الاجزاء الجنوبية الشرقية من اسيا الصغرى وعلى مصر . وتم فتح شمال افريقيا باجمعه في نهاية القرن السابع . وواصل المسلمون

---

297) Hitti op. cit., 412
298) Ibid, 411
299) Ibid, 414
300) Ibid, 415
301) Ibid, 416

هجومهم على الامبراطورية البيزنطية بحرا فاستولوا على جزيرة قبــرص وانزلوا هزيمة بالاسطول البيزنطي الذي كان بقيادة الامبراطور قسطـــان الثاني . كما استولوا على جزيرة رودس وتوغلوا في بحرايجه وكان هدفهم القسطنطينية .

لقد طرأ توقف نسبي على الفتوحات العربية الاسلامية اثناء حــروب صفين بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان . وعند فــوز الاخير على اثر مقتل الامام علي وتنازل ابنه الحسن الى معاوية في عام الجماعة سنة ٦٦١ ، ارسل معاوية اسطوله لمحاصرة القسطنطينية . وامر باستئناف الزحف على شمال افريقيا . وبلــغ الخطر الاسلامي على العاصمة البيزنطية اقصاه في عهد الامبراطور قسطنطين الرابع . اذ فرض المسلمون الحصار على العاصمة منذ سنة ٦٧٢ حتى سنة ٦٧٧ . ولم يتمكنوا من فتحها لمناعتها ولبرودة الشتاء غير الاعتيادية ولاستبسال البيزنطيين في الدفاع وللسلاح الجديد الذي استخدمه البيزنطيون والمسمى بالنار اليونانية او السائل الملتهب وقد اخترع ذلك السلاح بيزنطي من اصــل سوري أسمه كالينيقــوس (Callinicus) (٣٠٢) . والمخترع عبارة عن مركب سريع الاتقاد يشتعل عند اصطدامه باي حاجز . واضطر الاسطول الاموي الى رفع الحصار . هــذا ولم تكن حملات المسلمين البرية موفقة ضد العاصمة ايضا ، وعليه عقــد معاوية هدنة مع الامبراطور قسطنطين الرابع . واعتبر الاخير آنذاك منقذا لاوروبا ضد الخطر الاسلامي في تلك الجهات . كما واصل العرب اندفاعهم من مصر ضد بقية المراكز البيزنطية في الشمال الافريقي . فاستولوا علــى قرطاجة وبلغوا سواحل الاطلسي . ثم زحفوا على اسبانيا سنة ٧١١ حيث قوض كل من طارق بن زياد وموسى بن نصير حكم القوط الغربيين فيها (٣٠٣)

السياسة الداخلية في العصر الهرقلي —

لقد لعبت المشكلة الدينية دورا هاما في العصر الهرقلي ، اذ حاول هرقــل على اثر انتصاره على الفرس استمالة المونوفستيين لتثبيت الحكم البيزنطي في جهات الامبراطورية الشرقية (٣٠٤) وللاستفادة منهم في مقاومة المسلمين. لهذا اصدر المرسوم الامبراطوري المسمى بتوضيح الايمان Exposition of Faith

---

302) Valisiev op. cit., 212
303) Atkinson op. cit., 43-44
304) Ostrogorsky op. cit., 97

سنة ٦٣٨ . قصد به تخفيف الفوارق بين الارثودوكسية والمونوفستية باتباع طريق وسط في تفسير شخصية المسيح . اذ اعترف المرسوم بطبيعتي المسيح الالهية والبشرية ذات الارادة الواحدة . ولم تأت هذه المحاولة بثماراتها المرجوة وذلك لتمسك كنيسة روما بوجود طبيعتين وارادتين ولاصرار المونوفستيين على غلبة المظهر الالهي على المظهر البشري . وهكذا ادت سياسة هرقل التوفيقية الى خلق مذهب جديد عرف بمذهب الارادة الواحدة Monothelatism (٣٠٥).

اما قسطان الثاني ٦٤١ — ٦٦٨ فسار في البداية حسب مرسوم الايمان الا ان استيلاء المسلمين على سورية ومصر ادى الى انفصال الكنائس العربية عن الامبراطورية ، الامر الذي حدى بالامبراطور قسطان الى اصدار مرسوم ديني يشار له بمرسوم نوع الايمان Type of Faith قصد به قطع دابر الفتن الدينية فيما تبقى من اجزاء امبراطوريته سنة ٦٤٨ . وقد منع المرسوم كافة المجادلات حول طبيعة المسيح . الا ان كنيسة روما استنكرت ذلك في عهد البابا مارتن الاول ٦٤٩ — ٦٥٤ لهذا وجه قسطان امره الى حامية رافينا بالقاء القبض على البابا وارساله الى القسطنطينية وامر بنفيه من هناك الى شبه جزيرة القرم حيث توفي فيها (٣٠٦) . وادت سياسته الى نفور الراي العام في ايطاليا وشمال افريقيا .

حاول الامبراطور قسطنطين الرابع ٦٦٨ — ٦٨٥ تسوية الموضوع مع كنيسة روما . لهذا امر بعقد مؤتمر ديني عالمي يشار له بالمؤتمر السادس في القسطنطينية سنة ٦٨٠ . اسفرت قراراته عن اعادة العلاقات مع البابوية والاعتراف بأقدمية كنيسة روما وعلى انتهاج الامبراطورية سياسة صريحة ضد المونوفستيين والمونوثليت (٣٠٧) وعارضت كنائس كل من انطاكيا والقدس والاسكندرية تلك القرارات ورأى زعماء الدين في تلك الاماكن ان الامبراطور لم يكن راغبا حقا في ايجاد تسوية معهم نظرا لعدم تبعيتهم السياسية له (٣٠٨) . اما الامبراطور جستنيان الثاني فقد اختلف مع كنيسة روما في فترة حكمه الاولى في عهد البابا سرجيوس سنة ٦٨٧ . اذ

---

305) Vasiliev, op. cit., 222
306) Ostrogorsky, op. cit., 106-107
307) Ware, op. cit., 37
308) Vasiliev, op. cit., 225

اراد الامبراطور ازالة الفوارق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فطلب من كنيسة روما الاقلاع عن الصيام ايام السبت والسماح للقساوسة بالزواج (٣٠٩) ، فلم يوفق في مسعاه واضطر في فترة حكمه الثانية الى استرضاء كنيسة روما .

اما في المجالات العسكرية فتمشت الاسرة الهرقلية على الاسس التي وضعها هرقل . اذ جعل هذا في كل منطقة ثغرية Theme جيشا دائما يمون نفسه من المنتجات الزراعية للثغر الذي يقيم فيه . وبذلك خرجت الامبراطورية منذ عهد هرقل عن التنظيمات الادارية التي وضعها كل من دقلديانوس وقسطنطين الكبير والتي لم تعد لتتجاوب مع تطورات الاوضاع في الامبراطورية . وادت هذه السياسة الى تحويل الامبراطورية الى معسكر حربي (٣١٠) . غير ان هذه السياسة قادت الى استفحال امراء الجيش وتدخله في الشؤون الادارية والى تعميق الفوارق بين صغار الملاكين وكبار الاقطاعيين (٣١١) .

وتميزت الفترة الاخيرة من العصر الهرقلي ٧١١ — ٧١٧ بالفتن والاضطرابات التي تمثلت في سرعة اختيار الاباطرة وخلعهم امثال فردان وثيودوسيوس الثالث وجستنيان الثاني . وفي تجدد النزاع المذهبي وفي هجوم البلغار على الامبراطورية طلبا للثأر من قتلة جستنيان الثاني وفي استئناف العرب لهجومهم . ولم يقو الامبراطور ثيودوسيوس الثالث على مواجهة الموقف ، فتمكن احد قادة الجيش المسمى ليو من الاستيلاء على السلطة وبذلك وضع اسس الحكم لاسرته المسماة بالاسرة الايسورية او السورية (٣١٢) .

وعلى العموم ان الجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية اخذ بالتحول السريع الى امبراطورية بيزنطية خالصة منذ بداية العصر الهرقلي . وذلك نظرا لوقوع القسم الغربي باكمله تقريبا تحت التسلط الجرماني ولم يبق منه سوى بضعة مناطق في ايطاليا مثل رافينا والاجزاء الجنوبية بما فيها الجزر . كما خرجت كل من سورية وبعض اجزاء اسيا الصغرى ومصر والشمال الافريقي من السيطرة البيزنطية واصبحت خاضعة للحكم الاسلامي وساعدت الخلافات الدينية بين كنيستي روما والقسطنطينية على ابتعاد بعضها عن البعض الاخر من جهة والى ابتعاد الكنائس العربية عن كنيستي القسطنطينية وروما من جهة اخرى . مضافا الى ذلك اختفاء اللغة اللاتينية امام اللغة اليونانية وسيادة الاراء الهلنستية والشرقية في المجالات الرسمية والثقافية .

309) Astrogorsky, op. cit., 122
310) Ibid, 86
311) Vasiliev. op. cit., 230
312) Ostrogorsky op. cit., 95

اباطـــرة العصر الهرقلـــي

Heraclius : 610 - 641

Constantine II : 641

Heraclonas : 641

Constans II : 641 - 668

Constantine IV Pagonatus : 668 - 685

Justinian II - Rhinotmetus : 685 - 685 and 705 - 711

Leontius : 695 - 698

Tiberius : 698 - 705

Philippieus Bardabes : 711 - 713

Amastasius II, : 713 - 716

Theodosius III : 716 - 717

الفصل السادس

العصر اللاأيقوني الأول والاسرة الأيسوريه

The First Iconoclastic Age And The Isaurian Dynasty

٨٠٢ — ٧١٧

ليو الثالث والخطر الاسلامي على القسطنطينية

العلاقات البيزنطية البلغارية . السلاف

السياسة الداخلية ، الأيقونيـة

واللاايقونية وملابساتها في دورها الاول ،

الامبراطورة ايرين وزوال السيادة

الرومانية النظرية في الغرب

— اعتلى ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤٠) العرش البيزنطي في وقت كانت فيه القسطنطينية مهددة من الجيوش العربية الاسلامية التي كانت بقيادة مسلمة بن عبد الملك الذي عبر البسفور وحاصر القسطنطينية سنة ٧١٧ برا وبحرا وكان الاسطول العربي الاسلامي متألفا من ١٨٠٠ سفينة (٣١٣) . غير ان العرب اضطروا لرفع الحصار لما انزلته النار الاغريقية من خسائر باسطولهم ولاضطراب التموين ولمهاجمة البلغار للجيوش الاسلاميـــــــة . واعتبرت سنة ٧١٨ وهي التي فشل فيها الحصار الاموي على العاصمـــة

313) Gibbon, op. cit., vol. V. 390-396

البيزنطية من التواريخ الحاسمة . اذ اشار اليه كثير من المؤرخين بانــه تاريخ عالمي فلم يكن ليمثل التاريخ الذي تخلصت فيه الامبراطورية البيزنطية وشرق اوروبا من خطر الاسلام فحسب ، بل ان الفشل يعتبر انقاذا للمدينة الاوربية (٣١٤) . هذا ولم يعاود العرب بعد ذلك الكرة على القسطنطينية.

وجد ليو الثالث حليفين ضد العرب ـ البلغار والخزر ، اذ تمكــن بمساعدتهما من انزال الهزيمة بالجيوش الاسلامية في اسيا الصغرى في موقعة اكر ونيون (افيون قره حصار) واضطروهم على الانسحاب ـن الاقسام الغربية من اسيا الصغرى .

- ان فترة الاضطراب الناجمة عن سقوط الدولة الاموية وقيام الدولــة العباسية ، ونقل العاصمة من الشام الى بغــداد ، ادت الى تقدم البيزنطيين في اسيا الصغرى على حساب المناطق الاسلامية ، حيث تمكن الامبراطور قسطنطين الخامس ٧٤١ ـ ٧٧٥ من التواغل في المناطق السورية (٣١٥) ولم يستأنف العرب هجومهم الا في عهد الخليفة المهدي المعاصر للامبراطوره ايرين حيث اضطرها الى عقد هدنة سنة ٧٨٣ تعهدت فيها دفع جزيـــة سنوية قدرها سبعون الف دينار وان تستمر الهدنة لمدة ثلاث سنوات . وتمكن المسلمون في عهد هارون الرشيد من اجبار ايرين على احترام الهدنة السابقة على اثر اندحار جيوشها ثانية سنة ٧٩٨ (٣١٦) .

اما علاقة البيزنطيون مع البلغار فكانت جيدة طيلة حكم ليو الثالث ٧١٧ـ ٧٤١ . الا انها اخذت بالتدهور في عهد قسطنطين الخامس . وذلك لبناء الاستحكامات العسكرية على الحدود المشتركة مع بلغاريا (٣١٧) . وجرد قسطنطين ثمان حملات ضد البلغار سفكت فيها دماء بلغاريه غزيرة لذا اطلق عليه لقب الجزار . وعلى كل فقد اصبحت بلغاريا دولة قوية قبيـل نهاية القرن الثامن واضطر الامبراطور قسطنطين السادس وامه ايريـن ٧٩٧ ـ ٨٠٢ الى دفع الاتاوات لهم (٣١٨) .

- لقد انتشرت في عهد الاسرة الايسورية القبائل السلافية في البلقان فـي القرن الثامن . وساهمت الحكومة البيزنطيــة في ازدياد نفوذهم في

---

314) Vasiliev, op. cit., 236
315) Astrogorsky, op. cit., 149
316] Vasiliev , op . cit . 238 . 239
317) Astrogorsky, op. cit., 149
318) Vasiliev, op. cit., 240

الامبراطورة لاتباعها سياسة اسكانهم في اليونان وضواحي العاصمة على اثر نقص الايدي العاملة من جراء موجة الطاعون ٧٤٦ ــ ٧٤٧. واشتركت هذه القبائل مع نقفور *Nicephorus* في الانقلاب الذي دبره ضد حكم ايرين سنة ٨٠٢ . وهكذا اصبح البلغار والسلافيون بمختلف فروعهم مصدر قلق للحكومة البيزنطية طيلة القرن التاسع (٣١٩) .

— اما في المجالات الداخلية . فقد اهتمت الاسرة الايسورية بأمرين خطيرين . الاول التشريعات القانونية ، والثاني محاربة التماثيل والصور الدينية المشار لها باللايقونية Iconclastism اذ عالج ليو الثالث مشكلة الشريعة الرومانية محاولا جعلها منسجمه مع التعاليم المسيحية من النواحي الخلقية والعائلية والانسانية (٣٢٠) . فأصدر مجموعة شرائعه المسماة بالمختارات القانونية Ecloga سنة ٧٢٦ المستندة الى حد ما على قوانين جستنيان مع بعض التعديلات واهم ما يميز شريعة ليو ، تقسيمها الى ثمانية عشر فصلا بحثت في القوانين المدنية بالدرجة الاولى . وفي القوانين الجزائية في الدرجة الثانية (٣٢١). وامتازت على قوانين جستنيان بتأكيدها على العرف والسوابق القضائية ولكونها اكثر انسانية ، اذ حولت اكثرية عقوبات الاعدام الى الاقتصاص العضوي كقطع اللسان وبتر الكف ... الخ (٣٢٢) . وبقيت شرائع ليو سائدة الى زمن الاسرة المقدونية . اذ فضلت هذه الرجوع الى شرائع جستنيان . وهناك الشريعة الريفية Rural Code وهي مجموعة قوانين باحثة في عقوبات الجرائم الريفية كسرقة الغابات والماشية والحاصلات والاعتداء على المراعي والمياه . وبالرغم من وجود اختلاف حول التاريخ الذي صدرت فيه الشريعة الريفية الا انه من المرجح بانها تعود للاسرة الايسورية . وعالجت الشريعة العمل المشترك في الزراعة والسماح للفلاحين بالانتقال والغاء العمل الاجباري (السخرة) ويشير المؤرخ فاسيليف (يجب ان نعلم بان هذه الاشارات لا تعني عدم وجود القنانة Serfdom في الامبراطورية البيزنطية او زوالها ، بل انها موجودة وهي القاعدة الاساسية في الكيان الاقطاعي)

319) Ibid, 240
320) Bury, The Constituti on of The Later Roman Empire (Cambridge, 1910) 414
321) Runciman, op. cit., 63
322) Vasiliev, op. cit., 242

(٣٢٣) . ويعتقد البعض ان هذه الظواهر التي عالجتها الشريعة الريفية كانت نتيجة للتأثيرات التي احدثتها هجرات الاقوام السلافية في الانظمة الزراعية في الامبرطورية البيزنطية . وهدفت الشريعة الزراعية الى (الحد من تعاظم الملكيات الكبيرة والمحافظة على الاملاك الصغيرة) (٣٢٤) . وقد اصبح الفلاحون احسن حالاً بصورة عامة في العهد الايسوري) (٣٢٥) .

كما شرع ليو الثالث مجموعة قوانين بحثت في القضايا العسكرية كالعقوبات المفروضة في حالات التمرد والانهزام . وزادت تشريعاته في صلاحيات السلطات العسكرية على حساب السلطات المدنية وخاصة في في الولايات الثغرية . وقسم ولايات الثغور الكبيرة الى وحدات اصغر وذلك لتسهيل الاعمال الادارية ولاضعاف النزعات الانفصالية لدى قادة الجيوش . واوجد ايضا ولايات ثغرية جديدة في البلقان خاصة في مقدونيا . وعملت قوانين الاسرة الايسورية في المجالات العسكرية على زيادة الضبط العسكري والترفيه عن الجنود (٣٢٦) .

وهناك عدة قوانين اخرى شرعتها الاسرة الايسورية لتعود بنفع مالي على خزينة الدولة . اذ ضاعفت ضريبة الحبوب المعروفة ، Corntax وهذه ضريبة مفروضة منذ عهد قسطنطين الكبير (٣٢٧).

وعملت القوانين البحرية التي شرعها الايسوريون على تنظيم التجارة وكفاح القرصنة وزيادة رسوم الدولة . وقد استمرت القوانين البحرية سارية المفعول حتى القرن الثاني عشر (٣٢٨) .

المشكلة الايقونية —

لم ينته الجدل حول شخصية المسيح في المؤتمر المنعقد في سنة ٦٨٠. بل استمر بشكل اخر طيلة القرنين الثامن والتاسع . وتمركز الصراع حول الايقونات المقدسة Holy Icons . ان الايقونية عبارة عن محاولة تجسيد المسيح والعذراء والقديسيين بالتماثيل والصور واستعمالها في دور العبادة

---

323) Ibid, 245
324) Diehl, Histoir de l'empire Byzantine (Paris, 1930) 69
325) Deanesly, op. cit., 409.
326) Vasiliev, op. cit., 249
327) Deanesly, op. cit., 409
328) Vasiliev, op. cit. 250

وخارجها . اما اللاأيقونيون Iconoclasts فيعتقدون بعدم جواز تشبيه المسيح والعذراء والقديسيين بالتماثيل والصور . واعتبروا هذه الظاهرة رجوعا للوثنية . ولقد قاومت الفرقة الدينية المسماة بالبوليصية التماثيل والصور الديني بشكل عنيف . والتبست المشكلة الايقونية في القرن الثامن بالامور السياسية (٣٢٩) . وتضمن النزاع اموراً متعلقة بطبيعـــة المسيح البشرية والنظرة المسيحية للمادة والمعنى الحقيقي الذي رمز اليه الخلاص Salvation . لعبت المشكلة دورا خطيراً في تاريخ الدولة البيزنطية لمائة وعشرين سنة تقريبا (٣٣٠) . ويقع تاريخ المشكلة في دورين رئيسيين في عهدي الاسرتين الايسورية والمقدونية هما —

١ — المرحلة اللاأيقونية الاولى — لم يكن الامبرطور ليو الثالث منذ بدايته ليؤمن بقدسية التماثيل والصور الدينية . ويقول المؤرخ كبون بان تربيتـــه واختلاطه بالعرب واليهود في اسيا الصغرى قد تكون لها تأثيرات فـــي سياسته ضد الايقونية اذ حاول في أول الامر بمرسوم امبراطوري ابعاد الناس عن خزعبلات تلك الظاهرة . فاوعز الى رجال الدين ان يجعلـــوا الايقونات بعيدة عن متناول الجمهور وذلك بتعليقها او نصبها في اماكـــن مرتفعة . غير ان الاجراء لم يمنع رجال الدين ولا الجماهير من الاستمرار في تقديس الرموز الدينية . فاضطر ليو نتيجة لضغط حاشيته اصدار مرسوم اخر يأمر فيه بازالة الايقونات من دور العبادة وتدميرها (٣٣١) . وبـــدات المشكلة عندما امر جنده سنـــة ٧٢٦ بتحطيم تمثـــال المسيـــح المنصوب عند مدخل القصر الامبراطوري . وادى ذلك الى اصطدام مسلح مع المعارضين سقط من جرائه عدد من القتلى واستعمل الشدة في اخماد ثورة في اليونان نتجت عن تلك السياسة . اما الاسباب التي دفعته الى هذه السياسة فتعزى الى عدة امور منها محاولة التقرب من المسلمين الذين اعتبروا الايقونية ضربا من الوثنية . حيث ولدت الايقونية ازمات حادة في البلاد العربية منذ النصف الاول من القرن السابع . اذ اصدر الامويون سنة ٧٢٣ في عهد يزيد الثاني امرا يمنعون فيه وضع الصور والتماثيل فـــي

---

329) Ware, op. cit., 38
330) Vasiliev, op. cit., 252
331) Gibbons, op. cit., 149

الكنائس (٣٣٢) . ويقول اخرون بان ليو هدف الى تنقية العقيدة المسيحية من الشوائب وذلك تبعا لما يشعر به الاباطرة البيزنطيون من مسؤوليات دينية . وهدف أيضا لتقليص نفوذ رجال الدين بتجريدهم من سلاح مهيمن على عقلية الجماهير كي يحول ولاء الافراد مباشرة للامبراطور دعما للسلطة الاتوقراطة لتكون تامة السيادة في الحقلين الديني والدنيوي . ويرى المؤرخ اوسبنسكي Uspensky ان ليو قصد من وراء عمله هذا الاستيلاء على ثروات الاديرة وعليه فقد عمد قادة المؤسسات الديرية الى تحويل النزاع بينهم وبين الامبراطور الى نزاع ديني ليظهروا الامبراطور بمظهر المحارب للدين لاجل اضعاف مركزه عند الشعب (٣٣٣) . ويعتقد المؤرخ اوستروكورسكي بان التمسك بالايقونية عبارة عن محاولة لاستبعاد تغلغل التأثيرات الثقافية الشرقية من المعتقد الارثودوكسي والتي اتخذت طابع المساجلة حول اهمية الايقونات (٣٣٤) . اما الاستاذ وير Ware فيقول عن الحركة اللاأيقونية (بانها احتجاج اسيوي على التقاليد اليونانية. فهناك امبراطوران اسيويان قادا اللاصورية هما ليو الثالث وليو الخامس ... (٣٣٥) . وتشير المؤرخة ماركريت دنسلي Deanesly بان (ليو هدف من اثارة المشكلة الى تقوية الجيش . لان المؤسسات الديرية قد اصبحت ملاجيء للهروب من الخدمة العسكرية (٣٣٦) . ثم يعطي المؤرخ ويرتعليلا اخرا لمقاومة الايقونية حين يقول (ولعل اللاأيقونية في الا جزاء الشرقية جاءت منسجمة وما تعود عليه مسيحيو الشرق في العبادة المجردة من التجسيد ، وتاكيد الطبيعة الالهية التي لا يمكن تشبيهها بالصور والتماثيل التي تؤكد الجانب البشري في المسيح) (٣٣٧) . ومهما تعددت الاراء في دوافع ليو الحقيقية في سياسته اللاأيقونية فاننا نعتقد بانه قد هدف من ورائها الى كسب ولاء سكان اسيا الصغرى للسلطة المركزية للاعتماد عليهم في مقاومة التوسعات الاسلامية بشكل اكثر فعالية .

ولنكن على علم بان الحركة اللاأيقونية لم تكن حركة مفاجئة لان محاولة تشبيه المسيح والقديسيين بالصور والتماثيل قد شغلت الاذهان

---

332) Astrogorsky, op. cit., 143
333) Quoted in vasiliev, op. cit., 253
334) Astrogorsky, op. cit., 143
335) Ware, op. cit., 39
336) Deanesly, op. cit. 411
337) Ware op. cit., 38

لقسم كبير من رجال الدين منذ القرن الرابع . فقد مزق القديس ايفانيوس Ephinanius راهب سلاميس ٣١٥ ــ ٤٠٣ ستارة فيها صورة المسيح وقرر مؤتمر ديني عقد في مدينة الفيرا *Elvera* الاسبانية في بداية القرن الرابع عدم جواز تعليق الصور واقامة التماثيل في الكنائس . غير ان بعض رجال الدين عمدوا الى تزيين كنائسهم بالصوروالتماثيل بعد الاعتراف بالمسيحية بشكل يستلفت الانظار . وحدثت في القرن الخامس ثورة عنيفة في انطاكيا ضد الصور وكذلك في مدينة الرها . ومن ناحية اخرى فقد لام البابا كريكوري الاول ٥٩٠ ــ ٦٠٤ احد رجال الدين الذي اقدم على تكسير التماثيل واخراج الصور من احدى الكنائس بقوله (انها وسيلة لتثقيف الاميين الذين يقرأون في الصور والتماثيل ما لم يتمكنوا من قرائته وفهمه عن طريق الكتب) اي ان التماثيل والصور الدينية انجيل الجاهل (٣٣٨) .

لقد اثارت سياسة ليو الثالث الدينية احتجاج البابا كريكوري الثاني ٧١٥ ــ ٧٣١ فأصدر عقوبة التحريم ضد بطريق القسطنطينية . واحتج كذلك قسم من زعماء الدين في الاقطار العربية امثال جون الدمشقي المتوفى عام ٧٥٠ والذي اصبحت ردوده على اللاايقونيين من امضى الاسلحة التي قارع بها الايقونيون خصومهم . ومن اشهر كتبه في هذا المجال كتاب (اصل المعرفة) حيث بحث فيه في الباب الثالث تحت عنوان (عرض عام للمعتقد الارثودوكسي) موضوع الايقونية وغاياتها (٣٣٩) .

وقد اصدر ليو الثالث سنة ٧٣٠ مرسوما يمنع فيه عبادة الصور والتماثيل في كافة ارجاء الامبراطورية . وامر باغلاق المدرسة الدينية في القسطنطينية لمعارضتها لتلك السياسة . واصدر المجلس الروحاني الاعلى في روما قرار التحريم في حق اعداء الايقونية سنة ٧٣١ . ولجأ ليو الثالث الى اتخاذ اجراء معاكس ضد البابوية وذلك بجعله الادارة الدينية في كالابريا Calabria وصقلية وكريت واليريا التي كانت تحت اشراف البابوية ، تابعة الى بطريقة القسطنطينية (٣٤٠) .

338) Vasiliev, op. cit., 255
339) Ware, op. cit., 39
340) Deanesly, op. cit., 411

اشتدت الحملة ضد الأيقونيين في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس . وعمد الى اضعاف اتباع الايقونية في جهات البلقان بتهجير جموع غفيــرة من الارمن من اتباع الفرقة البولصية اللاأيقونية واسكانهم في تراقيــــا والقسطنطينة . وقام الجيش بدور فعال فيتنفيذ سياسة الامبراطور . ثم عقد مؤتمرا دينيا سنة ٧٥٤ ضم ثلثمائة اسقف قرر فيه ان عبادة الصور والتماثيل مخالفة للدين كما حرموا كافة الذين يزاولون الايقونية . ووجــه قسطنطين الخامس نقمته ضد الرهبان والراهبات الذين لم يمتثلوا لاوامره فصادر ممتلكات اديرتهم واجبرهم على الزواج . ولجأ ما يقارب الخمسون الف راهب وراهبة الى ايطاليا . واسفرت هــــذه السياسة عن خسران الامبراطورية لنفوذها في ايطاليا ما عدا الاجزاء الجنوبية . وذلك على اثر تحالف البابوية مع حكام الفرنجة بسبب الايقونية وبسبب عجز البيزنطيين عن تقديم الحماية له ضد اللمباردالذين اصبحوا يهددون رومـــا بعـــد ان احتلوا رافينا ٧٥١ (٣٤١) .

اما الامبراطور ليو الرابع الملقب بالخزري ٧٧٥ — ٧٨٠ فقد واصل سياسة اللاأيقونية غير انه اتجه اتجاها معتدلا حيال الايقونيين ، وينسب ذلك لأثير زوجته ايرين . وعلى العموم تعتبر فترة حكمه مرحلة تمهيديــــة لاعادة الايقونية في عهد حكم ايرين اثناء وصايتها على ابنها قسطنطين السادس .

لقد مهدت ايرين بعدة اجراءات لا عادة الايقونية في وقت كانت فيه الامبراطورية تتنازعها الخلافات الدينية وتعصف بها المؤامرات حول العرش وتتهددها الغزوات العربية الاسلامية . لقد عمدت الى عقد هدنة مـــع العرب سنة ٧٨٣ والى تقوية الروابط مع شارلمان . حيث اقترحت عليه تزويج ابنته من قسطنطين السادس ، وعملت على استرضاء الجيش خاصة اثر الانتصارات التي حققتها ضد السلاف . وعليه فتحت ايريـــن باب المفاوضات مع البابا ادريان الاول من اجل مؤتمر عالمي لا عادة الايقونية . وفعلا عقد المؤتمر الديني العالمي السابع في نيقيا سنة ٧٨٧ . وقد حضره حوالى ٣٨٠ اسقفا وعدد كبير من الرهبان وكان المؤتمر برئاسة بطريـــق القسطنطينية نظرا لتمسكه بالايقونية . واستمرت الاجتماعات من ٢٤ سبتمبر

341) Ibid, 411-412

الى ١٣ اكتوبر تمخضت عن قرار اعادة الصور والتماثيل الى دور العبادة البيزنطية وتحريم من يعتبرها اوثانا ، وارجاع الاديرة الى ماكانت عليه قبل حكم قسطنطين الخامس . اما بالنسبة لرجال الدين الذين اتبعوا اللاأيقونية فيما سبق ، فقد انقسم المؤتمر في البداية الى فريقين . ايد الفريق الاول العفو عنهم وارجاعهم الى الحظيرة المسيحية وعارض الفريق الاخر في ذلك . وهنا يظهر لنا ان الكنيسة الشرقية كانت تعاني من انقسام خطير بين صفوفها . تمثل في الرهبان المتطرفين الذين نذروا انفسهم للدين وفي فئة رجال الدين الذين يطلق عليهم الفئة السياسية المؤيدة دائما لوجهة نظر الدولة الرسمية . وعلى كل فقد سادت في المؤتمر وجهة النظر المعتدلة القائلة بغفران سلوك هؤلاء السابق (٣٤٢) . ويعتبر هذا المؤتمر الديني السابع الذى انهى المرحلة الاولى من المشكلة الايقونية اخر مؤتمر ديني عالمي يعقد في الامبراطورية البيزنطية .

الامبراطورة ايرين —

يعتبر حكم الامبراطورة ايرين هاما من عدة وجوه . فبالاضافة الى سياستها الايقونية في المجال الديني ، فهي اول امبراطورة تتولى عرش الامبراطورية البيزنطية ٧٩٧ — ٨٠٢ . كما ان تسلمها العرش كان فرصة مناسبة لعدم اعتراف البابوية بزعامة اباطرة البيزنطيين الدنيوية للعالم المسيحي والعمل على احياء الامبراطورية الرومانية في الغرب بتتويج شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . لقد هدفت ايرين من وراء سياستها في المجالين الديني والسياسي الى تقوية مركزها والتمهيد لازاحة ابنها والاستئثار بعرش الامبراطورية . واستعانت على ذلك بالتآمر اذ اغرت ابنها قسطنطين الذي بلغ السابعة عشر من عمره من التخلص من احد الجنرالات بتسميل عينيه فاستفز عمله قادة الجيش . ثم شرعت ببذر الشقاق بين قسطنطين واخوانه فحرضته على تسميل عيني اخيه الاصغر وقطع ألسنة اخوته الاربعة الاخرين . كذلك اقنعته بضرورة سجن زوجته في احد الاديرة ليخلوله الجو في معاشرة احدى وصيفات القصر واثار بذلك العمل رجال الدين . واخيرا امرت ايرين بالقاء القبض على قسطنطين نفسه وتسميل

---

342) Ostrogorsky, op. cit., 158-159

عينيه واعلان نفسها امبراطورة سنة ٧٩٧ (٣٤٣) .

ان السياسة اللاأخلاقية التي اتبعتها ايرين من اجل الوصول الى العرش اثارت لها مشاكل خارجية وداخلية . فقد كانت فرصة مناسبة للبابويه ان تعلن بان عرش الامبراطورية شاغرا لعدم جواز امرأة تزعم العالم المسيحي في شؤونه الدنيوية ، واسندت البابوية العرش الروماني الى شالمان مؤسس الامبراطورية الكارولنجية . وتعتبر حادثة التتويج هذه سنة ٨٠٠ من الاحداث الهامة في العصر الوسيط . فقد نظر اليها قسم من المؤرخين وكأنها التاريخ الذي زال فيه النفوذ الروماني من الغرب من الناحية النظرية حسب نظرية السيفين بعد زواله في الواقع منذ قرون خلت . هذا ولم يكن الاجراء البابوي خطوة اعتباطية فهناك عوامل عدة متفاعلة عبر تاريخ طويل في الغرب والشرق جعلت تتويج شارلمان خطوة عملية منسجمة مع حصيلة تلك التفاعلات التاريخية . ويمكن ملاحظة ذلك من الفوارق السياسية والثقافية بين المجتمعين المسيحيين الغربي والبيزنطي . فقد سادت القيم البربرية على الحضارة الرومانية في الغرب وتغير تركيب المجتمع الغربي طبقيا وثقافيا وعنصريا ومذهبيا عن المجتمع البيزنطي الذي سادت فيه اللغة اليونانية على اللاتينية وامتزجت الحضارة الهلنستية المسيحية بالحضارة الشرقية عاكسة صورا جديدة من الاتجاهات في مختلف الميادين . ولعل الحركة اللاأيقونية من مظاهر ذلك الاختلاف والذي بدوره عمق الهوة بين روما الاولى والثانية . هذا بالاضافة الى حاجة البابوات الملحة الى الحماية العسكرية ضد اللمبارد وضد اعدائه في داخل روما . وقد اعتاد البابوات الاعتماد على ملوك الفرنجة في تقديم المساعدات العسكرية منذ عهد بيبين ٧٤١ — ٧٦٨ . مضافا الى ذلك مع ان ايرين اعادت الصفاء بين الكنيستين في مؤتمر نيقيا سنة ٧٧٨ الا انها من ناحية ثانية لم تتخذ سياسة ايجابية لاعادة كالايريا وسائر الاجزاء التي الحقت ادارتها الدينية مباشرة ببطرقية القسطنطينية (٣٤٤) .

ان تتويج شارلمان حسب وجهة النظر البيزنطية مجرد تمرد ضد

---

343) Deanesly, op. cit., 413
344) Ostrogorsky, op. cit., 163

الامبراطورية . واعتبرها المؤرخ شرام Chram بانها عبارة عن اغتصاب لحقوق الرومان . وحاول شارلمان الحصول على موافقة البيزنطيين باقتراحه دمج الامبراطوريتين في شخصه بواسطة الزواج من ايرين . وكاد ان ينجح في خطوته هذه لولا خلع الامبراطورة ايرين سنة ٨٠٢ . ومع ذلك فقد تمكن شارلمان من الحصول على الاعتراف به من قبـــل البيزنطيين امبراطورا في المقام الثاني في عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل الاول سنة ٨١٢ . ولا يعني هذا الاعتراف من ناحية نظرية سوى اعادة للوضع السائد في الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس كما كان الامر في عهد اركاديوس وانوريوس حسب الاعتبارات البيزنطية (٣٤٥) .

---

345) Vasiliev, op. cit., 268-269

ابــاطرة العصر الايسوري ـــ

Leo III : 717 - 741

Constantine V Copronymus : 741 - 775

Leo IV : 775 - 780

Constantine VI : 780 - 797

Irene : 797 - 802

الفصل السابع

العصر اللايقوني الثاني	*The Second Iconoclastic Age*
الاسرة العمورية	*The AMorian Dynasty*

المشاكل الدينية ـ الحركة اللايقونية الثانيـــة
٨١٥ ــ ٨٤٣ ، فتنة فوتيوس وتطوراتها ، الزعامة
الروحية العالمية لروما المنافسة التبشيرية
في بلغاريا : العلاقات مع المسلمين
فــــي المشرق والمغرب
العلاقات مع البلغار

يقسم عصر الحركة اللاايقونية الثانية من ناحية حكم الاباطرة الى فترتين الاولى تمتد من ٨٠٢ الى ٨٢٠ وحكم فيها اباطرة من اصول مختلفة . اما الثانية من ٨٢٠ الى ٨٦٧ فقد حكمت فيها الاسرة العمورية . وتعتبر المشاكل الدينية من اهم الاحداث الداخلية في هذه الفترة والمتمثلة في الحركـــــة اللاايقونية الثانية وفي الخلاف بين البابا نيقولا الاول ورئيس اساقفـــة القسطنطينية فوتيوس Photius ويشار لهذا الخلاف بفتنة فوتيوس .

الحركة اللاايقونية الثانية ــ

لم يحاول اي من نقفور الاول ٨٠٢ ــ ٨١١ ولا ميخائيل الاول ٨١١ ــ

٨١٣ اثـــارة النزاع حـــول الايقونيـــة . غيـــر ان الامبراطور ليـــو الخامس ٨١٤ — ٨٢٠ يعتبـــر المسؤول عـــن تجديـــد الصراع اذ اثار الموضوع على اثر انتصاره على البلغار في موقعه مسمبريا سنة ٨١٣ . وشجعته على ذلك الاخبار التي ترامت اليه بان المؤتمـرات الدينية في الغرب حول الايقونية وخاصة مؤتمر فرانكفورت ٧٩٤ ، قـد رفضت الاعتراف بقرارات المؤتمر الديني العالمي السابع المنعقد في سنة ٧٨٧ حول الموضوع ، (٣٤٦) وقد كان الامبراطور الابسيوي ليو الخامس من المعتقدين شخصيا بان التماثيل والصور الدينية مخالفة للعقيدة وتجلب النحس الى الامبراطورية ، ونسب له ان قال ذات مرة (ان الاباطرة الذين ارتضوا التماثيل والصور او عبدوها انتهت حياتهم اما بالنفي او القتل بعكس الاباطرة الذين رفضوا عبادتها . لذا فاني اترسم خطوات اؤلئك الذين حرموا عبادتها .) (٣٤٧) هذا بالاضافة الى ان غالبية الجيش من انصار اللاايقونية . وعليه عقد مؤتمرا دينيا في كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية سنة ٨١٥ يشار له بالمؤتمر اللاايقوني الثاني تمييزا له عن المؤتمر الاول المنعقد في ٧٥٣ تقرر فيه تطبيق كافة القرارات التي اصدرها مؤتمر سنة ٧٥٣ ضد الايقونية . (٣٤٨)

كان انصار الايقونية اكثر تنظيما في المرحلة الثانية ، وتمركزت القيادة حول الراهب **تيودور Theodore سنة ٧٥٩ — ٨٢٦ رئيس دير ستوديو** في القسطنطينية . (٣٤٩) الذي دافع عن حرية العبادة واستقـــلال الكنيسة ورجال الدين في الشؤون الروحية . وتضمن دفاعه انكار الرأي القائل بأن قسطنطين الكبير ، القديس الثالث عشر ، يحكم في المجالين الديني والدنيوي . (٣٥٠) ومع ان الامبراطور اضطر على نفي تيودور الا ان سياسته لم تكن بذلك العنف ضد الايقونية وانصارها ، كما توضـــح من بعض القرارات المتخذة في مؤتمر سنة ٨١٥ . حقا لقد منع في ذلك المؤتمر عبادة الايقونات الا انه اكد ايضا بان الايقونات لم تكن اوثانا(٣٥١) .

(346) Ostrogorsky, op. cit. 164
(347) Vasiliev, op. cit., 284
(348) Deanesly, op. cit., 413.
(349) Ware, op. cit., 39
(350) Deanesly, op. cit., 413.
(351) Ibid, 414

اما الامبراطور ميخائيل الثاني ٨٢٠ — ٨٢٩ فقد كان لايقونيا مظهراً ومخبرا الا انه اراد ان يخفف من حدة المشكلة بمنعه كافة المجادلات حول تقديس الايقونات . والى هذا المعنى اشار المؤرخ دوبروكلونسكي Dobroklonsky

(ان الناس في مقارنتهم بين موقفي ليو الخامس وميخائيل الثاني حيال الايقونية يعبرون عن ارائهم بقولهم ولى الشتاء غير ان الربيع لم يات بعد . او لقد خمدت النار وبقي الدخان) (٣٥٢) اما في عهد الامبراطور ثيوفيلوس ٨٢٩—٨٤٢ فقد اتجهت السياسة الحكومية نحو العنف تجاه الايقونيين . وكان ثيوفيلوس ذكيا محبا للعلوم والفنون تبنى حلقة للدراسات العليا في بلاطه واراد التشبه بخلفاء بغداد . ان تاثره بالثقافة العربية الاسلامية قد جر معه ايضا المقت للايقونية . وعين تيوفيلوس سنة ٨٣٧ احد علماء العصر المعجبين بالثقافة العربية الا وهو جون النحوي The grammarian

رئيسا لاساقفة القسطنطينية وبلغت موجة الاضطهاد الموجهة ضد الايقونيين قمتها في اواخر حكم ذلك الامبراطور (٣٥٣) ومع ذلك فيشير المؤرخ بيوري (بان الاضطهاد لم يتعد حدود القسطنطينية . وان عبادة الايقونات انتشرت بالرغم من كافة المحاولات لمنعها في جهات اليونان والسواحل الشرقية لاسيا الصغرى (٣٥٤) .وانتهى الاضطهاد بوفاة تيوفيل . اذ ان ابنه ميخائيل الثالث ٨٤٢ — ٨٦٧ كان تحت وصاية امه تيودورا Theodora وتاثيراتها والتي كانت من اتباع الايقونية . لذا امرت باعادة عبادة التماثيل والصور وتخلصت من معارضة جون النحوي بنفيه واستاذ البطرقية لنصير الايقونية مثوديوس Methodius ثم عقدت مؤتمرا دينيا في نيقيا سنة ٨٤٣ اسفرت قراراته عن ارجاع الايقونات الى دور العبادة في الحادي عشر من شهر اذار . واصبح ذلك اليوم عيدا عند الكنيسة الارثودوكسية منذ ذلك التاريخ . (٣٥٥) .

تمخضت تلك المشكلة الدينية في دوريها الاول والثاني عن نتائج عدة ، منها اضعاف الحكم البيزنطي . اذ ان قادة الجيش واكثريتهم من

---

352) Quoted in vasileiv, op. cit., 286
353) Deanesly, op. cit., 414
354) Bury Eastern Roman Empire, from the Fall of Irene to the Accession of Basil (802-867) (London, 1912) 140
355) Deansly, op. cit., 414

ارمينيا هم من انصار اللاأيقونية بينما قادة الجهاز البير وقراطي كانوا على العكس من ذلك . لذا كان الصراع حادا بين الجهازين العسكري والاداري مما ادى الى ارباك الاوضاع في الامبراطورية واضعاف الولاء للامبراطور . وقد عملت تلك الخلافات الدينية على اضعاف مركز البيزنطيين فيما تبقـى لهم من املاك في الاقاليم الجنوبية من ايطاليا . كما انها من العوامل الهامة في تكدير العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية . وقد اظهرت المشكلة كنيسة روما بمظهر المحافظ على نقاوة المعتقد المسيحي الصحيح مما زاد في تمسك بابوات روما بنظريتهم في التفوق الروحي على سائر الكنائس . هذا ومع ان المساجلات الدينية بين اللاأيقونيين واعدائهم كونت في حينها ثروة فكرية الا ان تدمير التماثيل والصور ومكافحتها ادى الى اتلاف كثير من الكنوز الفنية الدينية . (٣٥٦) ويعتقـــد البعض ان الحركة اللاايقونية اسفرت عن فشل الدولة في محاولتها الرامية الى السيطرة التامة علـى الكنيسة (٣٥٧) .

فتنة فوتيوس :

وتلك من الاحداث الهامة التي كهربت الجو بين كنيستي روما والقسطنطينية

فبعد مرور خمسة عشر عاما على انتصار الايقونية ، اسندت بطرقيـة العاصمة البيزنطية سنة ٨٥٨ الى فوتيوس الذي يعرف بالقديس عنـد الكنيسة الارثودوكسية . وقيل عنه بانه على جانب كبير من الثقافة كما انه سياسي من الدرجة الاولى (٣٥٨) . اشتبك في جدل حال توليه ذلـك المنصب مع البابا نيقولا الاول ٨٥٨ — ٨٦٧ . واصل المشكلة ان البطريق كناتيوس Ignatius الذي كان يشغل رئاسة البطرقية في القسطنطينية قبل فوتيوس قد نفي بأمر من الامبراطور ميخائيل الثالث ، وقد تنازل اكناتيوس باختياره في منفاه عن المنصب . غير ان اتباعه رفضوا اعتبار استقالته شرعية واعتبروا رئاسة فوتيوس اغتصابا لحق ليس له . وكان البابا نيقولا من مؤيدي انصار اكناتيوس . لهذا عندما ارسل فوتيوس رسالة

---

356) Vasiliev, op. cit., 387-290
357) Ostrogorsky, op. cit., 198
358) Ibid 199

الى البابا يخبره فيها توليه رئاسة البطرقية ، حسب العادة الجارية بين الكنائس الكبرى ، رفض نيقولا الاعتراف به الا بعد ان تنجلي له طبيعة الموقف بين فوتيوس واتباع اكناتيوس . اذا ارسل البابا سنة ٨٦١ وفدا للقسطنطينية للقيام بتلك المهمة . هذا ولم يكن فوتيوس راغبا في احداث جدل بينه وبين البابوية وعامل الوفد البابوبي باحترام كبير وسمح له ان يترأس احد المؤتمرات الدينية في القسطنطينية ليحسم في الموضوع القائم بينه وبين اتباع اكناتيوس ، واصدر الوفد البابوبي بالاتفاق مع المؤتمرين قرارا تضمن شرعية منصب فوتيوس . غير ان نيقولا رفض قرارات وفده واتهم الاعضاء بتجاوز الصلاحيات المخولة لهم . لذا عقد البابا مؤتمرا دينيا في روما سنة ٨٦٣ قرر فيه الاعتراف ببطرقية اكناتيوس معتبرا فوتيوس مقالا ومجردا من كافة الامتيازات الكهنوتية وقد اهملت الكنيسة البيزنطية ذلك القرار ولم تحاول الرد عليه (٣٥٩) .

ان القرار البابوي المتخذ في سنة ٨٦٣ لم يكن مجرد محاولة للحسم في النزاع بين فوتيوس ومناوئية . بل انه تضمن نقاطا اساسية حول الادعاء البابوي الزعامة الروحية العالمية . ان نيقولا الاول من البابوات الذين يشار لهم بالبنان ومن قادة حركة الاصلاح في الكنيسة الغربية . واعتقد بــان كنيسة روما لها الحق في فرض سيطرتها على كافة الكنائس في انحـــاء العالم كما صرح بذلك سنة ٨٦٥ . وما النزاع بين فوتيوس واتباع اكناتيوس الا فرصة مناسبة ليعلن البابا نيقولا عن ارائه امام الملاء في سيادة روما الروحية . غير ان البيزنطيين اعتقدوا بان قرار البابوية المتخذ سنة ٨٦٣ يمثل خرقا لقرارات المؤتمر الديني المنعقد في ساردبكا سنة ٣٤٣ بين ولدي قسطنطين الكبير قسطان وقسطنطينيوس ، والذي اشار بصراحة الى ان النزاع من هذا النوع والذي يرفع الى روما للبت فيه يجب الا ينفرد البابا باصدار الحكم ، وانما يجب احالة الموضوع الى الاساقفة في المناطق المجاورة الى منطقة نفوذ الاسقف المراد معاقبته . (٣٦٠) لهذا اعتقد البيزنطيون ان القرار البابوي السالف الذكر يشكل مخالفة للشريعة .

وقد التبست في المشكلة قضايا عقيدية كموضوع الابن **Filioque** وسياسية

359) Ware op. cit. 61
360) Ibid, 62

نتجت عن التسابق بين روما والقسطنطينية في المجالات التبشرية في جهسات البلقان وبين الاقوام السلافية .

اما موضوع الابن فهو من المواضيع الخطيرة التي باعدت بين الكنيستين الغربية والشرقية . ونشأت المشكلة حول صيغة القرارات المتخذة في مؤتمري نيقيا والقسطنطينية الاولين ، في شان احد عناصر الثالوث الا وهو روح القدس . اذ ان القرارات السابقة في هذين المؤتمرين حول تلك النقطة كالاتي نصا (اعتقد بروح القدس الرب واهب الحياة الذي يصدر من الاب ويجب ان يعبد ويمجد سوية مع الاب والابن) ان تلك العبارة تردد لحد الان في الشرق المسيحي . غير ان الغرب ادخل عبارة اخرى على ذلك النص وهي (ومن الابن) اي (والذي يصدر من الابن والاب) ولا يعلم بالضبط متى واين نشأت هذه الاضافة والمرجح انها ظهرت في اسبانيا لمكافحة الاريوسية . وعلى كل فان كتب العبادة الاسبانية ادخلت هذه العبارة بشكل رسمي في مؤتمر توليدو طليطلة *Toledo* الثالث سنة ٥٨٩ على الاغلب . وانتشرت هذه من اسبانيا الى فرنسا والمانيا ورحب بها شالمان واقرت في مؤتمر فرانكفورت سنة ٧٩٤ . واصبح موضوع الجدل حول الفليوك سافرا ، لاول مرة في بلاط شارلمان بين رواد النهضة الكارولنجية، متهمين الكنيسة الاغريقية بالمروق الديني لعدم ذكرهم الفليوك . ومع ذلك فان كنيسة روما استمرت في طقسها الديني كما ورثته ، اي بدون ذكر الفليوك حتى بداية القرن الحادي عشر . وكتب البابا ليو الثالث سنة ٨٠٨ الى الامبراطور شارلمان بما مضمونه لاغبار على صحة الفليوك من ناحية دينية ، واشار ايضا (انه لمن الخطأ التلاعب بقرارات نيقيا والقسطنطينية في هذا الشأن) (٣٦١) .

ولم يكن رد فعل الكنيسة البيزنطية عنيفا الا بعد سنة ٨٥٠ واعتراضها له جانبان الاول ان المجالس الدينية العالمية منعت منعا باتا التلاعب بالقرارات الدينية . وان كان لا بد من التعديل في بعض النصوص فلا بد من موافقة مؤتمر ديني عالمي على ذلك . والثاني هو اعتقاد الكنيسة الارثودوكسية بان موضوع الفليوك غير صحيح من ناحية دينية . حيث قالت بان روح

361) Ibid, 58

القدس تصدر من الاب وحده ، وانه من الكفر القول بانها تصدر من الابن ، وان الفليوك يخل بتوازن عناصر الثالوث ويؤدي الى فهم خاطىء عن طبيعة روح القدس . (٣٦٢) .

وبالاضافة الى الادعائات البابوية في السيادة الروحية العالمية والجدل الفليوكي ، هناك قضايا اخرى اثارت الخلاف بين الكنيستين كقول البابوية بالعصمة Infallibility . اذ اعتبرت الكنيسة الشرقية ان البابوات فهموا بصورة خاطئة معنى « الاقدمية » لاسقف روما كما جاء في قرار مؤتمر القسطنطينية سنة ٣٨١ . فالاقدمية لا تعني التسلط على الكنائس الاخرى، وان رؤوساء الاساقفة سواسية في الحقوق ولا تسلط لقرين على اخر . كما ان العصمة ليست من حق البابوية . لان العصمة عن الخطأ في تاويل التعاليم الدينية وما جاء به الكتاب المقدس وغيرها من امور رئيسية هي من حق المجلس الديني العالمي .

هذا وهناك نقاط صغرى لعبت دورا كبيرا في الخلاف كتشديد كنيسة روما على قاعدة العزوبية لرجال الدين كافة والاختلاف حول الطقس الديني المسمى بسر التناول او اليوخارست . اذ استعملت الكنيسة الشرقية الخبز المختمر *Leavened bread* بينما فضلت كنيسة روما الخبز الفطير (٣٦٣) لقد ازداد الخلاف بين روما الاولى والثانية حدة على اثر التنافس بين المبشرين الرومانيين والارثوذكسي في المناطق السلافية . ونقطة الاصطدام هي بلغاريا . اذ ان الملك بوريس Boris اعتنق المسيحية حسب المذهب الارثودوكسي سنة ٨٦٤ غير انه اشترط ان تكون الكنيسة البلغارية مستقلة عن الكنيسة البيزنطية . وعندما جوبه بالرفض قرر اتباع مذهب كنيسة روما ، وامر بشن حملة اضطهاد ضد الارثودوكسية لاعتبارها تخالف المعتقد الاصلي في زواج رجال الدين والفليوك وسر التناول وغيرها (٣٦٤) .

ان نشاط الكنيسة الغربية في بلغاريا وجهات البلقان اثار قلق فوتيوس لذا اصدر رسالة الى كافة الكنائس الشرقية مستهجنا فيها ادخال الفليوك في العقيدة متهما الذين يقولون بالفليوك بالمروق الديني . وعليه عقد

---

362) Ibid, 59
363) Ibid, 63
364) Ostrogorsky, op. cit. 205

فوتيوس مؤتمرا دينيا في القسطنطينية سنة ٨٦٧ اعلن فيه انزال عقوبة التحريم في حق البابا نيقولا الاول (الذي عاش في بستان المسيح فسادا) ٣٦٥ ويشار لى هذه الحادثة في التاريخ الكاثوليكي بفتنة فوتيوس . اما التاريخ الارثودوكسي فيشير لها بفتنة نيقولا .

وفي تلك المرحلة الحرجة من النزاع تغير الوضع بصورة مفاجئة على اثر وفاة البابا نيقولا الاول والانقلاب السياسي الذي دبره باسيل الاول ضد الامبراطور ميخائيل الثالث . اذ حاول استرضاء المعارضة الدينية فأمر باقالة فوتيوس وارجاع اكناتيوس الى بطرقية القسطنطينية والى التقرب من البابوية . ثم اسفر تقاربه مع روما الى عقد مؤتمر في العاصمة البيزنطية سنة ٨٦٩ تقرر فيه تعديل القرارات المتخذة في سنة ٨٦٧ ضد البابوية .

ومع ذلك فان المشكلة لم تسو نهائيا مع كنيسة روما اذ عادت ثانية على اثر وفاة اكناتيوس سنة ٨٧٧ وتولى فوتيوس منصب رئاسة البطرقية في القسطنطينية وسناتي على ذلك في موضوع الاسرة المقدونية .

العلاقات البيزنطية الاسلامية —

لقد خاض البيزنطيون غمار الحرب ضد المسلمين في الفترة التي نحن في صددها في جبهتين ، شرقية ضد العباسيين في جهات اسيا الصغرى واخرى غربية ضد الاغالبة في شمال افريقيا . اذ حاول نقفور الاول الغاء الاتفاقية التي عقدتها ايرين مع الخليفة العباسي المهدي ، واسترجاع الاتاوات التي دفعتها . فاستشاط هارون الرشيد غضبا واجابه برسالة مقتضبة شهيرة جاء فيها « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم . حقا يا ابن الكافرة قرأت رسالتك . اما الجواب فلعينك ان تراه لا لاذنك ان تسمعه (٣٦٦) » . وشن الرشيد عدة حملات في سنة ٨٠٦ انتهت بمعاهدة فرضت فيها الجزية على الامبراطور نفسه وعلى افراد عائلته بالاضافة الى الاستمرار في دفع الاتاوات السابقة .

عاود العباسيون هجماتهم على الامبراطورية البيزنطية بعد انتهاء المشكلة القائمة حول العرش بانتصار المأمون على اخيه الامين . ولجأ المأمون

365) Ware, op. cit., 64
366) Hitti, History of the Arabs (London, 1960) 300

لمقاومة البيزنطيين بخطتين الاولى اشعال الفتنة في داخل الامبراطورية والثانية مهاجمتها عسكريا . اذ اسهم في تأجيج ثورة في الامبراطورية البيزنطية سنة ٨٢١ في عهد الامبراطور ميخائيل الثاني . حيث مد الخليفة المأمون يد المساعدة الى الثائر توماس **Thomas في اسيا الصغرى** . وكان هذا عسكريا تابعا في بدايته لقيادة ميخائيل . وانضوى تحت رايته كافة الناقمين على الحكم البيزنطي في تلك الجهات من سلاف وارمن . واظهر نفسه نصير الفقراء والمدافع عن الايقونية . اتخذت حركته طابع ثورة اجتماعية (تجاسر فيها العبد على سيده والجندي على ضابطه) (٣٦٧) . ويقول المؤرخ فاسيليف (لقد استغل توماس التذمر الديني المتسبب عن الايقونية وكذلك نقمة الاقنان والعبيد على اسيادهم الاقطاعيين ، وادعى كذلك بانه ابن الامبراطورة ايرين) (٣٦٨) . وتوج توماس امبراطورا في مدينة انطاكيا بمساعدة المأمون . وادت ثورته الى حرب اهلية شعواء ، سفكت فيها دماء غزيرة ، وقد انحازت قطع من الاسطول البيزنطي الى جانبه . وحاصر القسطنطينية برا وبحرا ٨٢١ — ٨٢٣ غير انه اضطر للتقهقر نتيجة للمساعدات التي قدمها **ملك البلغار او مورتاك ٨٢٣ Omurtag**

الى الامبراطور ميخائيل الثاني . كما وقع توماس اسيرا في قبضة ذلك الامبراطور الذي قضى باعدامه بعد تعذيب شديد . واستمرت ذيول الثورة لمدة تقرب من السنتين (٣٦٩) . واسفر فشل الثورة عن نتائج هامة ، منها التشديد في منع عبادة الايقونات . واحدثت تغييرات اجتماعية اساسية في اسيا الصغرى . اذ ادت الى تدمير طبقة المزارعين الصغار واستحواذ كبار الاقطاعيين على املاكهم ، واصبحت هذه الفئة الاقطاعية الكبيرة مصدر متاعب جمة للحكومة البيزنطية في القرن العاشر (٣٧٠) .

تمكن المأمون من احراز انتصارات في اسيا الصغرى سنة ٨٣١ على جيوش الامبراطور تيوفيلوس في ثلاث غارات . استولى فيها على ممرات جبال طوروس ذات الاهمية الاستراتيجية . فاضطرت الحكومة البيزنطية لارسال وفد الى بغداد للمفاوضة من اجل الصلح سنة ٨٣٣ . ولم تأت جهود

---

367) Ostrogorsky, op. cit., 182.
368) Vasiliev, op. cit., 274-275.
369) Ostrogorsky, op. cit., 182
370) Vasiliev, op. cit., 275-276

الوفد بنتيجة ايجابية نظرا لوفاة المأمون في تلك السنة ، وقد انتهز ثيوفيل وفاة المأمون فتوسع على حساب المناطق الاسلامية في الاناضول مما اضطر الخليفة المعتصم ان يجرد حملة سنة ٨٣٨ استرد فيها المناطق الاسلامية واستولى على مدينة عمورية موطن الاسرة الحاكمة . وكان في نية المعتصم الزحف على القسطنطينية . غير انه اضطر الى الرجوع الى العراق لارتباك الوضع هناك (٣٧١) . ان الانتصارات التي احرزها كل من المأمون والمعتصم اثارت فزع الامبراطورية البيزنطية مما حدى بالامبراطور ثيوفيل ان يستنجد بلويس الورع LewisPious الامبراطور الكارولنجي ، وان يفاتح الامويين في الاندلس في عهد عبد الرحمن الاوسط من اجل تكوين حلف ضد العباسيين . غير ان جهوده لم تأت بنتائج عملية (٣٧٢) . وعلى كل فقد توقفت الهجمات الاسلامية في المشرق ضد الامبراطورية البيزنطية منذ ذاك التاريخ حتى نهاية الاسرة العمورية/نظرا لانشغال العباسيين في امورهم الداخلية ، كذلك لم يحاول البيزنطيون القيام باعمال عدوانية على نطاق واسع نظرا لارتباك اوضاعهم اثر وفاة الامبراطور ثيوفيل .

اما في الجبهة الغربية فقد اخذت دولة الاغالبة التي تكونت في السنة الاولى من القرن التاسع تشكل خطرا على تلك الجهات الاوربية . وواتت الفرصة الاغالبة في عهد زيادة الله الاول ٨١٧ — ٨٣٨ لبسط نفوذهم على جزيرة صقلية ، وذلك على اثر استنجاد ثوار سيراكوز بالمسلمين ضد السلطة البيزنطية سنة ٨٢٧ . وارسل زيادة الله حملة مكونة من سبعين سفينه وعشرة الاف مقاتل وسبعمائة فارس بقيادة اسد بن الفرات الذي توفي هناك على اثر موجة طاعون . ومع ذلك فقد تمكن المسلمون من الاستيلاء على بالرمو سنة ٨٣١ واستمرت العمليات العسكرية في صقلية حتى مطلع القرن العاشر (٣٧٣) .

هذا وقد اندفع الاغالبة من صقلية الى شبه الجزيرة الايطالية ، فاغاروا على نابلي سنة ٨٣٧ بعد ان استنجد بهم السكان ضد بعضهم البعض ،

---

371) Hitti, op. cit., 602-607
372) Vasiliev, op. cit., 276
273) Hitti, op. cit., 602-607

ثم استولوا على باري على ساحل الادرياتيك بعد اربع سنوات من ذلك التاريخ ، واصبحت القاعدة الاساسية في ايطاليا لمدة ثلاثين سنة . واضطر البابا جون الثامن ان يدفع لهم الاتاوات لمدة سنتين . وقد وقعت معظم الاملاك البيزنطية في ايطاليا بيد المسلمين قبيل مجيء النور ماندين في القرن الحادي عشر (٣٧٤) .

البيزنطيون والبلغار —

اصبحت بلغاريا دولة قوية في بداية القرن التاسع . وتمكن ملكهم كروم Krum من الانتصار على الجيوش البيزنطية وقتل الامبراطور نقفور سنة ٨١١ ، ثم حاصر القسطنطينية سنة ٨١٣ غير ان العاصمة تخلصت من خطره عند موته اثناء الحصار . وقد فضل ابنه امورتاك ٨١٥ — ٨٣١ عقد هدنة مع الامبراطور ليو الخامس لثلاثين عاما (٣٧٥) . ثم عادت المواقف السلبية بين الطرفين في النصف الثاني من القرن التاسع ، ولم يمنع اعتناق الملك بوريس Boris المسيحية سنة ٨٦٤ من استمرار العداء بين الطرفين .

---

374) Ibid, 604-606
375) Baynes and Moss, op. cit., 344-345

ابـــاطرة العصر اللاأيقوني الثاني

Nicephorus I : 802 - 811

Stauracius : 811

Michael I : Procapia Rangalie : 811 - 813

Leo V : 813 - 820

Amorian Dynasty : 820 - 867

Michael the Stammerer : 820 - 829

Theophilius : 829 - 842

Michael III : The Drunkard : 842 - 867

الفصل الثامن

الاسرة المقدونية — The Macedonian Dynasty

٨٦٧ — ١٠٥٦

مؤسس الاسرة . السياسة الداخلية . الاصلاحات القانونية

المشكلة الاقطاعية . السياسة الدينية والفتنة الكبرى

القطيعة بين الكنيستين الغربية والشرقية

استعراض تاريخي للمشكلة ، العلاقات مع

المسلمين والبلغار . الحركة الفكرية

يعتقد بان مؤسس الاسرة المقدونية باسل الاول Basil ٧٦٧ — ٨٨٦ من سلالة ارمينية استوطن مقدونيا . بدأ حياته مغمورا في القسطنطينية . غير ان قابلياته الجسمانية جلبت انتباه بار داس عم الامبراطور ميخائيل الثالث فظلله بحماه . وقد دبر قتل بارداس سنة ٨٦٦ . ثم اشركه ميخائيل الثالث في حكم الامبراطورية واعلن نفسه امبراطورا على اثر اغتياله ميخائيل الثالث (٣٧٦) .

---

376) Deanesly, op. cit., 416

السياسة الداخلية —

بلغت الامبراطورية اوج عظمتها في عهد هذه الاسرة وخاصة فـــي المجالات الداخلية . اذ تركزت سياستهم في معالجة ثلاثة امور هامة —

١ — الاصلاحات القانونية —

وجه باسل الاول اهتمامه لاعادة النظر في الشريعة الرومانية لجعلها مسايرة للتطورات في الامبراطورية . اذ اعتقد بان شريعة جستنيان اصبحت بالية في جوانب متعددة ولم تعد لتصلح الى عصره ، وكذا كان انطباعه عن قوانين الاسرة الايسورية . لهذا اراد ان يضع شريعة جديدة غير انه لم يوفق سوى اصدار مجموعتين قانونيتين الاولى سنة ٨٧٩ والمسماة علـــم القانون Prochiron والثانية المقدمة القانونية Epanagoge سنة ٨٨٦ (٣٧٧) . بحث علم القانون في القضايا المدنيـــة ويحتوي على اربعين موضوعا . وبالرغم من ان باسل حاول وضع شريعة جديدة تتناسب والتطور الزمني في الامبراطورية الا ان علم القانون اعتمد الى حد كبير على كتاب المقتطفات القانونية Institutes والى درجة اقل على الشريعة الايسورية (٣٧٨) . اما المقدمة القانونية فهي عبارة عن مدخل الى الاجزاء القانونية ، استندت على كتاب علم القانون وعلى الاكلوكيا وشرحت المقدمة الفروق بين المصالح العامة والخاصة ، وتناولت تحديد مراكز الطبقات الاجتماعيـــــة وعلاقة الدولة بالكنيسة (٣٧٩) .

ولعل اخر التطورات الدستورية في عهد باسل الاول جعل وراثة العرش حقا مقتصرا على افراد العائلة الامبراطورية الذين يولدون في القصر(٣٨٠). وقد عمل ليو السادس ٨٨٦ — ٩١٢ على اكمال ما بدأبه والده في مجالي التشريع وحصر وراثة العرش في نسله . اذ اصدر الشريعة المسمـــــاة بالقوانين الامبراطورية Basilics في فترة ٨٨٧ — ٨٩٣ . وتقع تلك الشريعة في ستين كتابا ومن اشهر اجزائها هو الكتاب الباحث في تنظيم

377) Ibid, 419
378) Ostrogorsky, op. cit., 213
379) Ibid, 214
380) Deanesly, op. cit., 419

الحياة اليومية في داخل القسطنطينية والمسمى Eparch والذي تناول مركز النقابات القانوني وكيفية المحافظة على الامن وصيانة حقوق الاحتكار. وتناولت شريعته التنظيم الاداري للامبراطورية . اذ حدد عدد المناطق الثغرية بخمس وعشرين منطقة وحدد رواتب ثابتة لحكامها (٣٨١) .

ان محاولته حصر وراثة العرش في نسله ولد له مشاكل مع الكنيسة في القسطنطينية . فقد تزوج اربع مرات من اجل انجاب وريث ذكر للعرش. الا انه من ناحية دينية وقانونية لايجوز الزواج لرابع مرة . واضطر لاقالة البطريق نيقولا لمعارضته في ذلك الموضوع . واحتكم ليو السادس الى روما في موضوع زواجه وكانت النتيجة بجانبه (٣٨٢) .

٢ ــ المشكلة الاقطاعية .

شهد القرن العاشر اتساعا متزايدا في مساحات الاراضي التي يمتلكها كبار الاقطاعين وازديادا كبيرا في نسبة الفقراء . ويرى البعض ان ثقل الضرائب ورداءة المحاصيل وعدم استقرار الامن من جراء تمرد الجيش والثورات الداخلية من العوامل التي ادت الى اشتداد نفوذ امراء الاقطاع في ذلك القرن . اذ ان القسم الاكبر من صغار الملاكين والفلاحين الاحرار طلبوا حماية المتنفذين الاقطاعيين مقابل تنازلهم عما يمتلكونه والسماح لهم بالانتفاع من محاصيل الارض . وقد اصبح نفوذ امراء الاقطاع خطرا على ممتلكات الدولة الاقطاعية العسكرية . لهذا اصدر حكام الاسرة المقدونية عدة مراسيم للحد من نفوذ هؤلاء . اذ اصدر الامبراطور رومانوس الاول سنة ٩٢٢ مرسوما منع فيه الملاكين الكبار من وضع اليدعلىممتلكات الفلاحين باية طريقة كانت وامر بارجاع كافة الاقطاعات العسكرية التي اصبحت تحت تصرف الملاكين الى الدولة . واصدر مرسوما اخرا سنة ٩٣٤ حتم فيه على الاقطاعيين ارجاع ما استحوذوا عليه من اراضي بطرق غير قانونية . ومنح الحق للفلاحين في استعادة ما باعوه الى الملاكين بنفس المبالغ التي استلموها اثناء البيع (٣٨٣) . ومع ذلك فلم يكتب لهذه السياسة النجاح ، حيث اضطر نقفور فوكاس ٩٦٣ ــ ٩٦٩ الى الغاء كافة التشريعات الموجهة ضد

381) Ibid, 720
382) Ibid, 420
383) Vasiliev, op. cit., 346

الاقطاعيين (٣٨٤) . ان تعاظم نفوذ هذه الطبقة الاقطاعية اصبح يهـــدد كيان الامبراطورية في عهد باسل الثاني ٩٧٦ ـــ ١٠٢٥ . وتمثل سياسته تجاه امراء الاقطاع اخر محاولة رسمية للحد من اتجاهاتهم اللامركزية . اذ اصدر عدة مراسيم سنة ٩٩٦ ناشد فيها الاقطاعيين ارجاع الاراضي التي حصلوا عليها بعد سنة ٩٣٤ . اما الاراضي التي وقعت بايديهم قبل ذلـــك التاريخ فتبقى لهم ان لم ينازعهم احد على ملكيتها . ثم اجبر الاقطاعيين على دفع الضرائب المفروضة على الفلاحين . وقد توخى باسل الثاني السياسة المركزية في الحكـــم ومساواة الافراد امـــــام القانون والتقليل من شأن الارستقراطية . غير ان هذه السياسة لم تستمر طويلا حيث فضل الاباطرة منذ عهد رومانوس الثالث ١٠٢٨ ـــ ١٠٣٤ التوفيق بين مصالحهم ومصالح الاقطاعيين .

٣ ـــ السياسة الدينية ـــ

لعل اهم حدث في تاريخ النزاع الطويل بين كنيستي روما والقسطنطينية هو القطيعة التامة بينهما سنة ١٠٥٤ . اذ انقسم على اثرها العالم المسيحي الى فريقين هما الكاثوليك اتباع كنيسة روما والارثودوكس اتباع الكنيسة الشرقية. ففي احد ايام الصيف عصرا في السنة السابقة وقبيل ابتداء الصلاة في كنيسة الحكمة المقدسة (ايا صوفيا) في القسطنطينية دخل الكردينال همبرت Humbert الممثل البابوي بصحبة اثنين من رجال الدين وتقدموا نحو منصة البطريق واضعين امامه قرار التحريم ثم خرجوا على عجل . وعند وصول الكردنيال باب الكنيسة الغربي اخذ ينفض عن قدميه الغبار متمتما (ليحكم الله) . وقد هرع اليه احد الشمامسة راجيه استرجاع المرسوم البابـــوي بدون جدوى . فاضطر الشماس الى القاء المرسوم في قارعة الطريق . تعتبر هذه الحادثة عادة بداية الفتنة الكبرى بين الكنيستين الارثودوكسيـــــة في الشرق والرومانية في الغرب (٣٨٥) . غير ان المتأمل فـــي تاريـــخ العلاقات بين الكنيستين يجد انه من المتعذر اعطاء تاريخ معين لبدايـــــة

---

384) Ibid, 347, see also, Psellus, Fourteen Byzantine rulers, (Middlesex, 1964) 28-29.
385) Ware, op. cit., 51.

الانشقاق بين الكنيستين . فالفتنة الكبرى عبارة عن حدث تدريجي نتيجة لعلاقات سلبية معقدة عبر قرون طويلة تمثلت في الفروق الثقافية والسياسية والاقتصادية بين العالمين الغربي والشرقي ، وانعكست في نقاط الاختلاف بين الكنيستين حول الزعامة الروحانية العالمية للبابوية والفيلوك والعصمة وقضايا جزئية اخرى .

ان العالم الروماني عند بداية التبشير بالرسالة من قبل بولس وبطرس عبارة عن وحدة ثقافية وسياسية . فمع أن الامبراطورية الرومانية متألفة من شعوب متعددة لها ثقافاتها الخاصة ولغاتها المحليةغير انها على اختلافها تخضع لحكم امبراطوري موحد . كما ان هنالك خطوطا ثقافية عامة توحد بين هذه الشعوب هي خطوط الثقافة اليونانية - الرومانية وان اللغتين اليونانية والرومانية مفهومتان في كافة جهات الامبراطورية غير ان تلك الوحدة اخذت في الاختفاء تدريجيا . فمنذ نهاية القرن الثالث قسمت الامبراطورية الى شرقية وغربية ولوان التقسيم كان لاغراض ادارية ولا يقصد منه الفصل بين الجانبين الا انهما اخذا يتباعدان من ناحية ادارية واسرع قسطنطين في عملية التباعد بدون قصد منه حينما انشأ القسطنطينية (٣٨٦) . ثم جاءت الغزوات الجرمانية البربرية في بداية القرن الخامس واصبحت الاجزاء الغربية ما عدا قسم من الاجزاء الايطالية ، تحت السيطرة الجرمانية . ومع ذلك فلم ينس البيزنطيون مثل روما العليا في عهدي اغسطس وتراجان واستمروا معتبرين امبراطوريتهم عالمية من ناحية نظرية على الاقل . وكان جستنيان اخر الاباطرة الذين حاولوا الجمع بين النظرية والواقع في شان وحدة الامبراطورية وسيادتها . لذا عمل على تحقيق ذلك بالفتوحات العسكرية في الاقسام الغربية لاخضاعها للسلطة الرومانية . كما ان ظهور الاسلام وسيادته على البحر المتوسط اسرع في عملية انفصال القسم الغربي عن الشرقي .

ونتيجة لهذا الانعزال بين القسمين كون القسم الغربي امبراطورية رومانية خاصة اكان ذلك عن شعور منه او عدمه (٣٨٧) . وذلك عندما

386) Ibid, 52
387) Baraclaugh, History in a Changing World (Oxford 1957) 110.

توج البابا ليو الثالث شارلمان امبراطورا سنة ٨٠٠ . وحاول شارلمان عبثا ان يكون امبراطورا اوحد أ . وعليه فان امبراطورية شارلمان لم تساعد على تقارب القسمين الشرقي والغربي بل ادت الى ابتعاد الجزئين عن بعضهما البعض اكثر من السابق .

ومع ان الانفصال الثقافي لم يأت الا بعد مدة من الانفصال السياسي الا ان الاختلافات الثقافية بين القسمين اخذت تبرز بشكل واضح في العصر الهرقلي . اذ اخذت الفوارق اللغوية تظهر بوضوح ، واصبح من الصعب التفاهم باللغة اليونانية في الغرب او اللاتينية في الشرق ، حتى ان فوتيوس العالم اللاهوتي في الشرق كان جاهلا بنطق اللاتينية . وتوضح التباعد الثقافي بين القسمين بازدراء البيزنطيين لما يسمى بالنهضة الكارولنجية معتبرين اياها قيما بربرية (٣٨٩) . ولم يحاول اساطين الثقافة الكارولنجية الاخذ من الثقافة البيزنطية بل انهم حاولوا خلق ثقافة مسيحية جديدة خاصة بهم (٣٩٠) .

انالاختلافات السياسية والثقافية جعلت من الصعب على الكنيسة الاحتفاظ بالوحدة الدينية وادت الى ظهور فوارق دينية بينهما كما حدث ذلك فعلا في عهد شارلمان . اذ اعتبر الاخير ان الكنيسة البيزنطية خارجة عن الحضيرة المسيحية لعدم اعترافها بالفليوك (٣٩١) .

ان تلك الفوارق السياسية والثقافية بين الجزئين انعكست في مواقف الكنيستين الغربية والشرقية تجاه بعضها البعض ، ظاهرة بأشكال مختلفة ، متطورة من نقاط بسيطة جزئية الى اتجاهات رئيسية كما مرينا سابقا . فزوال السلطة الرومانية من ايطاليا فسح المجال امام البابوية ان تتجه اتجاهات سياسية ودينية اتوقراطية . وان الامية التي ضربت اطنابها في اوربا حتمت على الكنيسة ان تؤسس كوادر ثقافية لها . ونتج عن ذلك ان رجال السلك الكهنوتي في الغرب لا يمكنهم الانخراط في ذلك السلك الا اذا اعدتهم الكنيسة منذ البداية لهذا الغرض . بينما اتجهت الكنيسة الشرقية الى الى العكس من ذلك لازدهار الثقافة في الامبراطورية البيزنطية فيجوز لاناس

389) Ware, op. cit., 53-54
390) Leff, op. cit., 55-72
391) Ware, op. cit., 54

مثقفين خارج المؤسسات الكنيسة بثقافة دينية ان يتولوا مناصب كنسية ، وهكذا لم يتكون في الكنيسة الشرقية ذلك السور الحاجز بين العلمانيين واشتغالهم بالامور الدينية (٣٩٢) .

كما وان الثقافة الهلنستية والشرقية قد طبعت العقلية البيزنطية بطابع يختلف عما هو عليه في الكنيسة الغربية التى حاولت التوفيق بين التراث الروماني والمسيحية والقيم البربرية . وادى ذلك حسب رأي قسم من المؤرخين الى اختلاف بين العقليتين اللاتينية والبيزنطية في تفهم العقيدة . اذ وصفت العقلية اليونانية بانها عقلية تأملية بينما اللاتينية عقليه واقعيه . فعندما يتحدث رجال الكنيسة الغربية مثلا عن صلب المسيح ينظرون اليه كتضحية بينما ينظر اليه البيزنطيون بانه انتصار لا تضحية . وحينما يتحدث الغربيون عن العصمة يفهمونها وكأنها ارادة الامبراطور الروماني في التشريع والسيادة العالمية (٣٩٣) .

وعلى كل فقد دخلت الكنيستان الغربية والشرقية في صراع مكشوف اثناء حكم الاسرة المقدونية اسفر عما يسمى بالفتنة الكبرى The great schism متوضحا في المشاكل الاتية —

(١) — **تضارب المصالح البابوية والبيزنطية في بلغاريا —**

اعتبرت البابوية بلغاريا تابعة الى منطقة نفوذها الاداري والروحي بينما

اعتبرتها الحكومة البيزنطية تابعة الى منطقة نفوذها السياسي والديني. وكان التنافس شديدا في بلغاريا بين المبشرين الكاثوليك والارثدوكس . وتعقدت الامور بين الجانبين نتيجة لاتجاه الملك بوريس المتقلب بين الكنيستين الشرقية والغربية (٣٩٤) . اذ لم ير بوريس في اعتناق الكثلكة فائدة لحكمه المركزي اذ تعنتت البابوية في موضوع استقلال الكنيسة البلغارية ولم تعد مستعدة ان تمنح الكنيسة في بلغاريا استقلالا ذاتيا . لهذا قرر الملك بوريس سنة ٨٧٠ الرجوع الى المذهب الارثودوكسي وامر بطرد رجال الكنيسة

392) Ibid, 55
393) Ibid, 56
394) Neill, op. cit., 84-87

الرومانية من بلغاريا . وتشير بعض المصادر التاريخية الى ان ارجـــاع فوتيوس الى بطرقية القسطنطينية ثانية ٨٧٧ — ٨٨٦ كان نتيجة لتأزم الوضع بين روما والقسطنطينية حول المشكلة البلغارية .

ويعتقد البعض ان سياسة فوتيوس الدينية ادت الى خلق فتنة اخـرى بين الكنيستين يشار لها بفتنة فوتيوس الثانية (٣٩٥) . غير ان هناك رأيا اخرا جاء به المؤرخ دفورنك **Dvornik** يناقض الرأي السالف اذ اثبت ان البابوية كانت في علاقات طبيعية مع فوتيوس عند توليه رئاسة بطرقيـة القسطنطينية للمرة الثانية . وذلك لمصالحته مع جماعة اكتاتيوس ولالغاء قراراته السابقة ضد الكنيسة الرومانية في المؤتمر الديني المنعقد سنـــة ٨٧٩ . لهذا فان فتنة فوتيوس الثانية التي استمرت على السنة المؤرخين حتى العصور الحديثة ما هي الا خرافة تاريخية (٣٩٦) . غير انه يعترف من ناحية ثانية بان العلاقات الطبيعية بين البابا جون الثامن وفوتيوس ، ما هي الا هدنة موقتة . اذ لم يتخذ الطرفان اية اجراءات فعلية لازالة اسباب الخلاف الاساسية في موضوعي بلغاريا والفليوك والعصمة والزعامـــة العالمية .

هذا وان سياسة نقفور فوكاس ٩٦٣ — ٩٦٩ في اقصاء النفوذ البابوي من الممتلكات البيزنطية في ايطاليا ادت الى توسيع الخلاف بين الكنيستين. ورأت البابوية في ملوك الجرمان حلفاء جدد ضد البيزنطيين . وهذا ما حدى بالبابا ان يخاطب نقفور فوكاس (بالامبراطور الاغريقي بدلا من اللقب المعتاد الامبراطور الروماني) اذ منح البابالقب امبراطورية الرومان الى أتو الاول الجرماني المتوج سنة ٩٦٢ (٣٩٧) .

ب — سجل الشـرف الديني   Diptychs

اما الحدث الاخر فهو موضوع الشرف الديني ، اذ جرت العادة ان تحتفظ كل بطرقية من البطرقيات الكبري بسجــــل خاص تدون فيه اسماء رؤساء البطرقيات كاعتراف بزعامتهم الروحانية . وقد رفضت كنيسة القسطنطينية

---

395) Vasiliev, op. cit., 332
396) Ware, op. cit., 64
397) Ibid., 65

ادراج اسم البابا سرجيوس الرابع سنة ١٠٠٩ بذلك السجل . وسبب ذلك ان البابا بعث برسالة الى رئيس اساقفة القسطنطينية تحتوي على عبارة الفليوك . ولم تحاول الكنيسة الارثوذوكسية الرد على تلك الرسالة وكل ما عملته عدم ادراج اسمه في السجل المذكور دلالة على انه حاد عن المعتقد الصحيح ، ولم تظهر اسماء البابوات في ذلك السجل منذ ١٠٠٩ (٣٩٨) .

واخذت العلاقات بالتدهور السريع بين الجانبين عندما توجت الكنيسة الامبراطور الجرماني هنري الثاني في كنيسة القديس بطرس في روما سنة ١٠١٤ وادخال الفليوك في تلك المراسيم الدينية . كما ان تأييد البابوية لسياسة النورمانديين العدائية في ايطاليا ضد الأملاك البيزنطية واجبار الكنائس الشرقية هناك على اتباع الطقوس الغربية كان له اسوأ الاثر في العلاقات بين الكنيستين في النصف الاول من القرن الحادي عشر . ولهذا فقد امر بطريق القسطنطينية كرولا ريوس باغلاق كافة الكنائس اللاتينية في الامبراطورية التي تأبى اتباع الطقوس الارثوذوكسية سنة ١٠٥٢ . ومع ذلك فقد حاول البطريق التراجع عن خطوته . اذ بعث برسالة الى البابا ليو التاسع تضمنت اقتراح ادراج اسمه في سجل البطارقة في القسطنطينية فيما لو وافق على ايجاد تسوية للمشاكل القائمة بينهما عن طريق مؤتمر ديني يعقد في العاصمة البيزنطية . وقد استجاب البابا فعلا لذلك الاقتراح فاوفد الكردنيال همبرت . الا أن تصرفات الاخير قد عكرت الجو بين الجانبين . فلم يكن اختيار همبرت لرئاسة الوفد البابوي اختيارا موفقا لانه شديد المراس متعصبا لارائه . وعليه فلم يكن اللقاء الاول بين همبرت وبطريق القسطنطينية لقاء وديا . ورفض الاخير التفاوض مع الوفد البابوي (٣٩٩) . لهذا اقدم همبرت على الخطوة التي اجمالناها سابقا حيث ادت الى الفتنة الكبرى . وقد اصدر بطريق العاصمة البيزنطية بدوره قرار التحريم ضد الوفد البابوي . وقد ايدت كل من انطاكيا والقدس والاسكندرية تصرفات البطريق كرولا ريوس في هذا الشأن (٤٠٠) .

---

398) Ibid., 66
399) Ibid., 67
400) Vasiliev, op. cit., 339

الاسرة المقدونية والمسلمون .

تمخضت علاقة الاسرة السلبية تجاه المسلمين عن سلسلة من الحروب في المشرق والمغرب . اذ استغل الامبراطور باسل الاول ارتباك الاوضاع في الدولة العباسية نتيجة لاستقلال الطولونيين في مصر وتسلط الاتراك على الخلفاء فوسع حدوده في جهات اسيا الصغرى . اما في المغرب فان استيلاء المسلمين على مالطة وتوغلهم في صقلية وشبه الجزيرة الايطالية وتهديدهم الممتلكات البيزنطية هناك ادت الى اشتباك الطرفين في عهد الامبراطور ليو السادس ٨٨٦ — ٩١٢ ولم تسفر الحروب عن نتائج ايجابية بالنسبة للبيزنطيين .

غير ان البيزنطيين احرزوا انتصارات على المسلمين في النصف الثاني من القرن العاشر . اذ تم الاستيلاء على جزيرتي كريت وقبرص وعلى قليقيا في عهد الامبراطور رومانوس الثاني ٩٥٩ — ٩٦٣ . ووسعوا حدودهم في جهات الفرات العليا الى ما وراء الرها . واحرز الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩) انتصارات متعددة على الحمدانيين .

واصبحت امارة حلب تؤدي لهم الاتاوة . اما الامبراطور جون تيمسكي (٩٦٩ — ٩٧٦)فاراد انتزاع القدس من المسلمين حسب رسالة بعث بها الى ملك ارمينية اشوط الثالث . اذ بدأ رسالته (استمع ، واليك النبأ الرائع . لقد حررت سوريا وفلسطين من نير المسلمين . واعترفت تلك الاماكن بحكم الرومان (٤٠١) . وفي عبارة اخرى من هذه الرسالة (ان لم يختبيء عبدة الاوثان في قلاع الساحل فاننا سوف ندخل مدينة القدس المقدسة بعون الله ونصلي هناك) (٤٠٢) . ويتفق كل من فاسيليف واوستروكورسكي على ان الرسالة مبالغ فيها وانه لم يجرؤ على مهاجمة القدس خوفا من مغبة الامر . هذا وتمكن الفاطميون من ايقاف المشروعات البيزنطية التوسعية منذ بداية القرن الحادي عشر . واكتفى رومانوس الثالث ١٠٢٨ — ١٠٣٤ بعقد معاهدة مع الفاطميين تضمنت حرية العبادة للمسيحيين وترميم الكنائس .

401) Ostrogorsky, op. cit., 264
402) Vasiliev, op. cit., 312

الاسرة المقدونية والبلغار —

يرجع البلغاريون الى اصل اسيوي ، سكنوا جهات الدانوب وتاثروا بالشعب السلافي واصبحت اللغة السلافية لغتهم . نفذوا من حـــدود الامبراطورية سنة ٦٨٠ (٤٠٣) . واسست اسرة كوبارت Kubart اول مملكة بلغارية في اواخر القرن السابع متخذين ابوبا Aboba اوكما تسمى بليسكا Pliska عاصمة لهم . غير ان الحروب الاهلية كادت ان تعصف بوحدة تلك المملكة في اواخر القرن الثامن . الا ان القائد البلغاري كـــروم *Krum* ٨٠٢ — ٨١٢ تمكن من اعادة وحدة شعبه . ووصلت بلغاريا قمة مجدها في عهدي اومروتاك Amurtag ٨١٥ — ٨٣١ ثم بوريس Boris وجعل الاول برسلاف Preslav عاصمة له (٤٠٤) . واعتنق البلغاريون المسيحية في عهد بوريس ٨٥٢ — ٨٨٨ والذي تارجح فترة من الزمن كما اشرنا بين الكنيستين الغربية والشرقية بسبب رغبته في السيطرة علـــى الاملاك والادارة الكنيسة في بلغاريا . وقرر اخيرا اتباع كنيسة القسطنطينية. الا ان المعتقد الارثودوكسي لم يمنع بوريس من اتخاذ مواقف سلبية تجـــاه الامبراطورية البيزنطية . اذ اخذ يحلم هذا بالاستيلاء على القسطنطينية . وقد اتخذ الملك البلغاري سيمون الكبير ٨٩٣ — ٩٢٧ لقب امبراطور البلغار والاغريق بعد ان كتب له النصر على الجيوش البيزنطية في موقعة انخيالوس Anchialos سنة ٩١٧ (٤٠٥) . واصبحت العاصمة البلغارية في عهده تضاهي العاصمة البيزنطية ابهة وعظمة . وقد توصل البلغاريون والبيزنطيون الى هدنة في عهد الملك البلغاري بطرس ٩٢٧ — ٩٦٩ . اذ تزوج اميـــرة بيزنطية . وقد وافقت كنيسة القسطنطينية على الاعتراف باستقلال بطرقية بلغاريا سنة ٩٤٥ (٤٠٦) .

تمكنت الاسرة المقدونية في عهد باسل الثاني ٩٧٦ — ١٠٢٥ من القضاء على استقلال بلغاريا سنة ١٠١٨ ولم يستعد البلغار استقلالهم الا في اواخر القرن الحادي عشر وادى تدمير الدولة البلغارية الى مواجهـــة الامبراطورية البيزنطية خطر قبائل البشمناق بصورة مباشرة .

---

403) Baynes and Moss, op. cit., 13
404) Ibid., 364
405) Ibid., 352
406) Ibid., 354

الحياة الفكرية —

وصلت الحياة الفكرية او جها في شتى المجالات الفنية والادبية والفلسفية في الامبراطورية البيزنطية في عهد الاسرة المقدونية . ويشار الى الرقي الفني في تلك الفترة بالعصر الذهبي الثاني « ٤٠٧ »، تمييزا له عن العصر الذهبي لاول في عهد جستنيان « ٤٠٨ » . اذ تم تمثيل القيم الهلنستية والمسيحية والشرقية فجادت الاذهان الفنية البيزنطية بروائع المنجزات في ذلك المضمار . كما وقد اسفر الصراع بين الايقونيين وخصومهم عن تحرر الافكار من الاسيجة المتزمته والاستفادة من وحي الطبيعة .

وتبنى الامبراطور ليو السادس ٨٨٦ — ٩١٢ الملقب بالحكيم رعاية العلماء والادباء ، كذلك فعل قسطنطين السابع ٩١٣ — ٩٥٩ الذي كان اديبا وفنانا. وقد ارخ هذا سيرة جده باسل الاول والف كتابا في ادارة الامبراطورية بحث فيه العلاقات الدبلوماسية للدولة البيزنطية مع الامم الاخرى . واحتوى كتابه على معلومات جغرافية واجتماعية قيمة . اذ تحدث فيه عن قبائل البشناق والهنغاريين والسلاف الصرب والارمن والبلغار وغيرهم .ثم الف الوحدات الثغرية (٤٠٩) .

واهتمت السلطات البيزنطية في منتصف القرن الحادي عشر بالدراسات العليا . حيث ظهرت فيعهد الامبراطور قسطنطين التاسع ١٠٤٢ — ١٠٥٥ طائفة من المثقفين بقيادة زيلوس *Psellus* جلبت انتباه الامبراطور في مساجلاتها حول اصلاح الشؤون التعليمية في المعاهد العليا . فارتأت جماعة منهم اصلاح التعليم الحقوقي بينما حاولت الاخرى التركيز على الدراسات الفلسفية ايضاً . واخذت الجماهير تبدي اهتماما في تلك المساجلات وانقسموا بين الرايين . واخيرا قرر الامبراطور تاسيس كليتي الحقوق والفلسفة « ٤١٠ » . وترأس زيلوس الكلية الاولى بينما تراس الثانية جون زيفيلين John Xiphilin وهو من ابرز قضاة الامبراطورية

---

407) Rice, op. cit., 77
408) Ibid., 76
409) Vasiliev, op. cit., 365.
410) Ibid., 366

انذاك « ٤١١ ». وخصصت الحكومة البيزنطية رواتب سنيــة للاساتذة في جامعة القسطنطينية والبسة رسمية للتدريس ومساكن خاصة وجعلت الدراسة مجانية ومتيسرة لكافة الطبقات . اما شروط القبول في جامعــة القسطنطينية فاعتمدت على الاهلية الثقافية فقط (٤١٢) .

لقد تمتع كل من زيلوس وصديقه زيفيلين بشهرة عالمية واسعــة في مجالات المعرفة . ويعتبر الاول من ابرز مؤرخي الفترة ومن اشهر كتبــه « اربعة عشر حاكما بيزنطيا » ٩٧٦ ــ ١٠٧٨ . وتولى رئاسة الوزارة ، واخيرا قرر الانعزال مفضلا الحياة الديرية (٤١٣) .

ومن اشهر ادباء العصر جون كيرياوتس John Kyriotes في القرن التاسع دون اشعاره الرمزية في ديوانه المسمى بالفردوس « ٤١٤ » . كما ويعتبر فوتيوس في القرن التاسع من اشهر الفلاسفة والادباء البيزنطيين (٤١٥) .

ان اعادة التنظيم للدراسات العليا في جامعة القسطنطينية في سنة ١٠٥٤ من الظواهر العلمية الكبرى في عصر الاسرة المقدونية . ولقد اهتم الاساتذة بصورة خاصة في التراث الكلاسيكي ، وتميزت الاثار الادبية البيزنطيـــة بمحاكات الاقدمين ولهذا اشار المؤرخ هسي الى تلك الكتابات بانها تقليــد ومحاكات للاقدمين (٤١٦) .

---

411) Psellus, op. cit., 13-18
412) Baynes and Moss, op. cit., 216-217
413) Psellus, op. cit., 13
414) Vasiliev, op. cit., vol. II, 565
415) Ostrogorsky, op. cit., 199
416) Hussey, op. cit., 152

اباطرة الاسرة المقدونية

The Macedonian Dynasty	: 867 - 1056
Basil I	: 867 - 886
Leo VI	: 886 - 912
Alexander	: 912 - 913
Constantine VII	
Poryphyrogenitus	: 913 - 959
Romanus II	: 959 - 963
Nicephorus II Phocas	: 963 - 969
John I zimisces	: 969 - 976
Basil II	: 976 - 1025
Constantine VIII	: 1025 - 1028
Romanus III	: 1028 - 1034
Michael IV	: 1034 - 1042
Constantine IX Manomachus	: 1042 - 1055
Theodora	: 1055 - 1056

الفصل التاسع

الاوضاع البيزنطية العامه

١٠٥٦ — ١٢٠٤

دور الاضطرابات ، ١٠٥٦ — ١٠٨١ — الاقطاعيون والبيروقراطيون — التنافس حول العرش — السلاجقه النورمان — الاسرة الكومنينيه — الكسيوس الاول ومشاكله — النورمان — البشناق والسلاجقه — الصليبيون سياسته الداخليه — جون كومنين الثاني مانويل الاول — الاسرة الانجيليه الحملة الصليبيه الرابعه

لقد اخذت الاوضاع السياسية في التدهور في الامبراطورية البيزنطية منذ وفاة باسل الثاني سنة ١٠٢٥ . فيذكر المؤرخ اوستروكورسكي (بان التنظيمات العسكرية الهرقلية قد انهارت في ذلك التاريخ . ولم يكن بمقدور السلطات البيزنطية الاستمرار في كفاح الاقطاعيين المتنفذين ولا الحيلولة دون استحواذهم على اراضي صغار الملاكين . وعملت هذه الظاهرة على تحطيم القوى الدفاعية وادت الى انهيار نظام الجباية ، واصبحت السلطة الامبراطورية اداة بيد الاقطاعيين العسكريين كانوا ام الاداريين

٤١٨ لهذا فقد انتابت الامبراطورية البيزنطية ازمات حادة توضحت بشكل عنيف منذ نهاية النصف الاول من القرن الحادي عشر ، تعرض فيها كيـان الامبراطورية الى مخاطر داهمة تمثلت بما يأتي :

١ — التنافس على العرش :

بـدأ النـزاع مـن اجـل العـرش بأخـذ اشكـالا حادة منذ اندراس العائلة المقدونية ١٠٥٦ واستمر لمدة خمس وعشرين سنة، كان التاج خلالها تتقاذفه الفئا تالعسكرية والسلطات البيروقراطية في العاصمة . ويشار الى هذا الصراع بيـن هاتين الفئتين بانه سباق بين السلطات المدنية في العاصمة والاستقراطية العسكرية في المناطق الثغرية للسيطرة على الامبراطورية ٤١٩ انتهى بفوز القوى العسكرية الاقطاعية .

نشأت المشكلة بين الجهازين البيروقراطي والعسكري عندما ايد الاداريون في العاصمة انتخاب ميخائيل السادس ١٠٥٦ . اذ عارض في انتخـابه رؤوساء الجيش في اسيا الصغرى وانتخبوا لهم اسحاق كومنين امبراطورا، وهو احد قادة الجيش في اسيا الصغرى ومن كبار الاقطاعيين . فاضطر ميخائيل السادس على التنازل عن العرش . وكان ذلك اول انتصار للفئة العسكرية على خصومها . اتبع الامبراطور اسحاق سياسة محايدة مكرسا الاهتمام لمعاجة الاوضاع الاقتصادية وللترفية عن صغار الملاكين غير ان سياسته هذه لم تلق قبولا في الاوساط الاقطاعية المتنفذة ونظرا لكبر سنه ومرضه فقد تنازل عن العرش سنة ١٠٥٩ فتولى بعده قسطنطين العـاشر وكان هذا رئيسا لمجلس الشيوخ ومن رجال الأعما لالصيرفية والتجارية ، رشحه للعرش رؤوساء الجهاز البيروقراطي في العاصمة ولم يكن مهتمـا كثيرا في الامور العسكرية . ويعتبر تسلمه العرش انتصارا للعاصمة على الولايات الثغرية او نصرا للجهات المدنية علـى الجيش والارستقراطية الاقطاعية . واصبحت المقاليد السياسية بيد زوجته يودوكيا لبضعة اشهر واضطرها الجيش على الزواج من القائد رومانوس دياوجين الذي اصبح امبراطورا تحت اسم رومانوس الرابع ١٠٦٨ — ١٠٧١ ، ويمثل اعتلاؤه

418) Ostrogorsky, op. cit., 283
419) Ibid., 284

العرش الانتصار الثاني للفئة العسكرية واتخذ هذا الامبراطور اجراءات هجومية ضد السلاجقة غير انه وقع في ايديهم في موقعة ما نزكرت ١٠٧١ . وقد فازت العاصمة على الجيش عند تولي ميخائيل السابع العرش . وكان هذا اديبا عزوما عن القضايا العسكرية ، ولم يكن ليصلح لحكم الامبراطورية

هذا اديبا عزوفا عن القضايا العسكريـــة ، ولم يكن ليصلح لحكم الامبراطورية في ظروف تناوحتها غزوات البشناق على البلقان واستئناف السلاجقة لتوسعاتهم في الجهات الشرقية . لذا اقصاه الجيش ١٠٧٨ عن العرش مستبدله بنقفور بوتانياس الا ان المرض اقعده عن مواجهة الصعاب التـــي تعرضت لها الامبراطورية في الداخل والخارج . فنحاه الجيش عن العـــرش سنة ١٠٨١ وسلم مقاليد الامور الى الكسيوس كومنين ، ويعتبر حكم الاخير نهاية عصر الاضطراب وانتصارا للجهات العسكرية ٤٢٠ .

٢ ــ السلاجقة :

ظهـــر السلاجقة على حدود الامبراطورية في اواخر النصـــــــــف الاول من القرن الحادي عشر وسمى هؤلاء بهذا الاسم نسبة الى جدهـــم سلجوق بن دقاق الذي كان تابعا لامبراطوريه تركستان . هاجرت من القره غيز الى الاماكن المحيطة ببخارا وهناك اعتنقت الاسلام في اوائل القرن الحادي عشر . وتمكنوا بقيادة زعيمهم طغرل بك سنة ١٠٣٨ من احتلال فارس بعد دحرهم جيوش السلطان محمود الغزنوى وقضائهم على البويهيين ثم بسطوا نفوذهم على العراق ٤٢١ واعترف الخليفة العباسي القائم بامر اللـــــه بسلطنـــة طغرل سنة ١٠٥٥ وقد اصبحت الخلافـــة العبـــاسية خاضعة لنفوذ السلاجقة سياسيا وعسكريا .

بدأت الغارات السلجوقة على البيزنطيين سنة ١٠٤٩ من جهات ارمينيا فاستولوا على ملطية سنة ١٠٥٧ واستمر توسعهم في تلك الجهات في عهد السلطان الب ارسلان ١٠٦٣ ــ ١٠٧٢ ، فوقعت بايديهم مدينتي آنـــــي وقارص ، وتمثلان هاتان المدينتان الخط الدفاعي الاول عن الامبراطوريـــــة البيزنطية . غير ان الامبراطورية اصطدمت بهم بشكل فعال لاول مرة فـــي عهد الامبراطور رومانوس الرابع قرب مانزكرت سنة ١٠٧١ في شمـــال بحيرة وان ، اندحرت فيها الجيوش البيزنطية ووقع رومانوس اسيرا بيد

420) Vasiliev, op. cit., 351-354
421) Gibbon, op. cit., vol. VI, I

السلاجقة واطلق سراحه على اثر عقده صلحا تضمن افتداء نفسه وتعهده بدفع الامبراطورية البيزنطية اتاوة سنوية وارجاع الاسرى ٠ ٤٢٢ غير ان هذه الاتفاقية لم تنفذ لانتخاب العاصمة امبراطورا جديدا الا وهو ميخائيل السابع . وقد صدر حكم الاعدام على رومانوس ونفذ فيه عند رجوعه الى القسطنطينية .

ان موقعة ما نزكرت من المعارك الحاسمة في التاريخ وادت الى نتائج خطيرة فيما بعد بالنسبة للامبراطورية البيزنطية . ويعتقد المؤرخ زيلوس بأن الامبراطور رومانوس الرابع مسؤولا عن الكارثة لغروره ولا رتكابه اخطاء عسكرية هامة اذا قال عنه بانه مغرور الى درجة انه رفض عقد هدنة طلبها ارسلان قبل المعركة ٤٢٣ . اذ كان جواب رومانوس « ان كان البربري يرغب حقا في السلام دعه يقوم باخلاء المعسكر الذي يحتله وان يسمح للجيش الروماني باحتلاله بعد انسحاب السلاجقة الى المدينة ، لدلالة على صدق قوله » ٤٢٤ . وقد مثل ذلك الجواب اهانة بالغة الى الب ارسلان اذي قرر المقاومة حتى الموت . ويقول المؤرخ جون سكاليتز Scylitzes « وليس ادل على غروره وعدم مقدرته الدبلوماسية من تصرفه اثناء وقوعه في الاسر . حيث بالغ الب ارسلان في اكرامه وساله ماذا يتوقع من العقاب ، فاجاب دايوجين ، ان كنت قاسي القلب فتفقدني حياتي . وان ركبك الغرور فتسحلني وراء عربتك وان استمعت الى مصلحتك فتقبل الفدية وتردني الى بلدي ... وساله ايضا ماذا كنت تفعل بي لو وافاك الحظ في المعركة ؟ فاجاب ديواجين بان يضربه حتى الموت ٤٢٥ . ويذكر المؤرخ زيلوس بانه كان من الممكن للبيزنطيين الانتصار على السلاجقة فيما لو ركز الامبراطور جيوشه في جبهة واحدة غير انه هجم بنصف جيشه تاركا النصف الاخر منشغلا في جبهات اخر . هذا بالاضافة الى انه لم يستمع الى نصائح قادته ٤٢٦ . كما وقد ينسب اندحار البيزنطيين في تلك الموقعة الى تمرد الفرقة النورمندية في اسيا الصغرى

422) Vasiliev, op. cit., 355
423) Psellus, op. cit., 355
424) Gibbon, op. cit., 17
425) Quoted in Ibid., 17
426) Psellus, op. cit., 352

والتي كانت تحت قيادة رسول باليول وكذلك لانضمام قبائل البشناق التركمانية في بداية المعركة الى جانب السلاجقة ٤٢٧ .

ان كارثة ما نزكرت قد شلت قوى البيزنطيين العسكرية . اذ افقدتهم ارمينيا والتي تعتبر من اهم المناهل العسكرية في تجييش الجيوش البيزنطية بالاضافة الى انها من الخطوط الاستراتيجية الاولى في الجهات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية . وتعتبر الموقعة ايضا نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب بين الاسلام والمسيحية ٤٢٨ .

ان خطر السلاجقة المتزايد اضطر الامبراطور ميخائيل السابع ١٠٧١ — ١٠٧٨ منذ اول اعتلائه العرش الى الاستجاد بالبابا كريكوري السابع ١٠٧٣ — ١٠٨٥ واعدا اياه العمل على ازالة الخلاف بين الكنيستين . وصادف ذلك النداء وقعا حسنا لدى البابا الذي حث ملوك اوروبا وامرائها على تقديم المساعدات غير ان مجهوداته ذهبت ادراج الرياح لتمشكلة بقضية الاستثمار العلماني للمراكز الدينية Investiture وما جرت اليه من حرب بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة . Holy Roman Empire

وعلى كل فقد استفاد السلاجقة من حالة الارتباك التي سادت الامبراطورية البيزنطية اثر موقعة ما نزكرت واخذت فرق الجيش المتنافسة على العرش تتسابق في طلب مساعدة السلاجقة ضد بعضها البعض وقد تم الفوز لنقفور الثالث ١٠٧٨ على خصومه نتيجة للمساعدات التي قدمها سليمان بن قطالمش السلجوقي ٤٣٠ .

٣ — النورمنديون :

ام هؤلاء سواحل ايطاليا قبيل نهاية حكم الاسرة المقدونية ، انتهزوا ارتباك الاوضاع في الامبراطورية البيزنطية واختلافها مع البابوية فشرعوا في الاستيلاء على الولايات البيزنطية في الاقسام الجنوبية من شبه الجزيرة الايطالية . وتمكن زعيمهم روبرت كيسكارد من الاستيلاء على مدينة بارى الحصينة سنة ١٠٧١ بعد حصار دام لثلاث سنوات ، وكان سقوطها ايذانا

---

427) Gibbon, op. cit., 14-15
428) Setton. Wolf and Hazard, A History of the Crusades (Pennsylvania) Vol. I, 148-150
430) Ostrogorsky, op. cit., 308

بزوال النفوذ البيزنطي من جهات البحر المتوسط هناك ٤٣١ . ان الاستيلاء النورمندي على المناطق البيزنطية في ايطاليا كان حافزا لتلك الاقوام لاعداد العدة للوثوب على الامبراطورية ذاتها ٤٣٢ . وقد لاقى البيزنطيون من هؤلاء الامرين في جهات البحر المتوسط واسيا الصغرى . اذ كانت الفرقة النورمندية التي استأجرها البيزنطيون لمقاتلة السلاجقة تحت امرة باليول سببا من اسباب انتصار السلاجقة في ماتزكرت لتمردهم على الامبراطور ٤٣٣ . وحاول هذا النورمندي اقتطاع امارة له في اسيا الصغرى ليجعل منها قاعدة للهجوم على القسطنطينية . وقد اضطر ميخائيل للتعاون مع السلاجقة لتفادي اخطارهم التي اصبحت تهدد الجانبين ، السلجوقي والبيزنطي في جهات كبادوكيا . كما لجأ ميخائيل في الوقت ذاته الى تجنب مخاطر النورمنديين في جهات ايطاليا عن طريق المصاهرة ، حيث زوج ابنه من بنت روبرت كيسكارد . الا ان تنحية ميخائيل عن العرش اتاحت فرصة للنورمنديين في توجيه هجومهم على الامبراطورية من جهات الادرياتيك مستهدفين الاستيلاء على القسطنطينية متذرعين برابطتهم العائلية مع ميخائيل ٤٣٤ .

~~الاسرة الكومنينية ١٠٨١ — ١١٨٥~~
الاسرة الكومنينية ١٠٨١ - ١١١٨

اسسها الكسيوس كومنين ، الذي يمثل اعتلاؤه العرش انتصار الجهاز العسكري على الجهاز البيروقراطي . ويعتبر هذا من اكثر الاباطرة كفاءة عسكرية وادراية . اذ تمكن بسياسته من المحافظة على وحدة الامبراطورية من الفوضى وعالج مشاكل خارجية وداخلية معقدة تغلب على بعضها واتقى مخاطر البعض الاخر .

ان من اوائل المصاعب التي واجهها الامبراطور الكسيوس الاول التوسع النورمندي فبعد ان هيمن هؤلاء على الولايات البيزنطية في جنوب ايطاليا تقدموا شرقا بقيادة كل من روبرت كيسكارد واخيه بوهمند لاحتلال دورازو في اقليم البريا سنة ١٠٨٢ . وتعد دورازو من النقاط الاستراتيجية الهامة على الطرق المؤدية الى القسطنطينية . واخذ الامبراطور الكسيوس يستحث هنري الرابع امبراطور الامبراطورية

---

431) Vasiliev, oop. cit., 360
432) Gibbon, op. cit., Vol. V, 561
433) Ibid., 15
434) Vasiliev, op. cit., 361.

الرومانية المقدسة لانجاده وكذلك استغاث بجمهوية البندقية ولم يتمكن الاول من انجاده لانشغاله في الحروب الاهلية التي اججها ضده البابا كريكوري السابع ، اما البندقية فاستجابت له نظير حصولها على امتيازات تجارية في الامبراطورية . ورأى تجار البنادق ان مصلحتهم متفقة مع الامبراطورية في مقاومة التسلط النورمندي في الادرياتيك حفظا لطرقهم ومراكزهم التجارية هناك واضطر النورمنديون على الانسحاب من دورازو نتيجة للحلف البندقي البيزنطي وكذلك لقيام ثورة في قاعدتهم في ايطاليا غير ان كيسكارد عاود الهجوم سنة ١٠٨٥ ثانية على الامبراطورية ولم يجن من وراء ذلك نتائج ايجابية لانتشار الامراض في جيشه وللبسالة التي ابداها البيزنطيون بقيادة الكسيوس نفسه . واضطر النورمنديون على الانسحاب من مواقعهم في اليريا على اثر وفاة روبرت كيسكارد في السنة المشار اليها ٤٣٥ .

ولم يكد الامبراطور الكسيوس ليفرغ من مخاطر النورمنديين في جهات البلقان الغربية حتى دهمه خطر اخر تمثل في التحالف بين قبائل البشناق وأحد امراء السلاجقة المدعو بزاكاس . والبشناق من القبائل الاسيوية القاطنة جهات الدانوب اخذت تشكل خطرا داهما على الامبراطورية منذ اواخر حكم الاسرة المقدونية . ومع ان الحكومة البيزنطية سمحت لهم بالسكن في الاجزاء الشمالية في البلقان غير انهم لم يرتدعوا عن الاخلال بالنظام لما يقومون به من غارات على المدن وسلب القرى . ولم تنجح الحكومة البيزنطية ايضا في سياتها الرامية لاستخدامهم في الجيش . اذ مع السلاجقة ابان المعركة وانحازت لجانبهم فكانت سببا اخرا في اندحار البيزنطيين . وهاجمت القبائل البشناقية عدة مدن بلقانية خاصة مدينة ادريانوبل ثم حاصرت العاصمة البيزنطية في عهد الامبراطور ميخائيل السابع ، واستمر تحديهم للامبراطورية في حكم الامبراطور الكسيوس الاول اذ تحالفوا مع امير ازمير السلجوقي زاكاس وفرض هذا الحصار البحري على القسطنطينية بينما احاق بها البشناق من الجهات البرية ودام الحصار

---

435) Gibbon, op. cit., 561-575

إدة سنة تقريبا ١٠٩٠ ـــ ١٠٩١ وهنا تظهر براعة الكسيوس السياسية حيث تمكن من استثارة قبائل الكومان ضد البشناق ومن بذر الشقاق بين زاكاس وامير امراء السلجوقيين في نيقيا واسفرت هذه الدسيسة عن اغتيال زاكاس على يد قريبة السابق وبذلك تخلصت الامبراطورية من مخاطر الكماشة البشناقية السلجوقية وعقدت معاهدة عدم اعتداء بين سلاجقة قونية والبيزنطيين سنة ١٠٩١ ـــ ٤٣٦

ولعل من اهم المشاكل الخارجية التي عالجها الامبراطور الكسيوس الاول مشكلة الصليبيين في حملتهم الاولى ولسنا هنا في معرض الحديث عن هذه الحملة وملابساتها السياسية اثناء مرورها في الاراضي البيزنطية بل نكتفي بالقول ان هناك اختلافا اساسيا بين وجهات النظر الصليبية ورجال السلطة في الامبراطورية البيزنطية . وكمن هذا الاختلاف في الاهداف التي قصدها كل من الفريقين . اذ هدفت البابوية الى بسط نفوذها على مسيحيي الشرق وتحرير القدس من المسلمين واراد قادة الحملة تحقيق مكاسب مادية في الشرق ولو على حساب الامبراطورية البيزنطية . بينما استهدف البيزنطيون من طلب مساعدة الغرب امدادهم بفرق عسكرية أجيرة تأتمر بامر الحكومة البيزنطية لغايات دفاعية ولم يكن هدف البيزنطيين تحرر الاراضي المقدسة هذا وان الامبراطور لم يكن ليحبذ التدخل في شؤون البطرقيات الاخرى التي هي خارج حدود بلاده كما ان الكسيوس يعتقد بان معالجة القضايا المسيحية في المشرق تخص الامبراطورية البيزنطية وليست من اختصاصات العالم المسيحي الغربي ٤٣٧ ومع ذلك فان سياسة الكسيوس الاول جنبت الامبراطورية الكثير من المشاكل مع الصليبين . حيث هيأ لهم وسائل العبور من القسطنطينية الى الجانب الاسيوي اخذا من زعمائهم يمين الولاء وعلى ان يتعهدوا بارجاع ما يستولون عليه من مناطق كانت تابعة للامبراطورية منذ سنة ١٠٧١ غير ان سقوط انطاكيا سنة ١٠٩٨ بايدي الصليبيين كشف عن الهوة العميقة بين اهداف الجانبين . اذ رفض القائد النورمندي بوهميند ارجاع انطاكيا الى البيزنطيين وكذلك كان الوضع بالنسبة الى اماكن اخرى .

---

436) Vasiliev, oop. cit., Vol. II, 384, 385
437) Ibid., 403

لقد اعتبر الامبراطورأن اشد اعدائه هو بوهيمند منذ الساعة الاولى التي وطأت قدماه ارض الامبراطورية . واخذ هذا عند عودته المؤقتة الى ايطاليا بعيد سقوط القدس ينشر الاشاعات المغرضة ضد الكسيوس واقنع البابا بوجوب الاستيلاء على القسطنطينية من اجل انجاح المشاريع الصليبية . وهاجم فعلا المناطق التابعة للامبراطورية في جيش صليبي سنة ١١٠٧ . غير ان الامبراطور الكسيوس انتصر عليه عسكريا واجبره على توقيـــع معاهدة ديفول سنة ١١٠٨ ٤٣٨ ،، التي تعهد فيها بوهيمند ان تكون انطاكيا تابعة للامبراطورية ،. ومع ذلك فلم يف هــــــذا ولا خلفـــــاؤه بهــــذا العهد وبقيت العلاقات عدائية بين امارةانطاكيا الطيبية والامبراطوريةطيلة القرن الثاني عشر تقريبا .

اما سياسة الكسيوس الاول الداخلية فتتمركز حول نقطتين هما مكافحة الفرقة البولصية والسير في التيار الاقطاعي . اما الفرقة البولصية التي اشرنا اليها في الفصل الثاني من هذا الكتاب فقد انتشرت بصورة خاصـــة منذ اواخر القرن الثالث في جهات اسيا الصغرى . ونتيجة لمواقفهـــم الايجابيةمن المسلمين ولرغبة حكام اللاايقونية في مكافحة الايقونية فـــي البلقان عمدوا الى تهجيرهم في عهد الامبراطور قسطنطين الخامس ٧٤٠ ـــ٧٧٥ الى جهات البلقان وانتشرت تعاليمهم في بلغاريا بواسطة احد زعمائهم المدعوبوكوميل Bogomile بعد ان ادخل عليها بعض التعديلات وسميت الفرقة باسمه في ذلك القطر والتي وجهت فعالياتها ضد الارثودكسية والطبقات الارستقراطية ٤٣٩ كما انتشرت تعاليمهم في القسطنطينية وجهات اليونان وامتدت غربا الى مختلف الاقطار الاوروبية . وولدت تلك الفرقة مشاكل عدة للامبراطور الكسيوس وذلك لارائها المناهضة للارثودكسية ولما رافــق ذلك من معارك كما انها ناصرت كافة الحركات المناوئة للامبراطورية البيزنطية في انحاء البلقان . واصبحت اشبه بحزب سياسي تولت الدفاع عن الحقوق القومية لشعوب البلقان ضد الامبراطورية وكذلك عن حقـــوق الفقراء ضد الاغنياء . وقد ساندوا البشناق اثناء تهديدهم للقسطنطينية

---

438) Chalandon, Essai sur la Regne dêAlexis Comnen (Paris, 1900) 246
439) Ostrogorsky, op. cit.,. 238

سنة ١٠٩٠. ٤٤٠ . لهذا امر الكسيوس باضطهادهم وتشتيت زعمائهم ٤٤١ .

قلنا بان الامبراطور الكسيوس الاول سار في سياسته الداخلية سيرا اقطاعيا . اذ جعل الاقطاعيات المنوحة منحا مؤقتا اقطاعات ممنوحة لمدى الحياة لقاء تعهدات عسكرية ومالية وامر بتوزيع الاراضي الكنسية غيـــر المستثمرة على اقطاعيين جدد . وادت سياسته هذه الى ازدياد القـــوى الاقطاعية التي استند عليها في حكمه على الصعدين العسكري والمدني ٤٤٢ ويعتقد المؤرخ اوستروكوركسي « ان فشل الاصلاحات الكومنينية وعدم دوامها يعود الى تفشي الاقطاع . ٤٤٣ ومع ان الاقطاع البيزنطي نتيجة لتطورات داخلية الا ان الاحتكاك بالغرب وخاصة عن طريق الحملات الصليبية من العوامل التي ادت الى اشتداده ٤٤٤ . حيث اتبع الكسيوس ومن جاء بعده اساليب التبعية Vassalage الغربية الاقطاعية . واصبح الاقطاع من صفات الحكم البيزنطي من ناحية رسمية منذ عهد الكسيوس الاول حتى سقوط الامبراطورية سنة ١٤٥٣ ٤٤٥ .

جون كومنين الثاني ١١١٨ — ١١٤٣

اتجه نشاط هذا الامبراطور على الاخص لاستعادة المناطق التي فقدتها الامبراطورية في الجهات الشرقية وكذلك لاستعادة الممتلكات البيزنطية التي انتزعها النورمنديون في ايطاليا . اما بالنسبة للنهج الاول فقد استولى على امارة ارمينيا الصغرى سنة ١١٣٧ التي تأسست في جبال طوروس منذ سنة ١٠٧١ واجبر امير انطاكيا النورمندي علـــى تجديد الـــــولاء للامبراطورية . اما سياسته الرامية لاستعادة الممتلكات البيزنطية فـــي ايطاليا فلم يكتب لها النجاح بالرغم من تحالفه مع الامبراطورية الرومانية المقدسة ٤٤٦ . وقد ثبت النورمنديون اقدامهم هناك بشكل اكثر تركيزا عندما وحدوا صقلية ونابلي مكونين منهما مملكة عرفت بمملكة الصقليين

---

440) Ibid., 318 -319
441) Ibid., 331-332
442) Hussey, op. cit., 59
443) Ostrogorsky, op. cit., 332
444) Hussey, oop. cit., 59
445) Ostrogorsky, op. cit., 329
446) Vasiliev, op. cit., 329

على اثر تتويج روجر الثاني ملكا عليها سنة ١١٣٠ — ٤٤٧ .

هذا واحرز الامبراطور جون كومنين نصرا حاسما ضد القبائل البشناقية في سنة ١١١٢ ولم يعد هؤلاء يكونون خطرا على الامبراطورية منذ ذلك التاريخ ٤٤٨ .

كما حاول في المجال الداخلي معالجة الاوضاع الاقتصادية المتردية . وذلك بالغاء الاحتكارات التي حصلت عليها البندقية منذ سنة ١٠٨٢ . الا انه لم يوفق في سياسته واضطرته الظروف المالية العصيبة على تجديد الاتفاقية السابقة سنة ١١٢٦ ٤٤٨ .

مانويل الاول ١١٤٣ — ١١٨٠

حاول هذا الامبراطور السير بموجب الخطوط العامة التي رسمها والده في المجالين الخارجي والداخلي واهم المشاكل الخارجية التي جابهته مشكلة الصليبيين في حملتهم الثانية . اذ اشترك في الحملة سنة ١١٤٧ كل من امبراطور الجرمان كونراد الثالث وملك فرنسا لويس السابع وصادف الامبراطور البيزنطي مصاعب جمة اثناء مرور الحملة ببلاده لا تقل خطورتها عما جابهته الامبراطورية من مسيرة الصليبيين الاولى اذتكدرت العلاقات بينه وبين لويس السابع حليف النورمنديين في ايطاليا ونسب ملك فرنسا فشل الجهود الصليبية في الحملة الثانية وماحل بها من نكبات في اسيا الصغرى على ايدي السلاجقة الى الاتصالات المريبة بين هؤلاء والامبراطورية البيزنطية . وكانت لتلك التهم ردود فعل في الاوساط الدينية والسياسية في اوروبا ضد البيزنطيين وكانت من العوامل غير المباشرة في الكارثة التي حلت بالامبراطورية سنة ١٢٠٤ — ٤٥٠ .

اما محاولته لاستعادة الاملاك البيزنطية في ايطاليا عن طريق القوة فقد انتهت الى فشل ذريع واضطر علي عقد هدنة لمدة ثلاثين سنة مع ملك الصقليتين . هذا وان محاولة القوة اثارت مخاوف البابوية والبنادقة وسخط الامبراطور فردريك الثاني . لهذا حاول الاستعانة بكل من جمهوريتي بيزا وجنوا ضد البنادقة سنة ١١٦٩ ، ولم يأت تقربه من هاتين الحكومتين

---

447) Ibid., 414
448) Ibid., 413
449) Ibid., 413
450) Hussey, op. cit., 63

بغير اشتداد العداء بين البيزنطيين من جهة والبابوية والبنادقة من جهة اخرى . وبلغت العلاقات بين البيزنطيين وحكومة البندقية درجة حرجة عندما امر بمصادرة اموال البنادقة في الامبراطورية سنة ١١٧١ — (٤٥١)

ان سياسته السلبية في الجهات الغربية حملت الامبراطور فردريك بربروسا الى القيام بعمل معاكس .. اذ حرض هذا دولة قونيه السلجوقية ضد الامبراطورية البيزنطية مادا لها يد المساعدة وانزل السلاجقة فعلا هزيمة كبرى في جيوش مانويل سنة ١١٧٦ في موقعة مريا كوفالوم Myricolephalum في اسيا الصغرى . وعلى اثرها وجه فردريك بربروسا خطابا الى مانويل يطالب فيه «الملك اليوناني الخضوع الى امبراطور الرومان » اذ اعتبر فردريك نفسه هو الامبراطور الشرعي وراث عرش الرومان يحكم مركزه امبراطور الامبراطوية الرومانية المقدسة وان اليونان يجب ان تكون تابعة لنفوذه .

اما سياسته الداخلية فاسفرت عن تعسف في جباية الضرائب واضطهاد صغار الملاكين ، كما اثار نقمة رجال الدين لتصرفه بقسم من الاملاك العائدة للمؤسسات الدينية .

الكسيوس الثاني ١١٨٠ — ١١٨٣

توفي والده وهو في الثانية عشرة من عمره . فتولت امه الوصاية عليه وكانت هذه اميرة من اميرات انطاكيا اعتمدت كثيرا على حاشية نورمندية متعسفة واسفرت سياستها هذه عن ثورة في القسطنطينية اعتلى على اثرها اندرونيكوس الاول العرش .

اندرونيكوس الاول : ١١٨٣ — ١١٨٥

ولم يستمر اندرونيكوس في الحكم سوى سنتين . اتبع اثناء فترة حكمه القصيرة عدة اجراءات سياسية في الداخل ابتغاء اصلاح الجهاز الاداري ولوضع حد للتذمرات ، الا انها عادت بنتائج عكسية اذا اصطدمت سياسته بمصالح الاقطاعيين وادت الى حروب اهلية عنيفة . ومكن ذلك الوضع المضطرب النورمنديين من التوغل في المناطق الغربية للامبراطورية ونجمت

451) Ibid., 66

عن سياسته اللااقطاعية ثورة في القسطنطينية ذهب هذا الامبراطور ضحيتها والذي يمثل اخر اباطرة الاسرة الكومنينية سنة ١١٨٥ — (٤٥٢) .

الاسرة الانجيلية : ١١٨٥ — ١٢٠٤

يمثل اعتلاء اسحاق الانجيلي « ١٨٨٥ — ١١٩٥ » عرش الامبراطورية انتصار الطبقة الاقطاعية وارجاع الاوضاع الى ما كانت عليه قبل حكم اندرونيكوس . وبلغ الجهاز الاداري في عهده الى ادنى درجة من الحضيض حيث اصبحت المراكز الحكومية محط مساومات تجارية اشبه بسوق المزاد وقد نحي عن العرش بانقلاب دبره اخوه الكسيوس . وتعرض اسحاق لمعاملة قاسية على يد اخيه اذ امر بتسميل عينيه وايداعه السجن . ٤٥٣

ان للانقلاب السياسي الذي اسفر عن تتويج الكسيوس الثالث امبراطورا « ١١٩٥ — ١٢٠٣ » والاجراءات الانتقامية التي اتبعها ضد اخيه ، نتائج خطيرة بالنسبة لمصير الامبراطورية . اذ اثار بعمله هنري السادس امبراطور الامبراطورية المقدسة وذلك لاواصر النسب العائلي . حيث ان بنت اسحاق الثاني كانت زوجة فيليب شقيق الامبراطور هنري الذي اعتبر نفسه مسؤولا عن الاخذ بثار اسحاق . هذا بالاضافة الى طموح هنري السادس الى ان يكون امبراطور المسيحيين في الشرق ايضا . وقد فكر جديا في الاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية ومهد لذلك باساليب دبلوماسية اذ تمكن من الحصول على اعتراف حاكم قبرص بتبعيته له وكذلك فعل ملك ارمينيا الصغرى ونظرا لان هنري السادس قد اصبح ملك الصقليتين ايضا عن طريق الوراثة فقد راى الفرصة مناسبة بمطالبة الامبراطور البيزنطي بالتنازل عن الادعاء البيزنطي بعرش الصقليتين وعلى الامبراطور البيزنطي ان يسهم في انقاذ القدس من سيطرة المسلمين ٤٥٤ واضطر الكسيوس الثالث ان يترضى الامبراطور الالماني بتعهده بدفع اتاوات سنوية له . وبقي هنري السادس يمثل خطرا دهما على الامبراطورية حتى وفاته سنة ١١٩٧ . الا ان الضربة الماحقة التي اطاحت بالكيسوس الثالث وعصفت بالامبراطورية البيزنطية وجهتها الحملة الصليبية الرابعة .

---

452) Runciman, op. cit., 45
453) Ibid., 45
454) Ibid., 70-71

الحملة الصليبية الرابعة والاستيلاء على القسطنطينية :

كانت الحملة الرابعة التي دعا اليها البابا انوسنت الثالث مدفوعــة منذ بدايتها بعوامل دينوية وحاوية على كافة العناصر الناقمة على الامبراطوريه البيزنطية لاعتبارات مذهبية وسياسية واقتصادية . ومن اشهر الامــراء الذين ساهموا في الحملة بشكل فعال هم بلدوين التاسع امير فلاندرز ووليم اوف شامبليت William of Champlitte والامير الايطالي يونيفس Boniface of Montferrat وكان هذا من الموالين الى عائلة هوهنستوفن الالمانية الحاكمة في الامبراطورية الرومانية المقدسة وفي الصقليتين وانتخــب يونيفس رئيسا للحملة . ولعب كل من يونيفس ورئيس حكومة البنادقة انريكو داندولو Enrico Dandolo ادوارا خطيرة في استخدام الحملـــة لمآربها ٤٥٦ حيث اعتقد منذ البداية بان تامين المصالح التجارية لحكومتـــه يستوجب الاستيلاء على القسطنطينية لهذا عمل جهده لحرف الحملة الرابعــة عن اتجاهها الصليبي . اذ كان المفروض ان تبحر من البندقية الى مصر . غير ان عدم توافر الامكانيات المادية لاستئجار السفن جعل الصليبيين يوافقــون على الاقتراح الذي قدمه داندولو المتضمن احتلال ميناء زارا لقاء دفع الاجــور ٤٥٧ وكان هذا الميناء من المراكز الحيوية الاقتصادية بالنسبة للبنادقة وقــد استولى عليه المجريون سنة ١١٨٦ وحاولت البندقية عبثا منذ ذلك التاريــخ استعادته ٤٥٨ وقد انضمت البندقية رسميا الى الحملة الصليبية بعـــد ان وافق الصليبيون على احتلال ذلك الميناء وتولى فعلا داندولو قيادة الاساطيل وسقط ميناء زارا سنة ١٢٠٢ وسلم الى البنادقة .

وراى البنادقة الفرصة سانحة للتوجه من هناك الى القسطنطينية خاصه بعد ان استنجد بهم الكسيوس بن الامبراطور المخلوع اسحاق الثانـــي ، وتم الاتفاق بين قادة الحملة الرابعة والكسيوس على شروط مساعدته مقابــل تعهده بتقديم مائتي الف مارك لتقسيمها بالتساوي بين البنادقة وقادة الحملـــة في حالة حصوله على العرش البيزنطي وتزويد الحملة بمواد غذائية لمدة سنة

---

456) Ostrogorsky, op. cit., 369
457) Runciman, A History of the Crusades, the Kingdom of Acre and the Later Crusaders, vol. III (Cambridge, 1950) 114
458) Setton, Walf and Hazard, op. cit., 168
459) Runciman, op.cit ., 114

ثم اعداد حملة بيزنطية قوامها عشرة الاف فارس للاسهام في استعادة القـــدس وان يضع البيزنطيون حامية عسكرية ثابتة في الاراضي المقدسة للدفاع عنها والتعهد بالعمل على اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ٤٦٠.

توجهت الحملة الرابعة الى القسطنطينية ومعها الكسيوس بن اسحاق الثاني واستطاعت بضغطها العسكري على العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٣ ان تحمل الامبراطور الكسيوس الثالث على الهروب خلسة من العاصمة ، واجمـــع القادة البيزنطيون ازاء ذلك اضغط على اعادة اسحاق الثاني الى العرش وان يحكم بمساعدة الكسيوس الذي توج امبراطورا تحت اسم الكسيوس الرابع بناء على مطلب الجانب الصليبي . ان الحاح الكسيوس الرابع في جمـــع الضرائب لتسديد ديونه لقادة الحملة ادى الى نشوب ثورة في العاصمة إعدم فيها اسحاق الثاني وابنه الكسيوس . لذا قرر الصليبيون احتلال القسطنطينية واقتسام الممتلكات البيزنطية وتم التوصل الى ذلك الاتفاق في مؤتمر عقـــد في اذار « مارس » سنة ١٢٠٤ بخارج اسوار القسطنطينية واهم ما جاء فيه: ٤٦١

١ ـــ تكون حصة البنادقة من الغنائم المنتظرة عند الاستيلاء على القسطنطينية ثلاثة ارباعها . ويوزع الربع الاخير على قادة الصليبيين والسبب فـــي هذه القسمة غير المتعادلة لتغطية ديون الصليبيين للبنادقة وقد وافق الصليبيـــون على احتفاظ البنادقة بكافة الامتيازات التي كانت لهم سابقة في الامبراطورية .

٢ ـــ تؤلف لجنة لانتخاب امبراطور لاتيني متألفة من اثني عشر عضـــوا نصفهم من البنادقة والنصف الاخر من الصليبيين وان يكون للامبراطور ربـــع الامبراطورية وتقسم الثلاثة ارباع الباقية بالتساوي بين البنادقة والصليبيين .

٣ ـــ الاحتفاظ بالقوى العسكرية لمدة سنة بعد سقوط القسطنطينية .

٤ ـــ لا يجوز السماح لمواطن اية حكومة في حالة حرب مع البنادقة الدخول

---

460) Setton, Walf and Hazard, op. cit., 174
461) Ibid., 182-183.

الى الامبراطورية .

٥ ـ يؤدي الامبراطور القسم على احترام كافة الاتفاقات المعقودة بين الامراء الصليبيين من جهة وبين البنادقة من جهة اخرى .

٦ ـ يؤلف الامراء لجانا للتفاوض مع الامبراطور لتعيين الواجبات العسكرية المترتبة عليهم .

٧ ـ تنتقل الضياع الاقطاعية حسب قاعدة توريث الابن الاكبر Primoginature

وقد تمكن الصليبيون من الاستيلاء على العاصمة البيزنطية في اليوم الثالث من شهر نيسان « ابريل » سنة ١٢٠٤ بعد حصار دام خمسة ايام واستمرت عمليات النهب فيها لثلاثة ايام .

ان لسقوط القسطنطينية بيد الصليبيين في حملتهم الرابعة نتائج خطيرة فهي من الضربات القاصمة التي وجهت الى الامبراطورية البيزنطية ومع ان الامبراطورية عادت للوجود ثانية سنة ١٢٦١ الا انها بقيت شبحا هزيلا ولم تستطع الاعتماد على نفسها في الدفاع عن اراضيها . وباعدت فعلة الصليبيين هذه بين الكنيستين الغربية والشرقية بشكل لم يسبق له مثيل ٤٦٢ واصبحت الكنيسة الارثودكسية رمزا قوميا لليونانيين بصورة خاصة منذ ذلك التاريخ ، كما انها عمقت الخلافات بين المجتمعين البيزنطي واللاتيني ، وكان لها اسوأ الاثار في العلاقات الخارجية فيما بعد بين الامبراطورية البيزنطية ودول اوروبا الغربية . هذا وان الصليبيين قد كشفوا عن نياتهم الحقيقية من وراء حملاتهم الشعواء المتوالية على الشرق اذ ظهرت الاتجاهات الدنيوية والمصالح الاثرة سافرة في حملتهم الرابعة كما هدم الصليبيون باسم الصليب الحصن الاوروبي المنيع في الجهات الشرقية من اوروبا « الذي طالما وقف حائلا دون التقدم العربي الاسلامي في الشرق والبرابرة من الشمال » ٤٦٤ .

462) Ware. op. cit., 67
463) Runciman, op. cit., 130
464) Ibid., 130-131

حدث ذلك من اجل مطامع دنيوية تجلت بأوضح صورها في سياسة جمهورية البندقية اذ حظيت بحصة الاسد من الغنيمة حيث ان حصتها اكثر بكثير من نصيب الامبراطور اللاتيني نفسه ، وساعد هذا التوسع على ازدياد تجارتها ازديادا كبيرا ٤٦٥ .

***

465) Gibbon, op. cit., vol. VI, 180

الاباطرة البيزنطيون ١٠٥٧ — ١٢٠٤

ا — اباطرة فترة الاضطراب

Isaac I Comnenus - 1057 - 1059

Constantine X Ducas : 1059 - 1067

Romanus IV Diogenus : 1068 - 1071

Michael VII Ducas : 1071 - 1078

Nicephorus III Botaniates : 1078 - 1081

ب — الاسرة الكومينيـــة

Comnenian Dynasty :

Alexius Comnenus : 1081 - 1118

John II Comnenus 1118 - 1143

Manuel I Comnenus : 1143 - 1180

Alexius II Comnenus : 1180 - 1183

Andronicus Comnenus : 1183 - 1185

جـ — الاسرة الانجيلية

Dynasty of the Angeli :

Isaac II Angelus : 1185 - 1195

Alexius III Angelus : 1195 - 1203

Isaac II (Again) and Alexius IV : 1204

الفصل العاشر

ــ اللاتين والبيزنطيون ١٢٠٤ ــ ١٢٦١

الامبراطورية اللاتينية ومشاكلها

امبراطورية نيقيا ودورها التاريخي

في اعادة بناء الامبراطورية

الامبراطورية اللاتينية : ١٢٠٤ ــ ١٢٦١

من اولى المشاكل التي جابهها الصليبيون هي تقسيم الامبراطورية فيمنا بينهم تنفيذا لاتفاقية اذار السابقة . وقد تم الاتفاق مؤخرا بعد مداولات استمرت من ذلك الشهر السابق حتى اكتوبر سنة ١٢٠٤ واشرف داندولو على كافة مراحل الاتفاق الذي تضمن تأسيس امبراطورية لاتينية مقرها القسطنطينية برئاسة بلدوين التاسع امير فلاندرز . هذا وان اختياره لرئاسة الامبراطورية لم يتم الا بعد جهود عضال اذ انقسم راي الناخبين بين بلدوين وبونيفس وعارض البنادقة في انتخاب الثاني لميوله تجاه حكومة جنوا ، المنافسة الكبرى لمصالح البنادقة الاقتصادية ومع ان ادعاء بونيفس بالعرش قد استند على تأييد رجال الدين الكاثوليك والى زواجه من ارملة الامبراطور اسحاق الثاني ، فان معارضة البنادقة قد حتمت انتخاب بلدوين في منتصف ليلة اليوم التاسع من شهر مايو ١٢٠٤ وقد توج في كنيسة الحكمة المقدسة « اياصوفيا » في القسطنطينية في اليوم السادس عشر من الشهر المذكور ، ٤٦٦

466) Setton, Wolf and Hazard., op. cit., 188-189

ونصت اتفاقية اكتوبر على تكوين مملكة في مقدونيا عرفت ايضا بمملكة سلانيك يحكمها يونيفس وتعهد هذا ان يكون تابعا اقطاعــــيا للامبراطور. وشكل في شبه جزيرة المورا امارة يتولى حكمها القائد الصليبي وليم اوف شامبليت وان يكون تابعا اقطاعيا للامبراطور وجعل من اثينا وما جاورهــا دوقية تابعة لتلك الامــارة .

واصبحت الجزر اليونانية من حصة البنادقة ، تشرف عليها حكومة تابعة مباشرة الى رئيس جمهورية البندقية ينوب عنه في حكمها حاكم مطلق Despot كما خصص للبنادقة ثلاثة اثمان القسطنطينية .

لقد توصل البنادقة الى اتفاق مع حكومة الامبراطورية في اكتوبر سنــــة ١٢٠٥ حول القضايا العسكرية . جاء فيه ٤٦٧ .

في حالة اتفاق حاكم البنادقة والمجلس الامبراطوري والامبراطور نفســـه على القيام بحملات عسكرية فيجب ان يشترك فيها البنادقة وغير البنادقــة في خدمة فعلية لمدة ثلاثة اشهــــر في السنة من اول حزيران الى التاســع والعشرين من ايلول . اما في حالة تعرض الامبراطورية الى هجوم خارجي فعلى كافة الفرق البقاء في الخدمة الفعلية حسب المدة التي تتطلبها الحرب التي يقررها المجلس المشترك المؤلف من الجهات المذكورة اعلاه .

ولهذا فأن الامبراطورية اللاتينية الاقطاعية استندت على اتفاقيات اذار سنة ١٢٠٤ واكتوبر سنة ١٢٠٤ واكتوبر سنة ١٢٠٥ والتي اصبحـــت بمجموعها دستور تلك الامبراطورية ٤٦٨ .

حملت الامبراطورية اللاتينية جراثيم فنائها معها منذ البدايــــة اذ ان الامبراطور كان مجردا من السلطات حسبما نصت عليه الاتفاقات الثـــلاث وانه رهن تصرفات القادة والحاكم البندقي . هذا بالاضافة الى ان الحكـــم ارتكز على الاسس الاقطاعية الغربيـــــة . ولعبت الاتجاهات اللامركزيـــة الاقطاعية دورا كبيرا في اضعاف السلطة المركزية ، ٤٦٩ ولم يكن ولاءالامراء الاقطاعيين سوى ولاء شكلي متسما بالعلاقات السلبية في اكثر الاحيــــان ومما زاد في ضعف الحكم عدم الانسجام بين مصالح القوميات التي تألفت

467) Ibid., 193
468) Ibid., 193-194
469) Baynes and Moss, op. cit., 32

منها الفرق الصليبية من جهة والصراع بين كبار القادة والفرسان من جهة اخرى . هذا بالاضافة الى اصطدام المصالح الاقتصادية للبنادقة مع هؤلاء جميعا . وكانت المنازعات مستمرة بين فرق الالمان والفرنسيين واللمبارد وهكذا فان العداء المستحكم بين هذه الاجناس هو الصفة البارزة في عصر الامبراطورية اللاتينية ٤٧٠ .

اما مواقف البيزنطيين من الحكم اللاتيني وعناصره فكانت سلبية منذ البداية ٤٧١ . اذ انفوا من الاستعباد اللاتيني وتميزت نظراتهم الى هؤلاء الغزاة بمظاهر الازدراء معتبرين اياهم في مستوى البرابرة او هم البرابرة بانفسهم . وادى الاغتصاب اللاتيني للامبراطورية البيزنطية الى اشتداد الوعي البيزنطي ٤٧٢ والى خلق شعور وطني موحد بين صفوف الفلاحين ورجال الدين والطبقات المثقفة فلم ير الفلاحون في اسيادهم الجدد مخرجا من كروبهم المتوارثة بل ان حالتهم العامة اصبحت اكثر زراية من السابق .

كما لم يغفر زعماء الكنيسة الارثودوكسية الاعتداء اللاتيني على حرمات مذهبهم ونهبهم الكنائس وتدنيسها واستنكروا فرض الزعامة البابوية عليهم وفقدهم الامتيازات ومصادرة الاملاك الارثودوكسية. لذا برز رجال الدين الارثودوكس في الصفوف الامامية لمقاومة الغزاة . واصبح كفاحهم اللولب المحرك للوعي اليوناني . وامست الكنيسة الشرقية منذ ذلك الحين حما للتراث اليوناني ومنارا للوعي القومي . اما الطبقات المثقفة فقد سخرت امكانياتها لدعم امبراطورية نيقيا البيزنطية في اسيا الصغرى والتي اصبحت محط انظار اليونان لاعادة المجد البيزنطي .

هذا ولم تكن مواقف الامبراطورية اللاتينية من مشاكلها الخارجية باقل حراجة من اوضاعها الداخلية . فبالرغم من محاولة القادة الصليبيين للاستيلاء على كافة اجزاء الامبراطورية البيزنطية في جهات البلقان واسيا الصغرى ، الان واقع الحال قد خلق ثلاث امبراطوريات بيزنطية اثنان في اسيا الصغرى هما امبراطوريتا طربيزون Trebizon ونيقيا والثالثة في ابيروس . غير ان هناك قوتين وقفتا تنازع الامبراطورية اللاتينية البقاء .

---

470) Cambridge Medieval History, Vol. IV, 421-422
471) Ostrogorsky, op. cit., 377
472) Ibid., 377-78

الاولى متمثلة في دولة البلغار والثانية في امبراطورية نيقيا .

اما صراع الامبراطورية اللاتينية مع البلغار فكان سجالا كانت فيه الكفة الراجحة بجانب البلغار فقد لقي الامبراطور بلدوين الاول حتفه على اثر وقوعه في اسر البلغار في موقعة ادريا نوبل سنة ١٢٠٥ ٤٧٣ . كما هلك ايضا يونيفس ملك دولة سلانيك في حربه ضد البلغار سنة ١٢٠٧ . وظل اباطرة اللاتين يقاتلون في معركة يائسة في جبهتين هما البلغارية والنيقية كتب النصر فيها فيما بعد لاباطرة نيقيا وزوال الامبراطورية اللاتينية سنة ١٢٦١ .

امبراطورية نيقيا : ١٢٠٤ — ١٢٦١

قدر لهذه الامبراطورية ان تأخذ على عاتقها اعادة بناء الامبراطورية البيزنطية . اسسها ثيودور لاسكارس Theodore Lascaris ١٢٠٤ — ١٢٢٢ الذي يمت بنسبه الى العائلتين الكومنينية والانجيلية . وكان ثيودور قائدا لاحدى الفرق العسكرية في اسيا الصغرى في عهد الامبراطور الكسيوس الثالث استفاد من ارتباك الاوضاع في الامبراطورية اللاتينية في فترة ١٢٠٥ — ١٢٠٨ على اثر حروبهم مع البلغار والتي اسفرت من وقوع بلدوين بالاسر ، فاعلن نفسه ١٢٠٨ امبراطور الرومان سنة ١٢٠٨ ٤٧٤ .

اتخذ ثيودور عدة اجراءات دبلوماسية وعسكرية مكنته من تثبيت اقدامه في اسيا الصغرى وجعلت منه بطلا يسعى لتحرير اليونان واعادة مجد الامبراطورية . ٤٧٥ اذ تمكن من الحصول على صداقة البنادقة لمانحهم من امتيازات تجارية واعترفوا به امبراطورا بصورة رسمية سنة ١٢٢٠ ٤٧٦

اما موقفه من السلاجقة في اسيا الصغرى فكان سلبيا في الابتداء . اذ لم ينظر هؤلاء بعين الارتياح الى قيام امبراطورية قوية بجانبهم تمثل حاجزا امام مشاريعهم التوسعية نحو الجهات الغربية . واتخذوا من التجاء الكسيوس الثالث اليهم واستعانته بهم لاعادة ملكه سببا في آعلانهم الحرب على نيقيا ، واسفرت هذه الحرب عن انتصار دولة نيقيا والتخلص من الكسيوس

---

473) Gibbon, op. cit., 189-190
474) Baynes and Moss, 33-34
475) Vasiliev, op. cit., 508
476) Ibid., 512

الثالث الذي وقع اسيرا بيد الجيش النيقي . وقد أمر ثيودور باحتجازه في احد الاديرة . ان الانتصار الذي احرزته دولة نيقيا رفع من شأنها في اعين اليونانيين ، ورأى هؤلاء في حاكمها المقدرة على اعادة بناء الامبراطورية البيزنطية ، وحاول ثيودور فعلا الاستيلاء على القسطنطينية . واثارت تلك المحاولة اشد المخاوف في نفسية الامبراطور اللاتيني هنري والتي عبر عنها برسالة وجهها الى اصدقاء الامبراطورية اللاتينية حيثما كانوا واهم ما جاء فيها ٤٧٧ :

الى كافة الاصدقاء الذين يطلعون على محتويات الرسالة ان اول الاعداء واخطرهم هو لاسكاريس الذي هيمن عى كافة الاراضي فيما وراء مضيق القديس جورج واعلن نفسه امبراطورا واطبق علينا من كافة الجهات وجمع لاسكاريس عددا ضخما من السفن للاستيلاء على القسطنطينية . وان كثيرا من رجالنا ينوون الهروب . وان الكثيرين انحازوا الى جانبه ، ان كافة سكان اليونان يدمدمون ضدنا ووعدوا لاسكاريس بالمساعدة عندما يتقدم نحو القسطنطينية .

وانهى الامبراطور هنري رسالته بطلب المساعدة الاوربية ضد ذلك الخطر المحدق به .

وبالرغم من تلك المخاوف فقد انتصر اللاتينيون على جيوش نيقيا في معركة قرب نهر رنداكوس Rhyndacus في اسيا الصغرى سنة ١٢١١ . غير ان الحرب استمرت بعد ذلك حتى سنة ١٢١٤ حيث عقدت اتفاقية اعترف كل منهما بكيان الاخر ولم تكن تلك المعاهدة الا كسبا للوقت من جانب اباطرة نيقية الذين ساروا على النهج الذي رسمه المؤسس في لم شعث الامبراطورية البيزنطية وطرد الغزاة من الشعوب اللاتينية .

لقد حاول الامبراطور جون دوكاس John III Ducas ١٢٢٢ — ١٢٥٤ الاستيلاء على القسطنطينية مرتين الاولى في سنة ١٢٢٥ والثانية سنة ١٢٣٥ وسبب فشله في المحاولة الاولى هو دخول امبراطور ابيروس الحرب بجانب الامبراطورية اللاتينية ٤٧٨ . اما محاولته الثانية فتحالف فيها مع ملك بلغاريا اسن الثاني Asen وهاجم الجيشان الامبراطورية اللاتينية

---

477) Ostrogorsky, op. cit., 382
478) Ibid., 386

غير ان الجيش البلغاري فضل الانسحاب بالرغم من الانتصارات المتوالية سنة ١٢٣٦ لخشية الملك اسن من قيام امبراطورية بيزنطية قويه مجاورة له ، ولا طماعه في الاستيلاء على الامبراطورية اللاتينية بمفرده ٤٧٩ . لذا اضطر دوكاس الثالث على عقد هدنة مع الامبراطورية اللاتيننة ، وعلـــى كل فقد اصبحت امبراطورية نيقيا عند وفاته سنة ١٢٥٤ ممتدة من البحـــر الاسود الى سواحل الادرياتيك . اذ تمكن من الاستيلاء على مقدونيا سنة ١٢٤٦ وقدمت ابيروس له ولاء التبعية ولم يبق خارج سيطرة امبراطورية نيقيا من جهات البلقان غير بعض المناطق اليونانية والقسطنطينية ٤٨٠.

وبلغت امبراطورية نيقيا في عهد دوكاس الثالث الى مستويات معاشية جيدة . اذ اتبع هذا سياسة اقتصادية اشبه بحماية التجارة او الاقتصاد الوطني للمحافظة على ثروة بلاده . وكانت القيود الاقتصادية موجهـــــة بالدرجة الاولى ضد احتكارات البنادقة . وامر بمنع المواطنين من شراء الكماليات المستوردة اذ كان على كل فرد في امبراطوريته ان (يقنع بمـــا تغله الارض الرومانية وان يشتري ما تصنعه ايادي الرومان) كما ان الغزو المغولي الذي سلمت منه امبراطورية نيقيا بعد ان اكتسح اكثرية جهات اسيا الصغرى ، جعلها مركزا تجاريا هاما واخذت تنهال عليها المعادن الثمينـــة ثمنا للمنتوجات النيقية المصدرة ٤٨١ .

اما في عهد الامبراطور ثيودور الثاني ١٢٥٤ ــ ١٢٥٩ فلم تحدث تغييرات هامة بالنسبة لمساحة الامبراطورية وقد حالت دون مشروع اعادة بناء الامبراطورية البيزنطية في عهده ثلاث مشاكل رئيسية هي مخاطر المغول ومواقف البلغار العدائية ومؤامرات ما نفريد Manfred ملك الصقليتين مـــع حاكم ابيروس ميخائيل الثاني . ومع ان المغول لم يكن في نيتهم مهاجمـــة نيقيا الا ان سياسة ثيودور حتمت عليه الحذر والاستعداد لما يبيته المستقبل. غير ان الخطر الحقيقي المهدد لامبراطورية نيقيا كان من جانب الصقليتين. حيث ان مؤامرات مانفريد ضد نيقيا قد استمرت الى ما بعد وفاة الامبراطور ثيودور وقد تمكن مخيائيل الثامن فيما بعد من دحر قوى ميخائيل وحلفائه في موقعه بلاكونيا Pelagonia ١٢٥٩ .

---

479) Ibid., 389
480) Baynes and Moss, op. cit., 35
481) Ostrogorsky, op. cit., 394

اصبحت امبراطورية نيقيا في عهد ثيودور الثاني منارا ثقافيا لليونان . وان ثيودور الثاني نفسه كان اديبا وعالما ، اذ تتلمذ على اشهر اساتذة العصر وهما بلمبدس Blemmydes واكروبوليتا Acropolita ويعد الاستاذ الاول عالما لا هويتا وشاعرا وفيلسوفا وسياسيا ، ومن كتبه الشهيرة (الامبراطور المثالي) . قدمه هدية الى ثيودور الثاني وفي رأيه (ان السلطان قد اختاره الله لرعاية العباد وقيادتهم نحو الخير . وعلى السلطان تجنب الاستسلام للغضب والابتعاد عن المنافقين والمتملقين ...) اما الثاني فيعد من عظماء السياسين والمؤرخين . الف كتابا تاريخيا بحث فيه حوادث الامبراطورية الرومانية الشرقة منذ سنة ١٢٠٣ حتى سنة ١٢٦١ ويعتبر من المصادر الهامة عن الفترة التي نحن في صددها . ان التوجيهات التربوية التي قدمها هذان الاستاذان الى ثيودور الثاني كانت لها نتائج ايجابية في تربية ذلك الامبراطور اذ الف عدة رسائل في فروع المعرفة . وكان شديد الاهتمام في الشؤون المدرسية التي اولاها عنايته المباشرة ٤٨٤ وهو من المتمسكين بالديانة الارثودوكسية ولم يقبل بفكرة الاتحاد غير المتكافيء مع كنيسة روما (٤٨٥) .

اتبع ثيودور سياسة عنيفة تجاه امراء الاقطاع معتمدا في تنفيذها على وزيره موزالون Muzalon ‏٤٨٦ . وولدت هذه السياسة اثارا سلبية ظهرت ردود فعلها في عهد حكم ابنه جون الرابع ١٢٥٨ ـــ ١٢٦١ .

لقد كان عمر جون الرابع عند وفاة والده اربع سنوات فوضع تحت وصاية موزالون تلك الوصاية التي لم تدم غير بضعة ايام . اذ تمكن امراء الاقطاع بقيادة ميخائيل باليولوك Palaeologus من اغتيال الوصي بعد تسعة ايام من وفاة ثيودور الثاني اثناء الاحتفال الديني بذكرى وفاته المقام في الكنيسة الرئيسية في نيقيا ثم توج ميخائيل سنة ١٢٥٨ امبراطورا مشاركا (٤٨٧)

ان ميخائيل باليولوك يمت بالقرابة عن طريق والدته الى الاسرة السابقة

482) Baynes and Moss, op. cit., 553
483) Vasiliev, op. cit., 553
484) Ibid., 549-553
485) Ostrogoorsky, op. cit., 395
486) Ibid., 395-396
487) Ibid., 397

وكان اقطاعيا وعسكريا شغل رتبه قائد في الجيش ويوصف بأنه لبـــق ومحدث ماهر اعجب به الجند واحبه الناس واثارت شعبيته هــــذه وساوس البلاط . فتعرض الى تهمة التامر ضد العائلة الحاكمة ثلاث مرات فلت منها جميعا اما بسرعة بدهيته او بمساعدة اصدقائه

ففي عهد جون دوكاس الثالث نمي الى الامبراطور ان ميخائيل يدعــــي باحقيته بالعرش ووشى به رئيس اساقفة فلادلفيا فاحيل الى التحكيم المحنى Ordeal وطلب منه رئيس الاساقفة ان يبرهن على برائته بحمل كـــرة حديد متوهجة وان ينقلها ثلاث مرات من محل الى اخر في داخل الكنيسة . وتجنب ميخائيل ذلك الخطر بسرعة خاطره ، اذ قال لرئيس الاساقفة .. انني عسكري وعلى استعداد ان اخوض الامتحان مع الذين اتهموني . ولكن رجلا علمانيا مثلي تمور بنفسه الخطايا والذنوب لا يوهب المعجزات... اما انتم ، فأن تقواكم وقد سيتكم قد تستحق شفاعة السماء . واني مستعد ان استلم من يدكم كرة الحديد المتوهجة للبرهنة على برائتي .. ولقد ارتعدت فرائض رئيس الاساقفة لذلك الجواب وابتسم الامبراطور وامر بأخـــلاء سبيل ميخائيل . اما في عهد الامبراطور ثيودور الثاني فبلغ ميخائيـــل ان الامبراطور ينوي الانتقام منه ففر الى السلاجقة وهناك ساهم في مقاومـــة المغول وساعد على احلال السلم في مناطق الحدود الرومانية المشتركـــة مع هؤلاء ، لذا اصدر الامبراطور العفو عنه واعاده الى مركزه وكلفه بتولي قيادة الجبهة الابروسية . وهناك حامت حوله الشبهات ايضا . فأقتيد بالسلاسل من دورازو الى نيقيا وعند مثوله بين يدي الامبراطور الذي كان في مرضه الاخير امر باصدار العفو عنه ويقول المؤرخ اكروبوليتا بان ميخائيل لم يكن أهلا لذلك العفو (٤٨٧) .

استهل ميخائيل حكمه بانتصار عسكري ضد الحلف المكون من مملكـــة الصقليتين وابيروس وصربيا سنة ١٢٥٩ في موقعة بلاكونيا . ٤٨٨ ويعتبر ذلك الحلف الثلاثي من اخطر المشاكل التي واجهت ميخائيل الثامن فـــي بداية معتركه السياسي ان معركة بلاكونيا قد مهدت الطريق امام امبراطورية نيقيا للاستيلاء على القسطنطينية ولم يبق حائل دون ذلك المشروع سوى

487) Quotedin Gibbon, op. cit., Vol. VI, 221-222
488) Baynes and Moss, op. cit., 36

خطر اسطول البنادقة .. لهذا عقد حلفا عسكريا مع حكومة جنوا في اليوم الثالث من شهر مارس سنة ١٢٦١ بعد ان منحها امتيازات تجارية واسعة في الامبراطورية (٤٨٩) .

وقد انتهز ميخائيل فرصة غياب اسطول البنادقة عن القسطنطينية فتمكن من احتلالها في اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز يوليو سنة ١٢٦١ بدون اية مقاومة . واضطر بلدوين الثاني اخر اباطرة اللاتين على الفرار الى اوربا وتوج ميخائيل ثانية في اليوم الخامس عشر من اغسطس بعد ان تخلص من جون الرابع بتسميل عينيه (٤٩٠) . وبذلك اصبحت الامبراطورية البيزنطية منذ ذلك التاريخ حتى سقوطها ١٤٥٣ تحكم من قبل عائلة باليولوك.

★★★

489) Ontrogorsky, op. cit., 398-399
490) Vasiliev, op. cit., 539

اباطرة نيقيا

Theodore I Lascaris	1204 - 1222
John III Ducas Vatatzes	1222 - 1254
Theodore II	1254 - 1258
John IV	1258 - 1261

الفصل الحادي عشر

ـ انحطاط الامبراطورية البيزنطية وسقوطها ـ

١٢٦١ — ١٤٥٣

نظرة اجمالية عن الاوضاع العامة • مشاكل الامبراطورية ١٢٦١ـ١٣٥٤ ، سياسة ميخائيل الثامن • الصقليتين تصبح وكراً للمؤامرات ضد الامبراطورية الفرق الاجيرة • البنادقة والجنويون • الثورات • الصراع بين الصرب والبيزنطيين • المشكلة الدينية . الصراع بين العثمانيين والبيزنطيين ١٣٥٤ ـ ١٤٥٣ سقوط القسطنطينية

مع ان الامبراطورية تمكنت من اعادة سيطرتها على تراقيا ومقدونيا وابيروس وبعض الجزر اليونانية الا انها لم تتمكن في الواقع من اعادة التنظيم الاداري الى سابق عهده ٤٩١ اذ ضعفت الرابطة بين الحكومة

491) Hussey, op. cit., 75

المركزية ووحدات الثغور العسكرية وأصبحت هذه بمرور الوقت اقطاعـــات وراثية كبرى فقدت اهميتها العسكرية ولم يعد باستطاعة الحكومة المركزيه فرض ارادتها على رؤساء تلك المناطق للايفاء بتعهداتهم العسكرية . واثرت هذه الظاهرة تأثيرات سلبية في الجهاز العسكري والسياسة الماليـــة . اذ لجأت الحكومة البيزنطية الى الاعتماد كليا تقريبا على الجيوش الاجيـرة بنفقات كبيرة . كما لم يكن باستطاعة الاباطرة تلافي التدهور المالي لكثرة الفتن الداخلية وحروبهم مع العرب ولاستئثار المدن التجارية الايطاليـــة بموارد البلاد الرئيسية كجنوا وبيزا والبندقية حسب اتفاقات تجارية اضطر عليها الاباطرة المتعاقبون اضطرارا . ويمكن ملاحظة التدهور المالـــي للحكومة البيزنطية في هذه الفترة من انخفاض قيمة العملة الذهبيه المسماة Bezant للتلاعب في نسبة الذهب المسبوك ٤٩٢ .

اما في المجالات الخارجية فقد اصطدمت الامبراطورية بقوى عنيـدة في فترة ١٢٦١ ـــ ١٣٥٤ تمثلت في الاحلاف الغربية التي تمركزت حـول القيادة الصقلية الهادفة اعـــادة بناء الامبراطورية اللاتينية ، وفـــي المطامع الصربية على حساب بيزنطة ، هذا بالاضافة الى ظهور قوة جديدة على مسرح التاريخ الا وهي الدولة العثمانية التي اخذت بالتوسع علـــى حساب الممتلكات البيزنطية منذ بداية القرن الرابع عشر في اسيا الصغرى، ومن ثم في الاجزاء البلقانية البيزنطية منذ سنة ١٣٥٤ ـــ ٤٩٣

ان الدبلوماسية التي اتبعها الامبراطور ميخائيل الثامن تركزت في اتقاء مخاطر الحلف الغربي وتحييد الكنيسة الكاثوليكية في ان واحد . لذا فأن نقطة الانطلاق في سياسة ميخائيل الخارجية كيفية احباط مشاريع حكـام الصقليين الرامية لتقويض الامبراطورية . وعلى ذلك الاساس كيف ميخائيل سياسته تجاه جنوا والبندقية والبابوية .

لقد الت مملكة الصقليين في نهاية القرن الثاني عشر الى الامبراطـور هنـــري السادس مـــن عائلة هوهنستوفن الالمانية المتربعة على عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، نتيجة لزواج هنري السادس مـــن كونستانس Constance وريثة تاج الصقليين وقد توج في بالرمو سنة

492) Ibid., 76
493) Ostrogorsky, op. cit., 402

١١٩٤ .لذا ورث هذا الامبراطور ايضا العداء التقليدي بين نورمان صقلية والامبراطورية البيزنطية . ودام اتحاد العرشين الصقلي والالماني حتى ١٢٥٠. اي الى وفاة الامبراطور فردريك الثاني ومن ثم ال العرش الصقلي الى ابنه غير الشرعي مانفريد Manfred ٤٩٤ . وبالرغم من انصراف هذا لتحسين الاحوال المادية والمعنوية في مملكته الا انه اتخذ مواقف سلبية تجاه البيزنطيين . ويورد الاستاذ رونسيمان Runciman ثلاثة اسباب في معاداة مانفريد للبيزنطيين اولا اراد كسب عطف البابوية التي ما انفكت تناصب ال هوهنستوفن العداء محاولة دائما تقويض حكمها في الصقليتين نظرا لاعتبارها تلك المملكة تابعة لها من ناحية اقطاعية . ثانيا للثأر من اجل كرامة اخته التي كانت زوجة للامبراطور جون الثالث منذ سنة ١٢٤٤ وقد عوملت في البلاط النيقي معاملة غير مشرفة . واخيرا كان يأمل الحصول على منطقة نفوذ في سواحل الادرياتيك . غير ان مشروع مانفريد باء بالفشل على اثر اندحار جيوشه وجيوش حلفائه في موقعة بلاكونيا سنة ١٢٥٩ « ٤٩٥ » وقد واصل مانفريد خططه ضد البيزنطيين بحماس اشد وخاصة عندما التجأ اليه بلدوين الثاني الامبراطور اللاتيني الذى فقد عرشه في القسطنطينية نتيجة لاستيلاء ميخائيل الثامن عليها ١٢٦١ اذ كان بلدوين يحلم باعادة عرشه اللاتيني . وفي الوقت ذاته دخل ممثل الجنو يين المقيم في القسطنطينية في مفاوضات مع مانفريد حول مستقبل جنوا الاقتصادي في الامبراطورية البيزنطية فيحالة استعادة بلدوين الثامن للعرش المفقود . واقترح الممثل الجنوي القيام بهجوم خاطف على القسطنطينية لاعادة الحكم اللاتيني فيها . وقد استشاط ميخائيل الثامن غضبا عند سماعه بالمفاوضات . فامر بطرد السفير الجنوي من العاصمة واجرى مفاوضات مع البنادقة ضد الجنو يين تمخضت عن معاهدة استعادت فيها البندقية كافة امتيازاتها التجارية السابقة في الامبراطورية وتعهد البنادقه بالاشتراك مع البيزنطيين في قتال الجنويين فيما اذا نشبت الحرب ٤٩٦

ان الظروف لم تساعد مانفريد في تنفيذ خطته نظرا لتمشكله مع البابوية

---

494) Runciman S. The Sicilian Vespers)Middlesex, 1960) 24-25
495) Ibid., 41
496) Visiliev, op. cit., 591

التي انتهزت فرصة ضعف عائلة هوهنستوفن اثر وفاة فردريك الثاني الذي لقبه البابا أنوسنت الرابع بـ « عدو المسيح » ٤٩٧ ، فاخذت تجد في انهاء حكمها بصورة نهائية في الصقليتين . لذلك فاوض البابا انوسنست الرابع لويس التاسع ملك فرنسا ليرشح اميرا من العائلة المالكة الفرنسية الى عرش مملكة الصقليتين ، وقد اختار الملك الفرنسي اخاه شارل اوف انجو Charles of Anjou ٤٩٨ سنة ١٢٦٣ الذي زحف على جنوب ايطاليا سنة ١٢٦٥ وتمكن من القضاء على مانفريد في موقعة بنفنتينو Beneventino سنة ١٢٦٧ وتوليه العرش الصقلى « ٤٩٩ » وعقد شارل مع بلدوين الثاني اتفاقية بحضور البابا في مدينة فيتربو Viterbo في شمال روما في شهر مارس سنة ١٢٦٦ تنازل فيها بلدوين عن ادعائه في الامبراطورية البيزنطية الى شارل اوف انجو ما عدا القسطنطينية وبعض جزر الارخبيل ٥٠٠ وهكذا واجه ميخائيل الثامن خطرا جديدا من مملكة الصقليتين بقيادة الفرنسيين في هذه المرة .

حاول الامبراطور البيزنطي اتقاء ذلك الخطر باساليب دبلوماسية متنوعة فقد فاوض البابا كلمنت الرابع في شان اتحاد الكنيستين . ونجح فعلا في كسب كلمنت الى جانبه الذي اوعز الى شارل بتاجيل المشروع العسكري ضد الامبراطورية البيزنطية . كما عقد صلحا مع حكومة جنوا وسمح لها بمزاولة نشاطها الاقتصادي في القسطنطينية وفي ضاحيتها غلاطا Galata في الجانب الاسيوي وفي كافة ارجاء الامبراطورية ٥٠١ وطلب وساطة لويس التاسع في حل الخلاف القائم بين الكنيستين من اجل صالح المجتمع المسيحي . ونظرا لتقوى الملك الفرنسي وتدينه فلم يوافق على مشروع اخيه الرامي الى مقاتلة المسيحيين البيزنطيين ٥٠٢ ومع ذلك فلم تثن هذه الاجراءات شارل عن عزمه على غزو الامبراطورية البيزنطية الا ان تحطيم اسطوله نتيجة للاعاصير اثناء رجوعه من الحملة الصليبية على

497) Runciman, op. cit., 30
498) Ibid., 84-86
499) Ibid., 108-111
500) Ibid., 153-154
501) Vasiliev, op. cit., 593
502) Ostrogorsky, op. cit., 405-406

تونس سنة ١٢٧٠ قد خيبت اماله في ذلك الصدد . ومع ذلك فقد استمر شارل يرسل المساعدات العسكرية الى المناوئين لسلطة ميخائيل الثامن في جهات اليونان واغار فعلا على سواحل الادرياتيك فاستولى على دورازو وخضع له الالبان واصبح حاكم ابيروس تابعا له . كذلك فتح باب المفاوضات مع الصرب والبلغار واستحصل على تاييد البنادقة في سياسته المناوئـــة للبيزنطيين وقد التجأ اليه امبراطور نيقيا السابق الا هو جون لاسكاريس الرابع الذي خلعه ميخائيل وسمل عينيه وهكذا اصبحت الصقليتين مركـــزا لكافة الناقمين على الامبراطورية البيزنطية٥٠٣.

الا ان ميخائيل الثامن لم يكن بأقل حنكة سياسة من خصمه شارل الانجوي اذ ركز اهتمامه كما ذكرنا على البابوية من اجل تحطيم المشاريع العدوانية التي يدبرها ملك الصقليتين وقد استجاب البابا كريكوري العاشر لنـــداء ميخائيل في شان توحيد الكنيستين واعرب عن معارضته لفكرة الحرب ضد البيزنطيين وقد تم الاتفاق فعلا بين البابوية والوفد البزنطي في مؤتمـــر ليون المنعقد في سنة ١٢٧٤ على اتحاد الكنيستين ذلك الاتحاد الذي بقـــى حبرا على ورق « ٥٠٤ » ان التقارب بين الكنيستين اعطى ميخائيل الثامن حجة شرعية في مطاردة النفوذ الانجوي في اليونان وتمكن في الواقع من دحر الجيوش الفرنسية وحلفائها في تلك الجهات .

غير ان اخطار شارل الانجوي قد تجددت على اثر وفاة كريكوري العاشر ومجيء البابا مارتن الخامس المؤيد للسياسة الانجوية الرامية لاعـــادة بناء الامبراطورية اللاتينية . وتحالف شارل مع البندقية من اجل ذلـــك سنة ١٢٨٠ وكون حلفا عسكريا ضمكلا من بلدوين الثاني والبابوية والصرب والبغار ، وبات ميخائيل مهددا بخطر الغزو الغربي . لهذا اضطـــر الى مفاتحة السلطان الناصر قلاوون سلطان مصر ، لتكوين حلف دفاعي ضد العدو المشترك سنة ١٢٨١ . وفي الوقت ذاته اوجد ميخائيل حلفا عسكريا مضادا لما سبق متألفا من ملك الاركون بطرس وكافة العناصر الصقليـــة الناقمة على الحكم الانجوي وقد كان ملك الاركون مرتبطا باواصر عائليـــة

503) Vasiliev, op. cit., 495
504) Ware, op. cit., 70

مع اسرة هوهنستوفن صاحبة السلطان الشرعي في الصقليتين قبل مجيء الانجوي . وقد وافت بطرس الفرصة عند قيام اهل صقلية في ثـورة ضد الفرنسيين في عيد الفصح سنة ١٢٨٢ في بالرمو ومنها عمت الجزيرة وبعد مفاوضات بين الثوار وملك الاركون اسفرت عن موافقة الاخير على التدخل المسلح . وقد نزل بقواته في ترباني Trapani سنـة ١٢٨٢ومنها الى بالرمو حيث توج ملكا على صقلية ٥٠٥ :

لقد انقذت الثورة الصقلية Sicilian Vesper الامبراطورية البيزنطيـة من خطر محقق ، وجعلت صقلية دولة صديقة للبيزنطيين واحبطـت الثورة امال البابا مارتن الخامس في اعادة الامبراطورية اللاتينية وضعضعت نفوذه الديني في تلك الجزيرة . كما ادت بجمهورية البندقية ان تقلب ظهر المجـن الى شارل الانجوي الذي اقتصر حكمه في سنة ١٢٨٢ على جهات نابلـي وسارعت الى الاتفاق مع البيزنطيين .

اصبح من الصعب على الامبراطورية البيزنطية المحافظة على مكانتهـا الدولية منذ وفاة ميخائيل الثامن ولم يكن ذلك لنقص في مقدرة الاباطـرة الذين تولوا العرش وانما يكمن السبب في اشتداد ساعد المؤسسـات الاقطاعية واتجاهاتها اللامركزية وفي النقص المتزايد في الموارد الماليـة وصعوبة تهيئة القوى الدفاعية لمجابهه مخاطر العثمانيين في اسيا الصغرى والصرب في البلقان « ٥٠٦ » لهذا اخذ الامبراطور اندرونيكوس الثاني ١٢٨٢ — ١٣٢٨ يستعين بالفرق الاجنبية . ومن اهم هذه الفرق التـي لعبت دورا خطيرا في تاريخ الامبراطورية في تلك الفترة هى الفرقة الاسبانية القطلونية . وتالفت الفرقة هذه من عدة جموع محاربة اسبانية وغيرهـا استخدمها في بداية الامر بطرس الاركوني في صقلية اثناء حربـه ضـد شارل الانجوي ، وعند انتهاء العمليات العسكرية هناك تم الاتفاق بيـن رئيس الفرقة المسمى روجي دفلور Roger de Flor والامبراطور اند رونيكوس على استخدامها في اسيا الصغرى ضد العثمانيين سنـة

505) Runciman, op. cit., 250
506) Hussey, op. cit. 78

١٣٠٣ وكان عددهم ما يقارب ستة الاف وخمسمائة مقاتل « ٥٠٧ » وقـــد اختلف المؤرخون في تقييم شخصية روجي هذا . اذ اعتبره الاسبان بطلاقوميا واعتبره اليونانيون مغامرا افاقا « ٥٠٨ » ومع ان الفرقة الاسبانية احـــرزت عدة انتصارات على الجيوش العثمانيةفي اسيا الصغرى الا ان العلاقات اخذت بالتدهور بين الفرقة الاسبانية والسكان الوطنيين من جهة وبين الفرقـــة والامبراطور من جهة ثانية ، على اثر اعمال السلب والنهب ولمحاولـــة روجي تكوين امارة مستقلة في اسيا الصغرى بالاضافة الى احتلاله شبه جزيـــرة كاليبولى الاستراتيجية على سواحل اليسفور بدون موافقة الحكومة البيزنطية واضطر اند رونيكوس الى مهادنته ثم منحه لقب القيصر وخاصة بعد ان ضيق الخناق على القسطنطينية لمدة سنتين ١٣٠٥ ـ ١٣٠٧ . واخيرا تمكنـــت السلطات البيزنطية من التخلص من روجي بمؤامرة دبرت في ادريانوبل انتهت باغتيـــــالـــــه .

غيـــر أن الفرقة القطلونية قامت بحملة انتقامية شديدة ضد مدن متعددة ومن ثم أعتصمت في اثينا سنة ١٣١١ مؤسسة فيها حكومـــة دامت لثمـــان سنوات ، وتسمت اعمال هؤلاء الفرسان بطابع الوحشية والدمار حتى غدت كلمة قطلون **Catalon** تفيد ذلك المعنى في اللغة اليونانية « ٥٠٩ »

ومما زاد في موقف الحكومة البيزنطية حراجة كثرة الحروب الاهلية بيـــن افراد الاسرة الحاكمة من جهة وبين افراد تلك الاسرة واسرة كنتاكوسيـــن Cantacuzenus الطامحة الى العرش من جهة ثانية وادى النزاع الى فسح المجال لتدخلات الصرب والبلغار والعثمانيين والمدن الايطالية في تلـــك الحروب الاهلية . ففي النزاع الذى نشب بين اندرونيكوس الثاني وولـــي عهده الذي أصبح فيما بعد يعرف باندرونيكوس الثالث ، قدم البلغار مساعداتهم العسكرية للامبراطور بينما تحالف الصربيون مع ولي العهد « ٥١٠ » وتمكـــن الصرب من انزال هزيمة كبرى في الجيوش البلغارية سنة ١٣٣٠ في جهـــات مقدونيا . وعلى اثر ذلك أصبحت دولة صربيا من اقوى دول البلقان « ٥١١ »

---

507) Ostrogorsky, op. cit., 438-439
508) Vasiliev, op. cit., 604
509) Ibid., 607
510) Baynes and Moss, op. cit., 42-43
511) Ostrogorsky, op. cit., 450

واخذ التنافس حول العرش يزداد خطورة عند وفاة اندرونيكوس الثالث ١٣٤١ اذ ترك هذا وريثا صغيرا حرك اطماع كنتاكوسين الذي تمكن من تتويج نفسه امبراطورا ١٣٤٧ — ١٣٥٥ — غير ان عائلة باليولوك استعادت العرش بمساعدة الجنويين ١٣٥٤ « ٥١٢ »

ان التنافس الاقتصادي بين البنادقة والجنويين وتأرجح السياسة البيزنطية بينهما ادى الى سيطرة الايطاليين على المرافق الاقتصادية الهامة والى قيام حروب بينهم في المياه والاراضي البيزنطية . فمنذ عهد ميخائيل الثامن أحتل الجنويون المقام التجاري الاول في الامبراطورية . اذا امر ميخائيل بالغاء الضرائب المفروضة على بضائعهم وسمح لهم باقامة المصانع والمخازن والقلاع العسكرية في مختلف اجزاء امبراطوريته لغايات سياسية . وقد اثار ذلك حكومة البندقية وخاصة عندما خسرت كافة امتيازاتها التجاريه في الاراضي المقدسة عند سقوط عكا اخر المعاقل الصليبية سنة ١٢٩١ . ان الاحتكارات الاقتصادية والحروب بين الجنويين والبنادقة في الاراضي والمياه البيزنطية والحروب الاهلية والتخريبات التي انزلتها الفرق الاجيرة في الارياف والمدن وغارات الالبان والصرب والبلغار على الجهات البلقانية والاختلافات الطائفية ادت بمجموعها الى تعميق الفوارق بين الطبقات والى اشتداد التعسف الاقطاعي « ٥١٣ » وكان من نتيجة ذلك صراع حاد بين الفلاحين والاقطاعيين في الارياف يقابله صراع اخر في المدن بين الارستقراطية والفئات الشعبية ويشير الاستاذ Baynes الى هذه الظاهرة بقوله « لقد ثارت الطبقات الدنيا ضد ارستقراطية المولد والثراء » ٥١٤ ومن اشهر تلك الثورات ثورة سلانيك Salonica سنة ١٣٤١ — ١٣٤٩ والتي انتشرت منها الى عدة مدن اخرى . بدات الثورة عند وفاة اندرونيكوس الثالث سنة ١٣٤١ متخذة طابع حرب طبقية . والسبب المباشر في الثورة تاييد النبلاء والارستقراطية في المدن الى المغتصب كنتاكوسين بينما ابدت الطبقات الاخرى الحق الشرعي لابن اندرونيكوس الثالث . وقال عن نلك المؤرخ تغرالي Tafrali « لم يعد النزاع بين كنتاكوسين واندرونيكوس نزاعا من اجل السلطة فقط وانما

---

512) Hussey, op. cit., 78
513) Vasiliev, op. cit., 615-616
514) Baynes and Moss, op. cit., 43

هو صراع بين طبقتين ارادت احداهما الاحتفاظ بالسيطرة والامتيازات وارادت الثانية التحرر من تلك السيطرة وتلك الامتيازات » ٥١٥ . وتمكن الثوار في سلانيك من تأسيس حكومة مستقلة ، وهنا سارع الغريمان الى تصفية ما بينهما من خلافات بصورة وقتية لاخماد تلك الثورات وخاصة في سلانيك سنة ١٣٤٩ .

ساعدت الاوضاع المرتبكة في الامبراطورية على تزايد نفوذ كل من الصرب في البلقان والعثمانيين في اسيا الصغرى . اذ اصبحت صربيا في عهد مكلها دوشان Dushan ١٣٣١ — ١٣٥٥ تطمح الى الاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية وشبه المؤرخ البيزنطي المعاصر نقفور دريكور راس خطر دوشان على الامبراطورية بـ « طغيان نهر عظيم غطت مياهه جانبا من الامبراطورية واخذت تهدد الجانب الاخر بالطوفان » ٥١٦ . لقد استولى دوشان على اكثرية مقدونيا واعلن نفسه قيصرا . واخذ يعد العده للوثوب على القسطنطينية محاولا تحقيق مشروعه باساليب دينيه ودبلوماسيه وعسكريه اذ اعتمد على رجال الدين وخاصه الرهبان منهم ، فاغدق عليهم الامتيازات وحررهم من الكثير من القيود السياسيه ونجح في عقد مؤتمر ديني عام لكنيسه الارثوذكس في بلاده في مدينه سكوبيا Scopia في شمال مقدونيا سنه ١٣٤٦ تقرر فيه انفصال الكنيسه الصربيه عن بطرقيه القسطنطينيه والاعتراف بدوشان امبراطورا « ٥١٧ » وتفاوض مع كل من البنادقه والدوله العثمانيه للسيطره على القسطنطينيه . غير ان البنادقه رفضوا الاشتراك في ذلك المشروع نظرا لكونهم يتطلعون بمفردهم الى الاستيلاء على العاصمه البيزنطيه .

اما مفاوضاته مع العثمانيين فلم تات بنتائج ايجابيه نظرا لاطماع العثمانيين في الامبراطورية البيزنطية ولعدم موافقتهم على قيام امبراطورية قويه بجانبهم وحاول دوشان تحقيق غرضه بالتدخل المسلح اثناء الحروب الاهلية من اجل العرش البيزنطي، تلك الحروب التي نشبت بين جون الخامس ١٣٤١ — ١٣٩١ وكنتاكوسين . اذ استنجد جون الخامس بدوشان بينما استعان كنتاكوسين بالعثمانيين ودارت الدائرة على جيوش دوشان « ٥١٨ » وتوفي دوشان سنة

---

515) Quoted in Vasiliev, op. cit., 683
516) Ibid., 617
517) Ibid., 619
518) Ibid., 621

١٣٥٥ بعد أن رأى احلامه في الاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية تتلاشى امام نظريه . وتخلصت الامبراطورية بوفاته من عدو خطير هذا ولم يشكل ملوك الصرب الذين تولوا العرش بعد دوشان خطرا يذكر على الامبراطورية البيزنطية .

المشكلة الدينية : ١٢٦١ — ١٣٥٤

تركزت المشكلة الدينية في هذه الفترة حول نقطتين هامتين الاولى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية والثانيةمواقف الارثودكس من المحاولاتالاتحاديه فمع ان الحملة الصليبية الرابعة من الحوادث الخطيرة التي شطرت العالم المسيحي الى معسكرين متباعدين الا ان هناك محاولات في القرن الثالث عشر هدفت الى راب الصدع بين الجانبين . ومن اهم تلك المحاولات هي التي قام بها ميخائيل الثامن بواسطة وفده الديني الى مؤتمر ليون في الاراضي الفرنسية سنة ١٢٧٤ . حيث اظهر الوفد البيزنطي استعداده لاتباع كنيسة روما في زعامتها العالمية وطقوسها الدينية « ٥١٩ » اما السبب الرئيسي الذي حدا بالامبراطور ميخائيل الثامن للاقدام على تلك الخطوة فكان كما ذكرنا لاغراض سياسية . اذ قصد منها كسب البابوية واحباط الحل فالعسكري الذي تزعمه شارل الانجوي الموجه ضدالبيزنطيين وتمكن ميخائيل من الحصول علىتاكيدات من البابوية بان القسطنطينية له بلا منازع ، وانه مطلق التصرف في الشرق وله الحق في استعادة كافة المناطق التى كانت سابقا للامبراطورية . واعطى حق استرداد بعض المناطق اللاتينية في جهات اليونان ولو بالقوة « ٥٢٠ »

ان قرارات مؤتمر ليون احدثت ضجة كبري في صفوف الارثودكس وفضلت الكنائس البيزنطية اتباع طرقها الخاصة في العبادة « ٥٢٠ » والمحافظة على استقلالها بالرغم من احتفال ميخائيل الثامن رسميا بالاتحاد في كنيسة القديسة صوفيا سنة ١٢٧٥ . وليس ادل على شدة احتجاج الكنيسة الشرقية على سياسة ميخائيل من القرار المتخذ بحرمان الامبراطور من مراسيم الدفن المسيحي « ٥٢٢ » .

---

519) Bullough, Roman Catholicism (Middllesex, 1963) 200
520) Baynes and Moss, op. cit., 39
521) Ibid., 40
522) Gibbon, op. cit., 234

لقد ادت سياسة ميخائيل في هذا الشان الى انقسام حاد في الكنيســـة الارثودكسية . اذ انضوى المؤيدون والمناهضون لسياسة الاتحاد في الحزبين التقليديين هما الغلاة Zealots والمعتدلون واعتقد الحزب الاول بحريــة الكنيسة واستقلالها عن التدخلات السياسية وعارضوا بشدة مشروع الاتحاد واكتسب هؤلاء شعبية كبرى وساندهم الرهبان اما الحزب الثاني فاعتقــد بوجوب استمرار التعاون بين الكنيسة والدولة واشتمل صف المعتدلين على رجال الدين من غير الرهبان وعلى عدد من المثقفين وبلغ الاختلاف على هذا الموضوع درجة عنيفة اذ وصف بانه « جعل الاصدقاء خصوما وفرق بيــن الابن وابيه والاخ واخيه » ٥٢٣ ، وقد « اخذت اخت الامبراطــور يولوجيا Eulogia واميرات اخرياتيد أمرن على ميخائيل عن طريق البلغــار والمماليك ، ٥٢٤ » ومن اشهر فرق الغلاة التي قاومت الدولة هي الفرقــة الارسينية Aresenism وسميت بذلك نسبة الى مؤسسها ارسينيوس Aresenius بطريق نيقيا الذي اعتبر ميخائيل الثامن مغتصبا للعرش ومجرما في حق الكسيوس لاسكاريس وخاصة عندما امر بتسميــل عينيه ، لهذا اصدر ضده عقوبة الحرمان منذ سنة ١٢٦٦ «٥٢٥ » . وبالرغم مــن اقالة البطريق ومطاردته فان اتباعه واصلوا نشر دعوتهم سرا . واشتــدت حركتهم في عهد اندرونيكوس الثاني حتى انه اضطر الى الغاء الاتحاد بين الكنيستين ومع ذلك بقى الغلاة يشكلون قوة دينية وسياسية معارضة موجهة ضد الطبقات الحاكمة ولعبوا دورا خطيرا في تزعم الثــورات الشعبية في كبريات المدن البيزنطيــة .

وقد ظهرت حركتان دينيتان ساهــمتا في البلبلة الدينيــة « ٥٢٦ » في الامبراطورية البيزنطية طيلة النصف الاول من القرن الرابع عشر هما الفرقة الصامتة Hesychasm وسميت بذلك لاعتقادها بان افضل اساليب العبادة التي توصل الانسان بخالقه هي عن طريق الانقطاع عن الحيـــاة الدنيا وملازمة الصمت . ثم قالوا بان اللغة لا يمكنها التعبير عن صفــات الله فيجب عدم وصفه بالكلمات المثبتة . وعليه فان اردنا ان نفهم الخالــق

523) Vasiliev, op. cit., 660
524) Gibbon, op., cit., 233
525) Ostrogorsky, op. cit., 411
526) Vasiliev, op. cit., 663

من طريق صفاته فحب التحدث عنها باسلوب النفي لكي يكون الانسان اقل ضلالا عند تحدثه في ذلك الموضوع . وكان زعيم تلك الفرقة في القرن الرابع عشر هو كريكوري بالاماس Gregory Palamas ١٢٩٦ ــ ١٣٥٩ ان الخطوط الاساسية لذلك النوع من التعبد تعود تاريخيا الى اورجن الاسكندري Origen of Alexandria المتوفى عام ٢٥٣ م. واخذ بتعاليمه كل من كريكوري اوف نيسا Gregory of Nyssa وايفا كريوس اوفبونتوس Evagrius of Pontus في اواخر القرن الرابع . وبلغ الاسلوب السلبي في التحدث عن صفات الخالق عصره الكلاسيكي على يد دايونسيوس Dionysius احد الذين اعتنقوا المسيحية على يدالحوراي بولس في اثينا ثم وسعها في القرن السابع القديس ماكسيموس St. Maximus المتوفي عام ٦٦٢ وانتشر الاتجاه الدايونسيوس في الغرب ايضا وتأثر فيه توماس اكويناس ثم انتشر في انكلترا في القرن الرابع عشر بشكل مذهـل بالاضافة الى ذلك الجانب التعبدي فان الفرقة الصامتة اثارت مشكلــة اخرى حول الجسم ودوره في الصلاة . اذ اشار ايفاكريوس الى الصــلاة بانها ظاهرة عقلية وليست جسمانية . لهذا فان الارثودوكس غالبا مــا يستعملون جملة صلاة القلب . ان طريقه تعبد هؤلاء تشبه الى حد ما التعبد الصوفي ، او اهل « الذكر » تبدأ صلاتهم بعبارات مفهومة واضحة ثم تختزل عند الاستمرار في الترديد النمطي . ان ذلك التريد يساعد حسـب اعتقادهم على الاستغراق الكلي في الذات العلية وان اقصى ما يحــاول هؤلاء الوصول اليه رؤية النور الرباني الذي نور المسيح ٥٢٧ .

اما الفرقة الاخرى التي عارضت ذلك النحو من التعبد فهي الفرقـــة البارلامية Barlamism نسبة الى مؤسسها بارلام اوف كالابريا Barlam of Calabria الذي حرم استعمال اسلوب النفي للدلالة على صفات الذات العلية واتهم الصامتين بالكفر حينما يدعون بأنهم عن طريق الاستغراق يمكنهم رؤية النور الرباني . وان رؤيتهم لذلك النور يفيد معنى التجسيد وان الظاهرة الاخيرة تقود الى ان المسيح مخلوق . ٥٢٨ وعلى كل فقد قـررت

527) Ware, op. cit., 72-75
528) Ibid., 76

الكنيسة الارثودوكسية في مؤتمرها العام لسنة ١٣٥١ بان الفرقة الصامته لا تتعارض مع المعتقد الارثودوكسي ، وان تهم برلام باطلة وقد تقرر تحريمه (٥٢٩) .

الصراع بين البيزنطيين والعثمانيين ١٣٥٤ — ١٤٥٣ .

تميزت هذه الفترة بالتوسع العثماني في البلقان بمختلف الوسائل واسفر صراعهم مع البيزنطيين عن سقوط الامبراطورية وزوال الحكم الروماني بصورة نهائية . لقد ورث العثمانيون الصراع بين السلاجقة والبيزنطيين ، على اثر اضمحلال دولة قونية السلجوقية في نهاية القرن الثالث عشر نتيجة للضربات الماحقة التي تلقتها من المغول ٥٣٠ . والدولة العثمانية في بدايتها احـدى الامارات التابعة للسلاجقة في الطرف الشمال الغربي من اسيا الصغرى ، ومهمة الاتراك كانت حماية الثغور الاسلامية في تلك الجهات ، بدأت الامارة بالاستقلال في عهد عثمان مؤسس الدلة العثمانية ١٢٨٨ — ١٣٢٦ الذي اتخذ لقب السلطان حوالي سنة ١٣٠٠ ، لقد استفاد العثمانيون في عهد السلطان اورخان ١٣٢٦ — ١٣٥٦ من نزاع البيزنطيين حول العرش فساعدوا كنتاكوسين ضد اسرة باليلوك الحاكمة . وبذلك تهيأت الفرصة الى اورخان في الاستيلاء على مدينة كاليبولي ذات المركز الاستراتيجي الهام على البسفور سنة ١٣٥٤ ، ومن ذلك الموقع اخذ العثمانيون يتوسعون في البلقان ٥٣١ .

ان المشكلة الرئيسية التي واجهت جون الخامس منذ ١٣٥٥ حتى ١٣٩١ هي كيفية المحافظة على الامبراطورية من الخطر العثماني . فقـد حاول كسب عطف البابوية والدول الاوروبية بثمن كبير على حساب مذهبه وكرامته . فموضوع اتحاد الكنيستين قد كان حقا ورقة رابحة في ايدي حكام البيزنطيين في عهد ميخائيل الثامن غير انها لم تعد هكذا فيما بعد ومع ذلك استمر الاباطرة البزنطيون يعقدون عليه الامال اذ ارسل الامبراطور جون الخامس الى البابا انوسنت السادس يسأله المساعدة العسكرية مقابل اتحاد الكنيستين ثم ارسل ابنه البالغ من العمر ست سنوات ليشرف البابا

---

529) Ostrogorsky, op. cit., 466
530) Hussey. op. cit., 80
531) Eversley, The Turkish Empire (Lahore, 1959) 39.

على تربيته تربية كاثوليكية وان يكون له بمثابة الاب .. ولم يحظ الامبراطور من البابوية انذاك سوى تمنياتها بسلامة الامبراطورية ومباركتها لعواطفه السامية ٥٣٢ .

اضطر جون الخامس ازاء التوسعات العثمانية في الامبراطورية وفي جهات البلقان ان يسافر الى اوربا بنفسه ليستعطف المساعدة . اذ زار روما سنة ١٣٦٩ واعلن امام الملأ اعتناقه للمذهب الكاثوليكي باحتفــــال رسمي وغرضه من ذلك الحصول على مساعدة الغرب الكاثوليكي العسكرية ضد الاتراك . ولم يلق نداؤه للدول الاوروبية اذ انا صاغية . لان البابوية انذاك في مرحلة الاسر البابلي ١٣٠٥ — ١٣٧٧ وهي التسمية الاصطلاحية التي اطلقت على اقامة البابوات الاجبارية في مدينة افينون Avignon التي فرضها ملوك فرنسا . وقد اعتبرت الدول الاوروبية وخاصة انكلترا التي كانت في حروب المائة عام مع فرنسا في ذلك الوقت بان البابوية اداة سياسية يسيرها ملوك فرنسا ٥٣٣ . هذا بالاضافة الى ان حكومة البندقية كانت في علاقات حسنة مع الامبراطورية العثمانية ولم تنظر بعين الارتياح الى محاباة الحكومة البيزنطية الى غريمتها جنوا وعند مرور الامبراطور جون الخامس بالبندقية اثناء العودة القى البنادقة عليه القبض ورفضوا اطــلاق سراحه الا بعد مجيء ابنه وتسديده الديون المتراكمة على الدولة البيزنطية للبنادقة ٥٣٤ كما ان اعتناقه للكاثوليكية اثار ضجة عنيفة بين الارثودوكسي .

وفي ذات الوقت واصل العثمانيون في عهد السلطان مراد الاول ١٣٦٢ — ١٣٨٩ تقدمهم في البلقان على حساب الامبراطورية البيزنطية وصربيــا وبلغاريا . اذ احتلوا مدينة ادريانوبل سنة ١٣٦٥ واصبحت عاصمة لهم حتى سنة ١٤٥٣ وتمكنوا من الاستيلاء على مقدونيا ١٣٨٠ واحرزوا نصــــرا حاسما سنة ١٣٨٩ على الجيوش الصربية في معركة كوسوفا Kossova ٥٣٥ حاول الامبراطور مانويل الثاني ١٣٩١ — ١٤٢٥ عدة محاولات لانقاذ مابقى من امبراطوريته من الخطر العثماني . وقد ارسل اليه السلطان العثماني بايزيد الاول ١٣٨٩ — ١٤٠٢ برسالة انذار وتهكم يحذره فيها من

532) Ostrogorsky, op. cit., 477
533) Strayer and Munro, op. cit. 421
534) Vasiliev, op. cit. 588
535) Eversley, op. cit., 42

اتخاذ سياسة معادية مشيرا عليه (ان اردت رضائي فاحكم في القسطنطينية بعد ان تكون قد تأكدت من احكام ابوابها عليك) ٥٣٦ . والحقيقة لم يبق من الاماكن الهامة خارج السيطرة العثمانية سوى القسطنطينية وسلانيك والمورا ، هذا ولم يتمكن العثمانيون انذاك من مهاجمة القسطنطينية نظرا لعدم وجود قوة بحرية قوية لديهم تمكنهم من قطعها عن الامدادات الخارجية ٥٣٧ .

استفزت التوسعات العثمانية في البلقان وخاصة اثر موقعة كوسوفا دولة المجر في عهد ملكها سكسموند Segismund ونجح هذا في تأليف حلف عسكري ساهمت فيه فرنسا والبابوية والبندقية وفرقة فرسان القديس جون . الا ان هذه الحملة الاشبه بالصليبية تلاشت امام العثمانيين في موقعة نيكوبولس Nicopolis في جهات الدانوب السفلي سنة ١٣٩٦ وتمكن سكسموند من النجاة بحياته ٥٣٨ .

وعليه وجه مانويل الثاني نداء الاستغاثة الى ملك فرنسا بعد تلك الهزيمة . وفعلا جهز الفرنسيون حملة صغيرة بقيادة الجنرال بوسيكوت Baucicout غير ان هذا الجنرال لم يقدر على مواصلة قتال العثمانيين فقرر الرجوع الى فرنسا سنة ١٣٩٩ واشار على الامبراطور مانويل بالسفر معه الى اوربا لغرض عرض امره على حكامها . وقد غادر الامبراطور في اليوم العاشر من ديسمبر سنة ١٣٩٩ الى البندقية ومنها الى روما وباريس ولندن وامضى في زيارته بضعة سنوات لم يجن منها غير الوعود ٥٣٩ .

اطالت الظروف في عمر الامبراطورية البيزنطية لمدة نصف قرن تقريبا نتيجة لزحف تيمورلنك على اسيا الصغرى ودحره العثمانيين في موقعة انقرة سنة ١٤٠٢ ووقوع السلطان بايزيد الاول في الاسر واشتعال الحروب الاهلية في الدولة العثمانية ٥٤٠ .

وادت الكوارث المتلاحقة على الامبراطورية البيزنطية الى ردود افعال شديدة خاصة بين الاوساط الثقافية اليونانية في شبه جزيرة المورا . وقد فكر احد فلاسفة العصر الا وهو بلثون Plethon بخطة فلسفية ايعيد

536) Vasiliev, op. cit., 587
537) Ostrogorsky, op. cit. 490
538) Ibid., 491
539) Ibid., 492
540) Hussey, op. cit., 82

فيها بناء الامبراطورية من النواحي الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية . ويلثون هذا مثالي النزعة ومن اتباع المدرسة الافلاطونية الحديثة استمد خطوط اصلاحاته الاساسية من جمهورية افلاطون اذ تطرق في تقريره المقدم الى الامبراطور مانويل الثاني الى المشكلة الاقتصادية مقترحا لعلاجها اعادة النظر في توزيع الثروات ويقصد بذلك الغاء التملك الخاص للاراضي حيث اشار الى ان الارض ملك الجميع حسب القانون الطبيعي . وقسم الافراد الى ثلاث طبقات بحسب ما يؤدونه من وظائف الا وهي طبقة الفلاحين والعمال اولا واصحاب الاموال ثانيا ثم طبقة الحكام المسؤولين عن الامن وحفظ النظام . وتطرق الى المشكلة الدفاعية مقترحا الاقلاع عن الاعتماد على الفرق المأجورة الاجنبية وتكريس الجهود على تنمية الطاقات العسكرية للمواطنين الاصليين . ثم صنف المواطنين في مجموعتين من ناحية تأدية الواجبات . الاولى مجموعة دافعي الضرائب والثانية مجموعة المحاربين والاداريين مقترحا اعفاء الجند والاداريين من الضرائب . وكان تقريره صيحة في واد او نفخة في رماد بالاضافة الى عدم واقعيته ٥٤١ .

اخذ العثمانيون يشدودن الخناق على القسطنطينية في عهد السلطان مراد الثاني ١٤٢١ ــ ١٤٥١ . اذ قرر هذا القضاء على ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية وخاصة عندما اشتركت الحكومة البيزنطيه في اشعال ثورة ضد السلطان العثماني . لهذا فرض الحصار على القسطنطينية سنة ١٤٢٢ غير انه لم يتمكن منها لمناعتها وكذلك لمنافسة اخيه مصطفى له على العرش . فاضطر لرفع الحصار وتأجيل مشروع الفتح ٥٤٢ . مكتفيا بما تعهد فيه البيزنطيون من استمرار دفع الاتاوات السنوية والتنازل عن بعض المدن في تراقيا .

ان ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية عند اعتلاء جون الثامن العرش ١٤٢٥ ــ ١٤٤٨ هي العاصمة وشبه جزيرة المورا ومدن متفرقة في تراقيا ومنطقة سلانيك . وكانت هذه الاجزاء مستقلة تقريبا في ادارتها عن الحكومة المركزية مما سهل على العثمانين ابتلاعها تباعا . اذا استولى هؤلاء على المناطق المحيطة بميناء سلانيك سنة ١٤٣٠ اما الميناء نفسه فكان

541) Vasiliev, op. cit., 638-639
542) Ostrogorsky, op. cit., 497

يحكمه احد اخوان الامبراطور والذي باعه الى حكومة البندقية ولم يتمكن البنادقة من الصمود امام الاتراك حيث وقع بايديهم في السنة نفسها (٥٤٣)

حاول جون الثامن الاستعانة باوربا . لهذا قصد ايطاليا لمقابلة البابا يوجين الرابع Eugene ١٤٣١ — ١٤٤٧ واسفرت زيارته عن موافقته على اتحاد الكنيستين في المؤتمر الديني المنعقد في فلورنس ١٤٣٨ — ١٤٣٩ وقد استنكر معظم رجال الكنيسة الارثودوكسية ذلك الاتحاد . كما اثار احتجاجات الدول السلافية وخاصة روسيا التي رأى رجال الدين فيها موافقة بطريق القسطنطينية على الاتحاد خيانة للمعتقد الصحيح ٥٤٤ . وكانت المساومة لقاء ذلك الاتحاد المساعدة العسكريةللامبراطورية. اذا اعلن البابا الدعوة الى حرب صليبية ضد الاتراك ووجه الرسائل في هذا الخصوص الى كل من صربيا وبولونيا والمجر والبانيا . وكانت قيادة الحملة برئاسة كل من ملك بولونيا ياجلون Jagellon وولادسلاو Valdislav والزعيم المجري هنيادي Hunyadi وحققت الحملة في البداية انتصارا على الجيوش العثمانية واضطر السلطان مراد الثاني سنة ١٤٤٤ لعقد صلح لمدة عشر سنوات . غير ان هذا الصلح اثار احتجاج البابوية وبقية القادة وعليه فقد استؤنفت الحرب والحق العثمانيون خسائر كبرى في الجيوش الصليبية في موقعة فارنا Varna سنة ١٤٤٤ اذ قتل فيها ملك بولونيا واضطر هنيادي الى التراجع الى المجر ٥٤٥ . وتعتبر هذه الحملة اخر المساعدات الاوربية للبيزنطيين حيث تركت الامبراطورية فيما بعد لشأنها مع الاتراك . اما الامبراطور جون الثامن فلم يشترك في معركة فارنا ، مفضلا اتباع سياسة سلمية تجاه العثمانيين للمحافظة على ما تبقى من دولته .

سقوط القسطنطينية :

توفي جون الثامن سنة ١٤٤٨ ولميترك وريثا من صلبه واخيرا تم الاتفاق سنة ١٤٤٩ على اختيار احد اخوانه المسمى بقسطنطين امبراطورا . وكان هذا اميرا على شبه جزيرة المورا ومعاصرا للسلطان العثماني محمد الثاني ١٤٥١

---

543) Vasiliev, op. cit., 441
544) Ware, op. cit., 80
545) Ostrogorsky, op. cit., 503. See also : Eversly, op. cit., 74

ـ ١٤٨١ ، الذي اخذ يستعد لفتح القسطنطينية منــــذ اعتلائـــه العرش . فأقام القلاع على جانب البسفور المطل على جهات العاصمـــة من الشمال ونصب فيه المدافع الثقلية وكذلك قاد حملة عسكرية ضـــد المورا للحيلولة دون تقديمها المساعدات للعاصمة . اما الاجراءات التـــي اتخذها قسطنطين الحادي‌عشر للدفاع فلم‌تكن لتتعدى‌ترميم‌الاسوار وادخار الاغذية ولم يحاول الاوروبيون مده بالمساعدات العسكرية الا بقوات صغيرة من حكومتي البندقية وجنوا ٥٤٦ . وعوضا عن المساعدات العسكرية الاوربية التي تتطلبها الساعة جاءته وفود من رؤساء الدين الغربييـــن للاحتفال باعلان اتحاد الكنيستين . وادى الاحتفال المقام في كنيسة القديسه صوفيا الى استنكار الجماهير وهياجها في وقت كان فيه الخطر العثماني ماثلا امام الاسوار والى تلك المناسبة اشار احد النبلاء البيزنطيين الا وهو لوكاس نوتاراس *Notaras* (انه لمن الافضل لنا ان نرى حكم العمامة التركية في القسطنطينية من رؤيتنا للقبعة البابوية) ٥٤٧

بدأ الحصار العثماني في اوائل نيسان « ابريل » سنة ١٤٥٣ واستمر حتى ٢٩ مايس (مايو) وبرهنت الحوادث على ان اسوار العاصمة المنيعة لم تكن شيئا امام المدفعية العثمانية الثقيلة . وسقطت العاصمة بعـــد حصار دام لخمسين يوما . وقتل قسطنطين الحادي عشر مدافعا عن عاصمته ٥٤٨ ، واستباح العثمانيون المدينة لثلاثة ايام . ومع ذلك فان المؤرخ يوسبنسكي Uspensky يشير الى (ان معاملة الاتراك للسكان في القسطنطينية كانت ارحم من معاملة الصليبيين لهم اثناء احتلالها سنة ١٢٠٤) ٥٤٩

لقد قدر للمدينة التي اشادها قسطنطين الاول ان تطوي اخر صفحاتها في عهد سميه قسطنطين الحادى عشر . ومن المفارقات حقا ان المدينة التي جعلها قسطنطين رمزا للامبراطورية المسيحية اصبحت منارا اسلاميا ومنطلقا لتوجيه الدعوة الاسلامية على يد العثمانيين الى جهات اوروبا الشرقية وقد حقق العثمانيون ما عجز عن تحقيقه الفرس واكملوا حقا ما بدأ به السلـف الاسلامي . وكان سقوط القسطنطينية من الحوادث الخطيرة في التاريـخ

546) Cambridge Mideival History, Vol. IV, 695
547) Quoted in Vasiliev, op. cit., 677
548) Beynes and Moss, op. cit., 48-49
549) Quoted in Vasiliev, op. cit. 653

ولم يزل مجالا خصبا للتأمل والاستنتاج . فاعتبره البعض وكانه انتقـــام اسوي اخذت فيه اسيا ثأرها من فتوحات الاسكندر الكبير او انها كـــرد فعل او حركة مضادة للحروب الصليبية . واعتبرت الحادثة ايضا نهايــة عصر اوروبي وبدايه اخر جديد اطل على المجتمع الاوروبي الذي قاوم ذلك التحدي الاسلامي الجديد بالاتجاهات التي تضمنتها النهضة الاوروبية . كما ان حادثة السقوط اثارت جدلا بين المؤرخين على من يرث الامبراطوريـــة الارثودوكسية ومن هي روما الثالثة ايحق لفينا عاصمة الامبراطوريـــة الرومانيه المقدسة الادعاء بذلك ام انها موسكو صاحبة الميراث ؟ ٥٥٠ ومهما يكن من امر فلعل التنافس بين عائلتي روما نوف وهبسبورك منذ بداية العصور الحديثة على المناطق البلقانية يحمل تبريرا وراثيا واجابه واقعيه عن سؤال من الوارث للامبراطورية الارثودوكسية .

***

---

550) Barraclaugh, op. cit., Ch. The Fall of Constantinople.

اباطرة الفترة :

Dynasty of the Lascaris,	1204 - 1261
Theodore I	1204 - 1222
John III Ducas Vatatzes	1222 - 1254
Theodore II	1254 - 1258
John IV	1258 - 1261
Dynasty of the Palaeologi,	**1261 - 1453**
Michael VIII	1261-1282
Andronicus II	1282 - 1328
Andranicus III	1328 - 1341
John V	1341 . 1391
Manuel II	1391 - 1425
John VIII	1425 - 1448
Constantine XI	1449 - 1453

الفصل الثاني عشر

جوانب اخرى في التاريـــخ البيزنطي
الرهبنة الارثودوكسية ، الاباطرة
والقوانين ، الحياة الثقافيـــة
والفنيـــة

الرهبنة الارثودوكسية :

لعبت الرهبنة دورا خطيرا في الحياة الدينية البيزنطية كما في غيرها من الاقطار المسيحية . وقد قيل (ان افضل السبل لفهم العقيــــــدة الارثودوكسية روحيا ان تسلك اليها سبيل الرهبنة) ٥٥١ . ظهرت الرهبنة كمؤسسة واضحة المعالم لاول مرة في البلاد المصرية في الجهـــات الصحراوية في القرن الرابع ومنها انتشرت بسرعة مذهلة الى ارجاء العـــالم المسيحي . ولم يكن من الصدف ان تكون الرهبنة قد اخذت بالظهور والنمو منذ الإعتراف بالمسيحية ، وذلك لإنتهاء عصر الاضطهادولصيرورة المسيحية شعار العصر . و « الرهبان انذاك عبارة عن شهداء في وقت ولى فيه الاستشهاد الدموي الذي شنته السلطات الرومانية وهي كرد فعل لمفاسد العصر ولنسيان المسيحيين لملكة السماء » ٥٥٢

اتخذت الرهبنة ثلاثة مظاهر توضحت جميعها في مصر سنة ٣٥٠ ولـــم

---

551) Evdokimov P., L'Orthoxie (Paris, 1959) 20
552) Lossky V, The Mystical Theology of the Eastern Church (London, 1957) 17

تزل هذه المظاهر موجودة لحد الان في الكنيسة الارثودوكسية ، تمثل الاول في سلوك النساك Hermits ٥٥٣ وهم الذين يعيشون حياة انعزالية في الاكواخ والمغاور وبين الاشجار وحتى في المقابر او في اعالي الاعمدة . وان اشهر نموذج لهذا النوع من الحياة هي معيشة ابو الرهبنة القديس المصري انطوني ٢٥١ — ٣٥٦ « ٥٥٤ » . وتمثل المظهر الثاني في الحياة الجماعية المشتركة Community Life حيث يعيش جماعة من الرهبان بموجب انظمة مشتركة او بحسب قواعد ديرية معلومة . ومن اشهر الرواد في هذا المضمار هو القديس باخوميوس المصري St. Pachamius ٢٨٦ — ٣٤٦ المشرع للقواعد الديرية التي اقتبسها عنه في القرن الخامس القديس بنديكت St. Benedict الذي نقلها الى الغرب . وقد حبذ القديس باسل الكبير ذلك النوع من الحياة الرهبنية المشتركة ٥٥٥ . اذ اشار هذا الى ضرورة اهتمام دور العبادة الديرية بالمرضى والفقراء وان تحتفظ بمستشفيات وملاجيء وان تسخر طاقاتها لخدمة المجتمع . وبصورة عامة ان الديرية الشرقية اقل اهتماما بالمصالح العامة من الديريه الغربيه . ان المهمة الرئيسية للراهب الشرقي حياة التعبد ومن خلال تعبده يقدم خدمة لارواح الاخرين . اما المظهر الرهبني الثالث فهو المتوسط بين المظهرين السابقين والذي يشار له بالحياة الشبه التنسكية Semieremitic Life وهي عبارة عن حياة ديرية لم تكن فيها سلطة مركزية . اذ يجتمع الرهبان زرافات متفرقة كل منها تمارس عيشا مشتركا تحت اشراف اقدمهم رهبنة . وظهرت هذه في مصر ايضا في النطرون Nitria وشياتي Scetis وانجبت مصر عدة رهبان شهيرين في القرن الرابع كأمون *Ammon* مؤسس دير النطرون ومكاريوس المصري ومكاريوس الاسكندري وغيرهم . هذا ولم تكن الظاهرة الديرية الوسطى مقتصرة على الشرق بل انتشرت في الغرب ايضا واصبح يشار لها هناك بالديرية الكلتية ٥٥٦ .

لقد اعتبرت مصر الارض المقدسة الثانية في القرن الرابع لانتشار الاديرة فيها . واعتقد حجاج بيت المقدس ان حجهم يعتبر ناقصا ان لم يعرجوا على

553) Baynes and Moss, op. cit., 137
554) Ware, op. cit., 45
555) Painter, op. cit., 17-18
556) Ware, op. cit., 46

اديرة النيل . واصبحت فلسطين في القرنين الخامس والسادس مركـز الحركةالديريةواشتهر فيهاكل من القديسين يوثيموس الكبير Euthymius the Great المتوفي عـام ٤٧٣ وتلميـذه القـديس ساباس Sabbas المتوفي عام ٥٣٢ راسس الاخير الدير المسمى باسمه والذي لم يزل قائما في الاردن لهذا اليوم ويماثل ذلك الدير في القدم دير القديسة كاترين فـي طور سيناء الذي اسسه الامبراطور جستنيان الاول . ونظرا لوقوع سيناء وفلسطين في ايدي المسلمين انتقل مركز الحركة الديرية الى القسطنطينية حيث قادها ديرستوديوم Studium الذي اسس منذ ٤٦٣ ، ٥٥٧ اما في القرن العاشر فاصبح مركز الثقل الدري الارثودوكسـي في اثوس

Athos وهي شبه جزيرة صخرية في الاقسام اليونانية الشمالية . ويبلغ ارتفاعها حوالي ستة الاف قدم عن سطح البحر ، وتعرف القمـة بالجبل المقدس . وضم الجبل المقدس عشرين مؤسسة ديرية وعدة دور دينية صغيرة وصوامع Celles واصبحت شبه الجزيرة برمتها خاصة للرهبان الذين بلغ عددهم اربعين الف راهب .

ويجب أن نعلم بانه ليست هناك في الكنيسة الارثودوكسية فرقـا ديرية كما هو معلوم في الغرب كالبندكتيـة والسسترسية والكلونيـة والفرنسسكانية والدومينيكة والجزويتية .. بل ان الراهب الشرقي عضو في مؤسسة الاخوان الوحيدة الكبرى التي تضم كافة الرهبان والراهبـات ولو ان العضو بطبيعة الحال ينتمي الى بيت ديري معين . ويشير بعض الكتاب الغربيين الى رهبان الكنيسة الارثودوكسة بالرهبان الباسليـن Basilian Monks او اتباع النظام الباسيلي غير انها اشارة مغلوطة حقا ان القديس باسلمن الشخصيات الكبرىفي الحركة الديريةالارثودوكسية ولكنه لم يؤسس فرقة معينة ٥٥٨ .

والشخصية المتميزة في الديرالارثودوكسي شخصية الاقدم Elder او الشيخ وهو عبارة عن زعيم روحاني مشهوداله . ولم يكن المنصب بالتعيين او الانتخاب وانما يتوصل اليه عن طريق الالهام . (ويرى الاقدمما

---

557) Ibid., 47
558) Ibid., 48

هي ارادة الله بالنسبة لكل شخص جاء يسأله في مسألة ما . وتلك هي ميزة الاقدم وموهبته الدينية الخاصة . ومن اشهر هؤلاء الاقدمين القديس انطوني المصري الذي امضى الشطر الاول من عمره سن الثامنة عشر الى الخامسة والخمسين في حياة العزلة والتعبد . واخيرا ولو انه استمر عائشا في القفار فقد هجر حياة الانعزال وفتح صدره لاستقبال الزائرين . والتفت حوله زمرة من الطلاب وتجمع حول هذه الزمرة الوف الناس توافدوا من اماكن نائية ليسألوه عن ارادة الله فيهم) ٥٥٩ . وقد خلف القديس انطوني عدة رهبان حذوا حذوة في الانعزال عن الدنيا اولا والرجوع اليها ثانية . فعلى الراهب ان ينعزل بادىء لامر ليستوعب حقيقة نفسه وليعرف الله حق معرفته وليستلهم الحكمة الربانية ومن ثم يفتح ابوا بصومعته ويستقبل العالم الذي ولى منه في بداية الامر فرارا .

الاباطرة والقوانين :

كان مجلس الشيوخ يشارك الاباطرة الحكم من ناحية نظرية منذ عهد اصلاحات اغسطس Augustus غير أن هؤلاء قد حكموا في الواقع منذ اواخر القرن الثالث بدون الاستعانة بهذا المجلس ، اذا اصبح الامبراطور السلطة العليا في الامبراطورية . فهو الذي يعين الوزراء حسب رغبته وله السيطرة المالية وهو المشرع والقائد الاعلى للجيش والاسطول والمرجع الديني النهائي (٥٦٠) .

اعتقدت الكنيسة الارثودوكسية بشخصية الامبراطور المقدسة فهو حسب رأيها قد اختاره الله ليمثله في ارضه ، ونظرا لوحدانية الله فلا مجال لغير امبراطور واحد في هذه الدنيا ، ونظرا لعدم وجود حد فاصل بين الكنيسة والدولة وبين العلمانيين ورجال الدين فقد مثل الاباطرة ادوارا هامة في القضايا الدينية . وادى ذلك الى الاعتقاد بهيمنة الدولة البيزنطيه على الكنيسة واطلق على هذه الظاهرة البابوية القيصرية Caesaro Papism اوسيطرة الدولة على الكنيسة ٥٦١ .

يلقب رئيس الدولة بالامبراطور Imperator او العظيم Augustus

---

559) Painter, op. cit., 17.
560) Runciman, Byzantine Civilization (Cleveland, New York 1961) 51
561) Hussey, op. cit., 86

غير ان هرقل جعل لقبه الرسمي باسيلوس Basileus وهي كلمة يونانية تفيد المعنى السابق وبالرغم من استبدادية الامبراطور فان سلطته محددة في الواقع بالقانون والسيادة الشعبية والتعاليم الدينية والعرف والسوابق ٥٦٢ .

بدات المؤسسة الامبراطورية انتخابية بموجب قاعدة ان الشعب مصدر السلطات غير انه يقوم بتفويضها للامبراطور . ويعبر الشعب عن سيادته بواسطة جهات ثلاث هي مجلس الشيوخ والجيش وسكان العاصمة . وان حصول موافقة هذه الجهات الثلاث من الامور الضرورية قبل الاحتفال بالتتويج ٥٦٣ وعلى الشعب ان يخضع لطاعة الامبراطور طالما يسير سيرا مرضيا ، فان اساء الحكم فيحق لاي من هذه الجهات الثلاث ترشيح اخر بدله . وقد جرت العادة ان يقوم الجيش باختيار المرشح الجديد كما حدث ذلك في عهد فوكاس ٦٠٢ ـــ ٦١٨ وليو الثالث ٧١٧ ـــ ٧٤٠ وليو الخامس ٨١٣ ـــ ٨٢٠ وغيرهم . ثم يستحصل المرشح موافقة مجلس الشيوخ وسكان العاصمة . وقد يرشح الامبراطور احيانا خلاف ذلك نتيجة لمؤامر مثلا تحاك خيوطها من قبل رؤساء الاجهزة الادارية في العاصمة عادة ففي هذه الحالة يدعي بانه مرشح من قبل مجلس الشيوخ ولكن لا بد له من اخذ موافقة الجهتين الاخريتين ، كما حدث ذلك في عهد كل من نقفور الاول ٨٠٢ ـــ ٨١١ وميخائيل الاول ٨١١ ـــ ٨١٣ . وقد تمكن سكان العاصمة في عدة مناسبات من تنصيب وخلع الاباطرة . فقد جاءوا بقسطنطين السابع ٩٤٤ ـــ ٩٥٩ وتمكنوا من خلع اندرونيكوس الاول ١١٨٣ ـــ ١١٨٥ ـــ ٥٦٥ .

وطرا تغير رئيس على مبدأ الانتخاب عندما اصبح من حق الامبراطور اختيار شركاء في الحكم او ورثاء له . حدث ذلك منذ اصلاحات دقلديانوس ومع ذلك فانه من الضروري الحصول على موافقة الشيوخ وسكان العاصمة والجيش على هؤلاء الشركاء او الورثاء ـــ هذا او لم تكن هناك قوانين او سوابق تحدد عدد الاباطرة المشاركين ففي عهد رومانوس الاول المقدوني ٩١٩ ـــ ٩٤٤ كانوا خمسة غير ان السلطة العليا يجب ان

---

562) Runciman, op. cit., 52
563) Baynes, Moss, op. cit., 167-70
565) Runciman, op. cit., 53

تكون بيد امبراطور واحد وبهذه الطريقة تمكن قسم من الاباطرة من جعل الحكم وراثيا في عوائلهم .

اما عملية التتويج فكانت تتم في البداية من قبل رؤساء الاجهزة الادارية في العاصمة واصبحت هذه سنة متبعة منذ عهد دقلديانوس ويقال انها عادة اقتبست من الدولة الفارسية واصبح التتويج منذ الاعتراف بالمسيحية من اختصاص السلك الكهنوتي في العاصمة باعتباره اكبر الشخصيات من بعد الامبراطور . وجرت هذه العادة في القسطنطينية منذ عهد الامبراطور ليو الاول (٤٥٧ — ٤٧٤) .

ويتم التتويج عادة خارج المحلات الدينية في ملعب المدينة الا انه اصبح منذ عهد فوكاس لا يتم الا في الكنيسة الكبرى في القسطنطينية وقد يطلب رئيس الاساقفة في العاصمة اثناء مساهمته في التتويج امتيازات من المتوج بصفته ممثل الشعب لا ممثل الكنيسة . وفي حالة عدم التأكد من نوايا المتوج المذهبية يطلب منه القسم للمحافظة على المعتقد الارثودوكسي . واصبح القسم جزءا من التتويج منذ انتهاء المشكلة اللا ايقونية . وهكذا اخذت مراسيم التتويج تفيد معنى تفويض الامبراطور الحق الالهي في الحكم ٥٦٦ .

ولكن هل يتسنى للمرأة ان تتولى رئاسة المؤسسة الامبراطورية ؟ في الحقيقة لا يوجد نص قانوني يمنع ذلك . غير ان الاعتقاد السائد بأن المرأة لا يمكنها ان تكون من ناحية نظرية المرجع الديني الاعلى ولا يمكنها من ناحية واقعية عادة من قيادة الجيش . ويحق لزوجة الامبراطور تعيين ولي عهد في حالة غياب زوجها او عدم وصول ابنها سن الرشد . اما اذا فضلت الوصية ان تكون امبراطورة فماذا يحدث ؟ لا يوجد جواب دستوري عن ذلك وان حالة الامبراطورة ايرين ٧٩٧ — ٨٠٢ من الحوادث الشاذة ومع ذلك فقد خلعت بالقوة ٥٦٧ .

اشرنا بأن القوى الرئيسية في انتخاب الامبراطور هي الجيش ومجلس الشيوخ والعاصمة التي تنوب عن كافة الشعب وبقي الجيش يلعب الدور الرئيس في الانتخاب . اما الجهتان الثانية والثالثة فقد اصبحت تأثيراتهما ضعيفة منذ القرن السابع . هذا وان مجلس الشيوخ المتألف من كبار

566) Ibid., 89
567) Runciman, op. cit. 56-57

الاثرياء والموظفين والاداريين والقادة العسكريين لم تكن له صلاحيات محددة وتتناسب قوته عكسيا مع قوة الاباطرة . فقد كان جستين الثاني ٥٦٥ ـ ٥٧٨ اداة بيد المجلس بينما وجه جستنيان الثاني في فترة حكمه الاولى ٦٨٥ ـ ٦٩٥ دكتاتوريته ضد ذلك المجلس . واخيرا الغى الامبراطور ليو السادس ٨٨٦ ـ ٩١٢ كافة صلاحيات مجلس الشيوخ عدا اشتراكه في التتويج او عقده حسب المناسبات ٥٦٨ .

ذكرنا بان استبدادية الامبراطور محددة بصورة خاصة بالقانون . فالقانون من ناحية واقعية يمثل دور المحكم بين الشعب والسلطة . لذلك اهتم الاباطرة اهتماما كبيرا في جمع القوانين وتبويبها ، وان اول محاولة حديثة في عملية جمع القوانين الرومانية حدثت في عهد الامبراطور دقلديانوس واسفرت المحاولة عن جمع القوانين الصادرة قبل قرن واحد من حكمه . واعاد الكرة الامبراطور ثيودوسيوس الثاني ٤٠٨ـ٤٥٠ الا انه لم يوفق في جمع كافة القوانين الرومانية واقتصرت الجهود على قوانين فترات معينة ، واخيرا تمكن جستنيان الاول ٥٢٧ ـ ٥٦٥ من القيام بذلك العمل الجبار الذي شرحناه انفا . وقد بقيت شريعة جستنيان سارية المفعول الى عهد ليو الرابع الايسوري اذ ان دوافع الاخير الدينية والانسانية والتطورات الاجتماعية املت عليه استبدال الشريعة السابقة . واصبحت التأثيرات المسيحية متجلية في قوانين الاسرة الايسورية . هذا وقد فضلت الاسرة المقدونية معاكسة التطور التقدمي بمحاولة الرجوع الى شريعة جستنيان املا في اضعاف هيمنه رجال الدين .

الحياة الثقافية والفنية :

أن الاساس الذي شيدت عليه الثقافة البيزنطية هو التراث الهلنستي يعد امتزاجه بالمسيحية وتأثره بالتراث الشرقي . وقد مرت الثقافة البيزنطية في نموها بمراحل معينة لكل منها طابعها الخاص . فالفترة الممتدة من القرن الرابع الى اوائل القرن السابع يمكن اعتبارها فترة تفاعل بين القيم الوثنية والمسيحية تمخضت عن اصطباغ التراث الهلنستي بلون مسيحي ارثودوكسي ٥٦٩ . هذا مع العلم بأن المسيحيين قد

---

568) Ibid., 60-61
569) Baynes and Moss, op. cit., 221

انقسموا على انفسهم في الابتداء حيال الثقافة الهلنستية . فرأى فريق منهم امكانية الاستفادة من ذلك التراث في دعم العقيدة ورأى الفريق الاخر على النقيض من ذلك . واستمر الجدل بين هذين الاتجاهين طيلة ثلاثة قرون من العصر المسيحي . وشهد القرن الرابع محاولات جدية للتوفيق بين الاتجاهين او بعبارة اخرى تنصير الحضارة الوثنية وهكذا اخذت المسيحية تمتص التراث الوثني رويدا رويدا ٥٧٠ .

ان اهم المراكز الثقافية التي قدمت خدمات كبرى في هذا المضمار والتي استمرت حتى الفتوحات الاسلامية هي كبادوكيا Cappadocia في اسيا الصغرى موطن القديس باسل الكبير ٣٣٠ — ٣٧٩ وكريكوري اوف نياسا Gregory of Nyssa المتوفي عام ٣٩٤ وغيرهما ومدينتي بيروت وانطاكيا واشتهرت بيروت بالدراسات القانونية بصورة خاصة وكانت مدينة انطاكيا منارا فكريا هاما . غير ان مدينة الاسكندرية كان لها قصب السبق في القيادة الفكرية طيلة قرون عدة — هذا ولم تظهر القسطنطينية تفوقا في هذا المجال الا منذ عصر جستنيان ٥٧١ . وقد اعتمدت الثقافة البيزنطية الى حد بعيد على الانتاج الفكري الذي قدمته المدارس الاسيوية والافريقية ٥٧٢ . اذ اشتهرت الاسكندرية باتجاهات فلسفية جديدة في تفسير التعاليم المسيحية ارتكزت على التحليل العقلي ومن اشهر الشخصيات الفكرية الهامة في اواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس سنسيوس اوف كيرين Seyenesius of Cyrene وهو من عائلة وثنية تثقف في الاسكندرية وتشرب بالافلاطونية الحديثه ثم اعتنق المسيحية واصبح اسقفا . ومع ذلك فان اراءه بقيت اقرب الى الوثنية منها الى المسيحية . وظهر في الاسكندرية ايضا اثناسيوس الاسكندري Athanasius الذي تولى رئاسة الاسقفية في تلك المدينة وكتب عدة بحوث ضد المشكلة الاريوسية ثم الف كتاب تاريخ حياة القديس انطوني الذي يعتبر من اهم المؤلفات التي روجت انتشار الحركة الرهبنية ٥٧٣ . كما ظهر في مدينة قيسارية الراهب الفلسطيني والمؤرخ المشهور

570) Vasiliev, op. cit., Vol. 1, 116
571) Rice, op. cit., 11
572) Baynes and Moss, op. cit., 223
573) Ware, op. cit., 48

يوزبيوس Eusebius ٢٦٠ ـ ٣٣٩ صديق قسطنطين الكبير . وقد اتبع يوزبيوس الاراء الاريوسية وتمكن من اقناع قسطنطين بالاعتماد على الاريوسيين ومكافحة الفيقيين والف يوزبيوس عدة كتب في التاريخ منها التاريخ الاكليروسي Ecclesiastical History الواقع في عشرة اجزاء بحث فيه تاريخ المسيحية منذ بدايتها حتى سنة ٣٢٤ وكتاب الحوليات Chroncle تناول فيه اخبار الامم القديمة . والف كذلك تاريخ حياة قسطنطين الذي قال فيه بان الله قد اختاره للامبراطورية كما اختار موسى من قبل لهداية الخلق نحو الحرية ٥٧٤ .

هذا ولم يكن الانتاج الفكري الوثني باقل من مستويات الانتاج المسيحي في تلك الفترة . ومن اشهر فلاسفة الوثنية في القرن الرابع هو ليبانيوس الانطاكي Libanius الذي تتلمذ على يده باسل الكبير ، ودرس الامبراطور جوليان قبل توليه العرش محاضرات ليبانيوس وكان لها تأثيرات عميقة في نفسيته ٥٧٥ . ومن مؤلفي الوثنية في القرن الخامس هم بريسكوس Priseus من سكان تراقيا ويعتبر كتابه عن تاريخ الامبراطورية في تلك الفترة من المصادر الهامة عن قبائل الهون الاسيوية . وكذلك المؤرخ زوزيموس Sosimus صاحب كتاب التاريخ الجديد ، ونسب في كتابه سقوط روما سنة ٤١٠ بيد القوط الغربيين الى غضب الالهه الوثنية لهجر الرومان عبادتها ، وكان كتابه هذا حافزا للقديس اوغسطين في دفاعه عن المسيحية في كتابه مدينة الله The City of God . واشتهر ايضا المؤرخ امبانوس مارسلينيوس Ammianus Marcellinius مؤلف كتاب الامبراطورية الرومانية منذ سنة ٩٦ حتي ٣٧٨ وهو من الكتب الهامة عن حكم جوليان والغوط . ٥٧٦

لقد بقيت اللغة اللاتينية لغة رسمية في هذه الفترة . غير ان هناك علائم انحطاطها والتي اخذت تلحظ في الوسط الجامعي في القسطنطينية منذ بداية تأسيسها في عهد ثيودوسيوس الثاني . فقد أمر هذا

574) Eusebius, op. cit., 7-28
575) Vasiliev, op. cit., 123
576) Ibid., 125

الامبراطور بتعيين اساتذة للجامعة وكان عدد اصحاب الاختصاص في اللاتينية اقل بكثير من اولئك المختصين في اليونانية كما لم يحاول الفيلسوف ليبانيوس « ان يعلم اللغة اللاتينية ولم يحبذ تدريسها لاعتبارها حسب رايه لغة البرابرة » ٥٧٧ .

اما في عصر جستنيان فقد تم تمثيل القيم الوثنية والشرقية وطبعها بطابع مسيحي انعكست في سياسة ذلك الامبراطور الدينية وفي اصلاحاته القضائية وفي الفنون الفريدة التي تميزت بها عماراته . وانعكست كذلك في اقلام المؤرخين وادباء العصر كما شرحنا ذلك سابقا .

ان الفترة الممتدة من منتصف القرن السابع حتى بداية القرن التاسع هي على العموم فترة همود في تاريخ الفكر البيزنطي . ويعزا ذلك لمشاكل الامبراطورية مع الفرس ثم العرب المسلمين ولا نشغالها في القضايا الدفاعية وكذلك لتأثيرات المونوثليتية والحركة اللاايقونية . وقد ادت هذه المشاكل الى اقتصار الانتاج الفكري الى حد ما على الدفاع عن الامور العقيدية فلم نسمع بمؤرخين في العصر الهرقلي سوى المؤرخ جورج اوف بيزيديا George of Pisidia شماس كنيسة القديسة صوفيا. اذ دون هذا حروب هرقل ضد الفرس والقبائل الافارية . ويقع الكتاب في ثلاثة أسفار . والف ايضا كتابا دينيا شعريا بعنوان « خلق الكون في ستة ايام Hexaemeron » ٥٧٨ . كما الفت عدة رسائل في موضوع المونوثليتية . ومن اشهر هؤلاء ماكسيموس كونفيسور Maximus Confessor المتوفي عام ٦٦٢ وهو من المناوئين لسياسة هرقل الدينية وكذلك لسياسة قسطان الثاني وتعرض من اجل ذلك للاضطهاد . ويعتبر ماكسيموس من مطوري الرمزية الدينية عن طريق شروحه على فلسفة اللاهوت الدايونيسية .

لقد اثرت المساجلات الدينية حول الايقونية واللاايقونية انتاجا ادبيا غزيرا غير ان اكثرية المؤلفات اللاايقونية قد اتلفت على اثر انتصار الايقونيين . ويرز من بين الايقونيين عدد من مؤلفي الحوليات التاريخية

577) Quoted in Baynes and Moss, op. cit., 201
578) Vasiliev, op. cit. 230

مثل جورج هامر تولوس George Hamertolus الذي بدأ كتابه منذ الخليقة وختمه بانحدار اللاايقونية . ومن اشهر فلاسفة الايقونية هو جون الدمشقي ٦٧٥ ـــ ٧٤٩ ومع انه عاش في سوريا في الزمن الاموي والذي قلده الامويون مناصب ادارية هامة الا انه من الايقونيين المتعصبين واثرت كتاباته تأثيرات كبرى في المجتمع البيزنطي وخاصة بحثه المسمى باصول المعرفة الذي عرض فيه المعتقد الارثذوكسي بشكل واف ، والبحث عبارة عن دفاع عن الايقونية « ٥٨٠ »

اخذت الحياة الادبية والعلمية في الانتعاش منذ اوائل القرن التاسع ومن اشهر شعراء الفترة هى المرأة كاسيا التي رفضت الزواج من الامبراطور تيوفيلوس مفضلة الحياة الديرية وقد اشتهرت بالقصائد الدينية « ٥٨١ » . كما طرأ نشاط ملحوظ على الدراسات العليا في جامعة القسطنطينية ويعزا ذلك الى جهود فوتيوس في عهد ميخائيل الثالث . اذ اعيد تنظيم المناهج التي اصبحت مستندة على اسس التدريس الكلاسيكي حيث تألف المنهج من سبعة علوم حرة اساسية Seven Liberal Arts وقسمت هذه الى مجموعتين الاولى المجموعة الثلاثية Trivium وتشمل على القواعد والخطابة والمنطق والثانية المجموعة الرباعية Quadrivium وتضمنت الحساب والجبر والفلك والموسيقى واهتمت جامعة القسطنطينية بدراسة الفلسفة والعلوم الكلاسيكيه الاخرى ، واصبحت من اشهر المراكز العالمية الثقافية في العصر المقدوني لما حوته على نخبة ممتازة من الاساتذة . ولعل ليوالرياضي من ابرز اساتذة تلك الجامعة اذ جلبت شهرته انتباه المأمون الذي وجه اليه دعوة لحضور البلاط العباسي فرفض الامبراطور تيوفيلوس السماح له بمغادرة البلاد اعتزازا بعلمه . فارسل المأمون رسالة الى تيوفيلوس يرجوه فيها السماح لهذا العالم بزيارة بغداد ولو لمدة قصيرة ، وانه يعتبر السماح له بالشخوص الى بغداد عملا من شأنه ان يعزز الصداقة بينهما . فوعد المأمون الامبراطور بعقد صلح دائم لقاء ذلك . . وقد رفض تيوفيلوس ذلك الالتماس ايضا لانه

579) Ware, oop. cit., 73
580) Ibid., 39
581) Vasiliev, op. cit., 295

« اعتبر العلم سرا من الاسرار كالنار الاغريقية مثلا ويجب الايسمح بانتشاره» ٥٨٣ . وقد تولى ليو رئاسة جامعة القسطنطينية .

بلغت الثقافة البيزنطية درجة مرموقة في عهد الاسرة المقدونية ويشار لها احيانا بداية العصر الذهبي الثاني تمييزا لها عن عصر جستنيان . فقد اعيد تنظيم جامعة القسطنطينية على اسس احدث ١٠٤٥ بادارة كل من العالمين زيلوس وزيبيفيلين . ولقى الادباء والعلماء تشجيعا حارا من قبل افراد تلك الاسرة الحاكمة . ويعتقد قسم من المؤرخين ان التقدم الثقافي في الامبراطورية البيزنطية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر له تأثيرات في التقدم الاوروبي في تلك الفترة وان نهضة اوروبا في القرن الثاني عشر مدينة الى التأثيرات البيزنطية وتأثر قسم من افراد عائلة كومنيني بهذه الحركة الثقافية فنبغ منهم عدة ادباء اجادوا في حقولهم ، منهم والدة الامبراطور الكسيوس الاول دالاسينا Dalassena وابنته ايضا انا كومنين Anna وكذلك الكسيوس نفسه اذ كتب كتاب التأملات Muses ومع ان هذا الكتاب وجه ضد الهراطقة الا انه احتوى على اراء سياسية وحوادث تاريخية هامة كمواقفه من الحملة الصليبية الاولى وتعتبر بنته من اشهر اديبات اوروبا قاطبة حتى القرن التاسع عشر الفت كتابا تاريخيا في خمسة عشر بابا ارخت فيه الحوادث منذ سنة ١٠٦٩ الى ١١١٨ . كما اتجه الامبراطور مانويل الاول لدراسة الفلك والف كتابا بعنوان علم الفلك واستهوته الدراسات اللاهوتية ايضا فالف كتابا بعنوان « مملكة القساوسة » ٥٨٤ .

ومن مؤرخي الفترة جون سيناموس John Cinnamus كتب تاريخا عن كل من الامبراطورين جون ومانويل والكتاب يعتبر تكملة الى تاريخ انا كومنين . وتميز هذا المؤرخ بالدفاع عن حق وراثة البيزنطيين للامبراطورية الرومانية وتفنيد اراء البابوية واباطرة الجرمان في ذلك الشان .

ومن اشهر ادباء القرن الثاني عشر واوئل القرن الثالث عشر هما الاخوان ميخائيل ونيكتاس اكوميناتي Michael and Nicetas Acominati من مواطني

---

582) Bury, op. cit., 436-438
583) Haskins C, The Renaissance of the 12th Century (Cambridge, 1927) 292
584) Vasiliev, op. cit., 489-490

اسيا الصغرى — درس ميخائيل دراسة دينية في سلانيك ثم اصبح رئيس اساقفة اثينا لمدة ثلاثين سنة . وهو من المعجبين بالتراث اليوناني القديم بلغ حبه لذلك التراث حدا انساه التطور التاريخي للمجتمع اليوناني . اذ قال « اعيش في اثينا ولا اجد فيها الا ثينيين » ثم اشار في احدى خطبه « ايه يا مدنية الاثينيين ! يا ام الحكمة الى اية هوة من الجهل قد ترديت .. » . اما اخوه نيكتاس فيعتبر من مؤرخي الجيل اللامعين . ولد في منتصف القرن الثاني عشر وتتلمذ على يد اخيه واتجه اتجاها دنيويا وبيروقراطيا فنال حظوة في بلاط مانويل وكذلك في عهد العائلة الانجيلية . ثم التجأ الى نيقيا عند سقوط القسطنطينية ١٢٠٤ بايدي الصليبيين والف تاريخا يقع في عشرين بابا في الفترة الممتدة من ١١١٨ الى ١٢٠٦ « ٥٨٥ »

وجدت الحركة الفكرية ملاذا لها في امبراطورية نيقيا في فترة ١٢٠٤ — ١٢٦١ — وليس ادل على اهتمام الامبراطور تيودور لسكاريس الثاني بامور الحركة الثقافية من رسالته الموجهة الى الطلاب والتي جاء فيها : « ٥٨٦ »

لا شيء يسعد الفلاح من ان يرى مزرعته
متفتحة الورود . فهو يحكم على براعم نباته
من ذلك المنظر المتفتح الجميل .. ولو اني
بكل اسف قد شغلتني الثورات والحروب والمعارضة
عن واجباتي كرائد في هذا الشان فاني دائم
التفكير في جمال ذلك المرج الروحي ..

وتكونت حول الامبراطورية حلقة من العلماء تجاوبت معه في حبه للعلوم والادب والموسيقى .

وتعهد معظم اباطرة الاسرة الباليولوكية رعاية الثقافة طيلة عهودهم فان ميخائيل الثامن نفسه الف رسائل في اتحاد الكنيستين وارخ تاريخ حياته واسس مدرسة عامة في القسطنطينية . ويشير المؤرخ Baynes الى النشاط الثقافي في بداية العصر الباليولوكي بالعصر الانسكلوبيدي البيزنطي « ٥٨٧ » . ومن اشهر مؤرخي الفترة هما باخامير Pachameres المتوفى عام ١٣١٠ وكريكور راس Gregoras المتوفى عام ١٣٦٠ . الف

585) Ibid., 482
586) Ibid., 545
588) Vasiliev, op. cit., 491

الاول كتابا في تاريخ الامبراطورية البيزنطية تناول فيه الفترة الممتدة من ١٢٦١ — ١٣٠٧ وكتب الثاني « التاريخ الروماني » في سبع وثلاثين كتابا لفترة ١٢٠٤ — ١٣٥٩ .

ومن اشهر فلاسفة العصر الباليولوكي هو جيمستون بلتون Gemiston Plethon الذي هام بالتراث الهلنستي ونادى بالرجوع الى الوثنية الكلاسيكية . وحدثته نفسه ان يشرع دينا جديدا بدراسة الاساطير اليونانية ويعتبر بلتون انسانيا Humanist على غرار انساني ايطاليا . بدأ ثقافته الاولى في القسطنطينية وقضى معظم عمره الذي طال لمدة قرن تقريبا في مدينة مسترا . واوفد الى مؤتمر فلورنس الديني للتفاوض في شان اتحاد الكنيستين . هدف من فلسفته الى المقارنة بين افلاطون وارسطو وبذلك فتح بابا جديدا في الجدل القائم في العصور الوسطى في اوروبا بين الفلسفتين . ويعد ايضا من مؤسسي الاكاديمية الافلاطونية في فلورنس تركت اراؤه انطباعات عميقة على مفكري العصر من الانسانيين ومن اهم كتاباته « بحث في القوانين » وهذا عبارة عن محاولة غير موفقة لاعادة مجد الوثنية على حساب المسيحية عن طريق الفلسفة الافلاطونية الحديثة ولايجاد مثل عليا جديدة في الحياة . ورأى بلثون ان اكتشاف السعادة يتطلب الاهتمام بفهم الطبيعة البشرية فهما دقيقا كفهمنا للنظام الكوني الذى يشكل فيه الانسان جزءا « ٥٨٨ » . كما قدم بلتون تقريرا الى السلطات العليا البيزنطية مقترحا فيه بناء مجتمع جديد للنهوض بالامبراطورية ترسم فيه الخطوط الاساسية لجمهورية فلاطون كما نوهنا عن ذلك سابقا . وتوفي بلتون في مدينة مسترا ١٤٥٠ وهو حسب راي رونسمان اخر فيلسوف في العصر الباليولوكي يقدم فلسفة اصيلة « ٥٨٩ » .

اما الاشعار الشعبية الرومانتيكية فقد اصبحت شائعة في الامبراطورية منذ القرن الثاني عشر . وتدور مواضيع تلك القصائد حول مؤامرات الفرسان وتمجيد البطل المسيحي . وينسب ذلك الضرب الادبي لدى قسم من المؤرخين الى التأثيرات الصليبية . ومن اشهر القصائد الشعبية هي ملحمة بلثاندراس Belthadras وخريسانتزا Chrysantza وهي لشاعر مجهول وموجز القصيدة ان امبراطورا يسمى رودولفوس له ولدان

---

589) Runciman, op. cit., 187

فيلارموس وبلثاندراس وكان الاخير هو الاصغر اتصف بالجمال والشجاعة هام على وجهه خارج بلاده لعدم تحمله تعسف والده ، فتوغل في بلادالاتراك وارمينيا الصغرى . ثم وصل طرسوس وقد شاهد نهرا قرب المدينة في وسطه نجمة ساطعة . وقد هدته هذه النجمة الى قلعة الحب وهناك قرأ ما هو مكتوب على تمثالين من تماثيل القلعة فادرك منها حبه المقبل الى خريسانتزا . وحظى في القلعة بمقابلة ملكها الذي يتوج راسه تاج ضخم ويحمل صولجانا هائلا وسهما ذهبيا . وبعد ان علم الملك بقصته اوعز اليه ان يختار اجمل فتاة من مجموعة اربعين . وان يسلمها سوطا حديديا وعندما فعل الفتى ذلك سرعان ما تلاشت كافة المناظر من امامه فكانه استفاق عن حلم من الاحلام . لذ توجه الى مدينة انطاكيا التى وصلها بعد مدة خمسة ايام . ولاقى في مشارفها ملكها حيث كان خارجا للصيد . وبعد ان تعرف عليه عينه موظفا في البلاط . وهناك وقعت عينه على خريسانتزا بنت ملك انطاكيا فتذكر حالا انها فتاة احلامه التي سلمها السوط في قلعة الحب . فتوطدت العلاقات بينهما واخذا في اللقاء تحت جنح الظلام في جنائن القصر . وقد كشف الحراس سرهما فاودع الفتى السجن غير انخريسانتزا اقنعت خادمتها الامينة بان تخبر الملك بان الفتى جاء للقائها لا للقاء سيدتها وعند سماع الاب بذلك امر باطلاق سراح الفتي . ثم دبرت خريسانتزازواجا شكليا بين خادمتها ومحبوبها لتلتقى به تحت ذلك الستار . وبعد عشرة ايام من ذلك فر الفتى والخادمة وخريسانتزا وعدد من الخدم المخلصين . وعند عبورهم احد الانهر غرق الجميع ما عدا بلثاندراس وحبيبته . وحين وصولهم الى شاطيء البحر بعد جهود مضنية ابصرا سفينة راسية كان قد ارسلها والده للتفتيش عنه . وسرعان ما شخص البحارة ابن الامبراطور فحملوه وصاحبته الى والده رودلفوس الذي فرح كثيرا لعودة ابنه . وتنتهي الملحمة الشعرية بزواج العشيقين وتتويج بلثاندراس امبراطورا هذا وقد استمر ذلك الاتجاه الادبي الشعبي سائدا في المجتمع البيزنطي طيلةالقرنين الرابع عشر والخامس عشر « ٥٩٠ » . الفن

((اما الفن البيزنطي فيمثل ائتلاف العناصر الهلنسينية والمسيحية والشرقية

---

590) Vasiliev, op. cit., 558-559

ايضا . وهو عبارة عن فن ديني في جوهره على حـــد تعبير الاستاذ رايس Rice قصد به اظهار المشاعر الدينية بالتجريد والرمزية ويعتبر الفـن البيزنطي فنا معقداً تخفي مظاهره معان عميقة اعتمد الفنان في جلب الانتباه اليها على الالوان البراقة « ٥٩١ » . وقد اخذ الفن البيزنطي يتبوأ مكانته منذ منتصف القرن السادس وتعتبر القسطنطينية موطن الفن البيزنطي الاصيل الذي هدف الى تمجيد الاباطرة والديانة المسيحية .

ان دقة الفن البيزنطي وعظمته ومدى انطباعاته على المشاهدين لم تكـن مقتصرة على ابهة المباني وزخارف الفسيفساء والبراعة الهندسية فقط وانما أيضا في الصور والتماثيل الدينية سواء اكانت في دور العبادة او خارجهـا وكذلك في الايقونات المتداولة وتصاوير المخطوطـات والنقوش العاجيـة واعمال البنـاء « ٥٩٢ » .

تدين القسطنطينية في مجالاتها الفنية الى الاسكندرية بالدرجة الاولى ثـم الى الفن السوري في الدرجة الثانية . غير انها اخذت تشق طريقها الفني مستقلة عن التأثيرات الخارجية منذ منتصف القرن السادس . ولعـل الاختلاف المذهبي بين القسطنطينية من جهة والاجزاء الشرقية من جهة اخرى من عوامل ظهور فن ارثذوكسي في العاصمة اتصف بطابع المحافظة والوقار . ٥٩٣

لقد مر الفن البيزنطي بتطورات تاريخية لكل منها ميزتها الخاصة . فبالاضافة الى اشتهار العصر الجستنياني بالفن المعماري « ٥٩٤ » . فان الفنـون الصغرى كالحفر على العاج والزخارف الموازييكية « ٥٩٥ » . و الرسم على المخطوطات استحقت الاعجـاب الفني لمناظرهـا المعبرة ودقة صنعتها وثوضح النماذج الهلنستي والشرقي باجلى مظاهره في العصر اللاايقوني ٥٩٦ وقد مثل العصر المقدوني النهضة البيزنطية . وذلك بالرجـوع الـى المناظر الطبيعية . اما في العصر الباليولوكي فقد لبس الفن البيزنطي حللا ازهى فاصبحت التماثيل والصور تعبر بشكل اوضح عن المضامين . واهتم الفنانون في ذلك العصر بالتفاصيل الفنية او بما يعبر عنه بالرتوش .

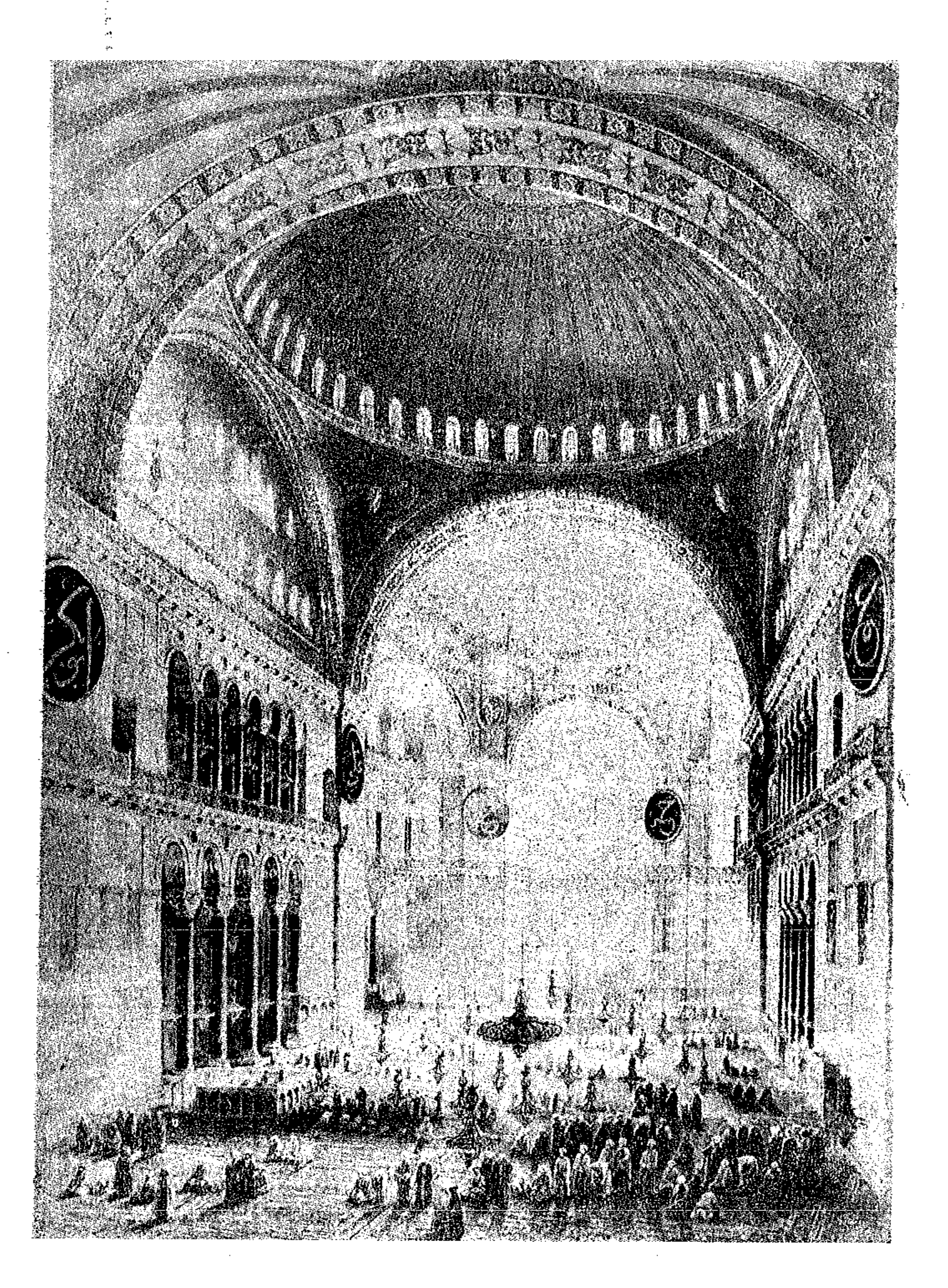
---

591) Rice, op. cit., 9
592) Ibid., 15
593) Ibid., 16

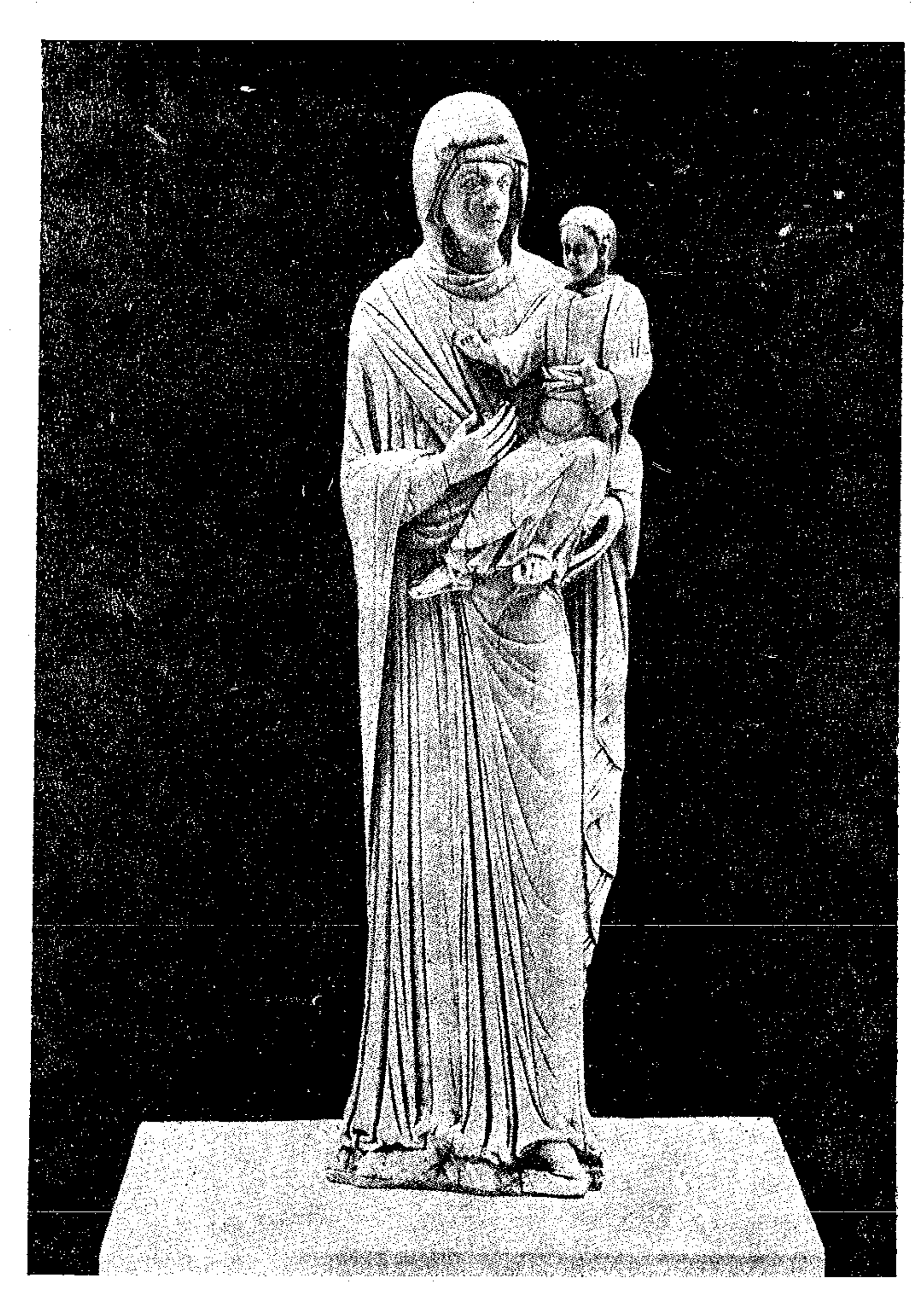
٥٩٤) انظر صورة جستنيان وحاشيته
٥٩٥) انظر مدخل كنيسة القديسة صوفيا
٥٩٦) انظر تمثال العذراء العاجي
انظر صورة العذراء والملاك



صورة موزاييكية تمثل جستنيان وحاشيته . وهي من مشاهد كنيسة رافيتا .



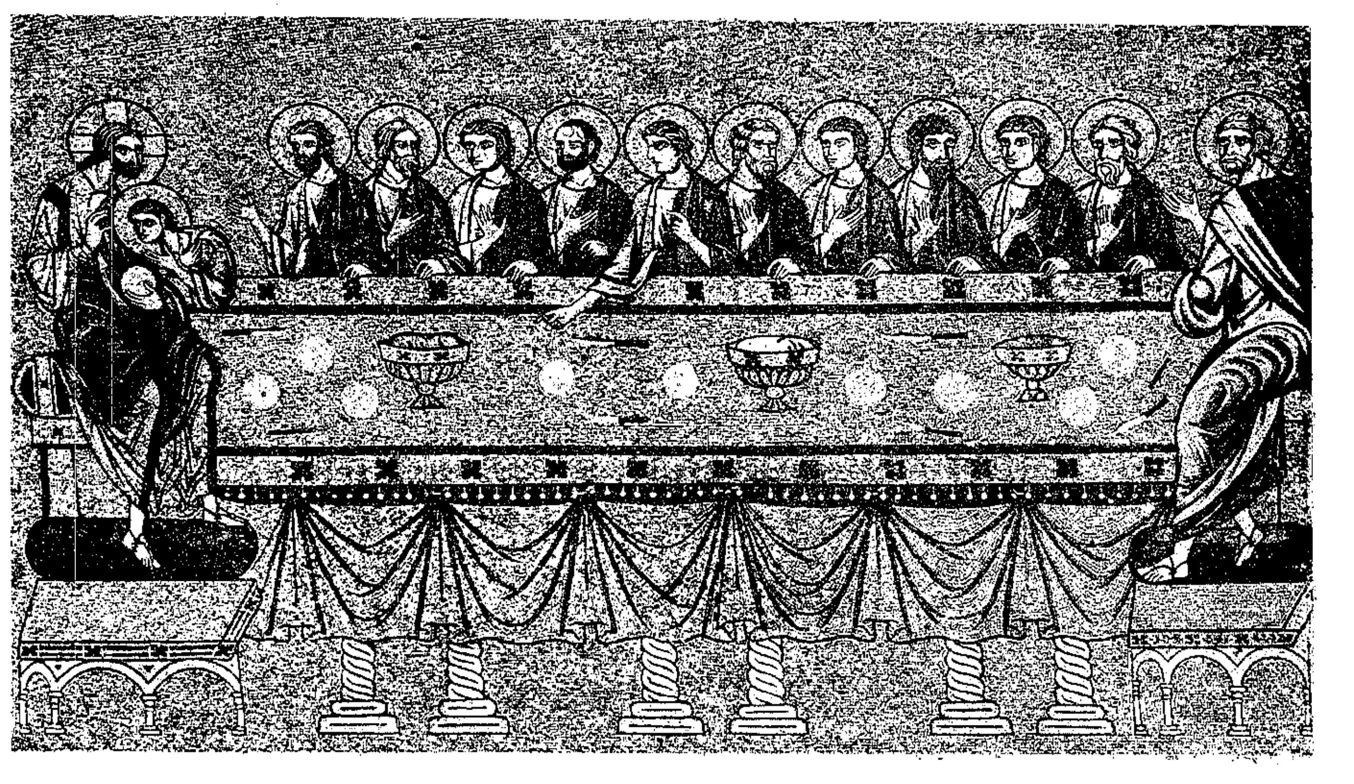
مدخل كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية . كما صورها المهندس الايطالي فوساتي حوالي سنة ١٨٥٠



تمثال عاجي يمثل العذراء وطفلها



ايقون من عمل فنان من القسطنطينية على الاغلب يمثل الفن البيزنطي في النصف الاول من القرن الرابع عشر .



العشاء الاخير

المحتويات

مصادر البحث

Atkinson W., A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960).

Barraclaugh G., History in a Changing World (Oxford, 1957).

Baynes and Moss, Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization (Oxford, 1961).

Berger A., and Schiller A., Biography of Anglo-American Studies in Roman, Greek and Greeko-Egyptian Law and related Science (Washington D.C. 1945).

Bryce V., The Holy Roman Empire (London, 1950)

Bullough S., Roman Catholicism (Middlesex, 1963).

Burgh G., The Legacy of the Ancient World, 2 Vols. (Middesex, 1953).

Bury B., A History of the Later Roman Empire, from Aracadius to Irene, 395 - 800, 2 Vols - (London 1889).

Bury B., A History of the Eastern Roman Empire, from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, 802 - 867 (2 Vols London, 1889).

Bury B., The Constitution of the Later Roman Empire, (Cambridge, 1910)

Cambridge Medieval History, Vols, I IV.

Challandon F., Essai sur la Regne d'Alexis Comnene (Paris, 1900)

Deanesly M., A History of Early Medieval Europe, 476 - 911 (London, 1960)

Diehl C., Histoire de l'Empire Byzantin (Paris, 1930).

Diehl C. Byzance Grandeur et Decadence (Paris, 1919).

Eusebius, The History of the Church, from Christ to Constantine, Translated with an Introduction by Williomson (Middlesex, 1965).

Evdokimov P., L'Orthodxie (Paris, 1959)

Eversley L., The Turkish Empire, its Grouth and Decay (Lahore, 1959).

Fisher L., A History of Europe, from the Earliest Times to 1713 (London, 1957)

Gibbon E., The Decline and Fall of the Roman Empire, 6 Vols (London, 1962)

Haskins C., The Renaissance of the Twelfth Century (Cambridge, 1922).

Hitti Ph., History of Syria (London, 1951)

Hitti Ph. History of the Arabs (London, 1961)

Labourt J., Le Christianisme dans l'empire perse sous la Dynastie Sassinide (Paris, 1904)

Leff G., Medieval Thought, from St. Augustine to Ockham (Middlesex, 1962)

Lossky V. The Mystical Theology of Eastern Church (London, 1957)

Lot F., The End of the Ancient World and The Beginning of the Middle Ages (London, 1931).

Neill S., Christian Missions (Middlesex, 1964).

Oman C., The Dark Ages (London, 1908)

Ostrogorsky G., History of the Byzantine State, Tr., by Hussey (Oxford, 1961).

Painter S., A History of the Middle Ages, 395-1500 (New-York, 1942).

Pirenne A., A History of Europe, from the Invasions to the XVI Century (New-York, 1955).

Procopius, 7 Vols., Tr. by Dewing (London, 1951).

Psellus M., Fourteen Byzantine Rulers (Middlesex, 1964).

Rice T., Art of the Byzantine Era (London, 1963.)

Robinson H. An Introduction to the History of Western Europe, Revised and Enlarged by Shatwell, Vol. 1 (London, 1934)

Runciman S., The Sicilian Vespers, The Rising which brought about the Overthrow of the Universal Papal Monarchy (Middlesex, 1958).

Runciman S., Byzantine, Civilization (NewYork, 1961).

Runciman S., A History of the Crusades, The Kingdom of Acre and the Later Crusades, Vol. III (Cambridge, 1950).

Sabine H. A History of Political Theory (New York, 1961).

Setton, Wolf and Hazard, A History of the Crusades, Vol. Pennsylvania).

Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (New York, 1942).

Toynbee A., A Study of History, Volf IV London 1939).

Ure N., Justinian and his Age (Middlesex, 1951).

Vasiliev, A., A History of the Byzantine Empire, 324-1453, 2 Vols (Madison, 1964).

Ware T., The Orthodox Church (Middlesex, 1964).

الاب بولس اليسوعي ، خلاصة الدين المسيحي (بيروت ، ١٩٦٥

الدكتور مصطفى عبد العليم،دراسات في تاريخ ليبيا القديم (بنغازي،١٩٦٦)

ص	س	الصواب	الخطأ
٥	٩	احد	احدى
١٩	١، ٢	ان يحل السطران الاول والثاني محل بعضها البعض	
٢٢	١١	٤٥٧	٤٥١
٢٤	٥	الصراع	اصراع
٢٥	٨	الاستقراطية	الارستقراهيه
٢٥	١٥	الدوناتيين	الودنائيين
٣٠	١٦	معنويات	معونيات
٣٢	٨	الاريوسيه	الايوسيه
٣٢	٨	فأصدر	عن مذهبه
٣٨	١٦	اختلفا	اختلافاً
٤٥	٢١	تدفقت	تدقعت
٤٦	٢٤	الامبراطور	الابراطور
٤٩	١٥	خسروه	مسروه
٥٠	٣	الغربيون	الغوبيون
٥١	١٥	عن الجبايه	الجبايه
٥٤	١٦	الامبراطور	الابراطور
٥٤	١٩	مشيرين	مثيرين
٥٤	٢٥	الامبراطور	الابراطور
٥٥	١، ٢	ان يحل السطران الاول والثاني محل بعضها البعض	
٥٥	٢١	مالطه	ماللطه
٦١	٢٦	الزرادشتية	الزرادشينة
٦٣	٨	العزى	العزي
٦٣	٢٣	الفرس	لفرس